الكتاب: المقامر

المؤلف: فيودور دوستويفسكي

المترجم: سامي الدروبي

الطبعة الأولى، ٢٠١٣

المقامر ١٨٦٦

إن فكرة تأليف رواية «المقامر» قد خطرت لدوستويفسكي سنة ١٨٦٣، أثناء رحلته إلى الخارج مع باولين سوسلوفا. فبينما كان دوستويفسكي في طريقه إلى باريس للحاق بحبيبته التي تلبث بمدينة فسبادن الألمانية ليقامر على الروليت. وقد ألهبه هوى هذه المقامرة، وربح، وظن أنه أدرك القواعد التي يجب اتباعها في هذه اللعبة لضمان الربح. وها هو ذا يكتب إلى فرفارا كونستان، أخت زوجته الأولى، قائلاً: «لقد أصبحت أعرف السر حقاً: إنه سر بسيط غاية البساطة، وهو أن يمتنع المرء من حين إلى حين، دون أن يهتم أي اهتمام بمراحل اللعب، ودون أن يفلت منه زمام سيطرته على أعصابه. ذلك كل شيء. يستحيل أن يخسر اللاعب متى اتبع هذه القواعد». ولكن دوستويفسكي ما يلبث أن يروي لأخت زوجته ما أصابه في اللعب من سوء الحظ وما نالته به المصادفات من نكبات، فيقول لها في رسالة بعث بها إليها من مدينة بادن بادن بعد الرسالة الأولى بأسبوع واحد: «لقد وضعت لنفسي بمدينة فسبادن طريقة في اللعب طبقتها فسرعان ما ربحت عشرة آلاف فرنك. ولكنني اندفعت في تيار الحماسة صباحاً، فغيرت هذه الطريقة، فما لبثت أن خسرت على الفور. حتى إذا عدت في المساء إلى تلك الطريقة، فاتبعتها اتباعاً دقيقاً لا أحيد عنه، وجدتني أربح من جديد ثلاثة آلاف فرنك بسرعة وبغير كبير جهد. فقولي لي بعد هذا: ألم يكن من حقي أن أتحمس وأن أظن أنني إذا طبقت طريقتي تطبيقاً صارماً كنت أضع سعادتي بين يدي؟...».

إن هذه الحاجة بعينها إلى المال، وهذا الظمأ نفسه إلى الاغتناء في سبيل إسعاد ذويه هما الينبوع الذي ستصدر عنه صورة «السوبرمان» المخفق: راسكولنيكوف، بطل رواية «الجريمة

والعقاب». ولكن دوستويفسكي، قبل أن يتصور روايته «الجريمة والعقاب» يفكر في معالجة موضوع آخر. وها هو ذا يكتب إلى ستراخوف في ١٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٦٣، قائلاً: «ليس عندي الآن شيء جاهز. ولكنني وضعت مخطط قصة موفّقة (في رأيي)، موضوعها هو التالي: شاب روسي في الخارج... شخصية حية (يُخيّل إليّ أنني أراها ماثلة أمامي)... النقطة الأساسية هي أن كل ما يتدفق في الشاب من نسغ الحياة، وكل ما يضطرم فيه من قوى، وكل ما يعصف به من فوران واندفاع، وكل ما يتصف به من جرأة وجسارة، النقطة الأساسية هي أن هذا كله تستنفده الروليت. إنه مقامر. ولكنه ليس مجرد مقامر، كما لم يكن «الفارس البخيل» الذي وصفه بوشكين مجرد بخيل (ولا أريد أن أقارن نفسي ببوشكين، وأنا أقول هذا من باب الإيضاح). إنه شاعر من نوع، خاص، ولكنه يحس بالخجل والعار من هذا الشعر، لأنه يشعر بصغاره شعوراً عميقاً، رغم أن الظمأ إلى المخاطرة يرفع قدره في نظر نفسه. والقصة كلها ترينا كيف ينصرف إلى المقامرة على الروليت خلال ثلاث سنين في بيت من بيوت القمار. ولئن اجتذب كتابي «منزل الأموات» انتباه الناس من حيث هو تصوير لسجناء لم يسبق لأحد أن وصفهم قبل ذلك عياناً، فلا شك أن هذه القصة ستجتذب هي أيضاً انتباه الناس من حيث هي تصوير مفصل جداً للروليت بالعيان... «هي وصف لنوع من الجحيم يشبه جحيم المعتقل». ولكن من الواضح أن هذه القصة لا تعدل «منزل الأموات» قوة وعظمة. ولا شك أن الكاتب أحس بذلك، فلم يتكلم عن مشروعه هذا بعدئذ خلال ثلاث سنين. والواقع أنه كان في أثناء هذه المدة منهمكاً أشد الانهماك في تأليف روايته: «الجريمة والعقاب» التي ما ينفك يعيد النظر فيها ويبدلها وينقحها؛ وهو ينتهز أثناء ذلك فرصة من الفرص فيكتب قصته «في قبوي» ثم يعود إلى روايته الكبيرة «الجريمة

والعقاب» التي يبدأ بنشرها في شهر شباط (فبراير) ١٨٦٦؛ ولكن ها هو ذا يتذكر في أول تشرين الأول (أكتوبر) من تلك السنة نفسها العقد الذي أبرمه مع الناشر الجشع ستيلوفسكي، ذلك العقد الذي يلزم دوستويفسكي بأن يقدّم للناشر في أول تشرين الثاني (نوفمبر) رواية جديدة لم يسبق نشرها تتألف من عشرة ملازم من القطع الكبير على الأقل، وإلا فقد حقوقه عن جميع مؤلفاته السابقة واللاحقة جميعا. فينصحه صديقه ميليوكوف بأن يملي هذه الرواية إملاء (وهو لم يكتب منها سطراً واحداً بعد)، أن يمليها إملاء على فتاة تكتب بالاختزال. وفي الرابع من تشرين الأول (أكتوبر) تجيئه الفتاة آنا سنيتكين، فيأخذ يملي عليها، ويسير العمل سيراً حسناً. فما هي إلا خمسة وعشرون يوماً إذا بالرواية قد أُنجزت. وقد جاءت الرواية طيبة رغم هذه العجلة في إملائها. إنها تنبض بالحياة؛ والقارئ يحس إحساساً واضحاً أن دوستويفسكي يروي فيها طرفاً من قصة حياته. هي رواية الحب المعذب الذي عاشه دوستويفسكي مع باولين سوسلوفا (وقد احتفظ باسمها في الرواية)، البطل فيها هو الشاب ألكسي إيفانوفتش الذي يعمل معلماً للأولاد لدى جنرال روسي، والذي يأسره حبان جامحان قويان، أولهما الحب الذي يشعر به نحو باولين ألكسندروفنا القاسية العاتية الغريبة، والثاني هو الهوى الجارف الذي يرده إلى مائدة الروليت بغير انقطاع. وأن الحب الذي يحمله لباولين لهو مزيج مر حب وبغض معاً: إن ألكسي يعترف لباولين بأنه يجد في عبوديته تجاهها ملذات كبيرة، ويقول لها إن في المذلة والسقوط المتعة عظمى... وهو يخاطبها بقوله: استفيدي من عبوديتي، استفيدي منها!.... هل تعلمين أنني سأقتلك في يوم من الأيام؟

أما هوى المقامرة الذي يمازج هوى الحب في نفس البطل، كما كان كذلك في نفس دوستويفسكي في لحظة من اللحظات، فإن دوستويفسكي يصوره في هذه الرواية نوعاً من الافتتان، نوعاً من السحر، نوعاً من الهذيان، ويكاد يصوره نوعاً من التحدي للقَدَر! قال هنري ترويا متحدثاً عن دوستويفسكي: «لقد أتاحت له الروليت أن يعبث بالقدر كما كان القدر يعبث به». صدق هنري ترويا، فبفضل الروليت تجاوز دوستويفسكي «الجدار»، جدار المنطق، الذي لطا عنده بطل قصة «في قبوي». إنه ينتقل هنا إلى ميدان المصادفة، و«اللامنطق»؛ قائلاً: «لا يبقى ههنا دلالة لقولك أن اثنين واثنين تساوي أربعاً. إن القمار هو التجربة الأولى للحرية في العالم المادي».

وفي هذه الرواية يصوّر دوستويفسكي شخصيات أخرى طريفة: يصور السيدة العجوز بابولنكا التي ينتظر الجنرال، الرجل التافه، موتها الوشيك: ما أروع وصف دوستويفسكي لهذه العجوز حين استبدّ بها هوى المقامرة! وإذا كان موتها الوشيك: ما أروع وصف دوستويفسكي لهذه العجوز حين استبد بها هوى المقامرة! وإذا كان المؤلف يرسم للروس في هذه الرواية صورة غير مشرقة فإن الصور التي يرسمها لغيرهم ليست أكثر إشراقاً: فالآنسة بلانش الفرنسية التي تهب نفسها لمن يجزل العطاء أكثر من غيره؛ ودي جريو الذي لا يختلف دوره كثيراً عن دور متطفل إن لم يزد عليه حقارة؛ والبارون الألماني المتكبر المتعجرف الغبي؛ والبولونيون الثلاثة «النصابون»، هؤلاء جميعاً، وهم من غير الروس، ليسوا بالشخصيات المحببة. وهنا نرى خيبة الأمل التي أحسها دوستويفسكي تجاه أوروبا الغربية، والتي عبر عنها في «ذكريات شتاء عن مشاعر صيف». وليس ثمة إلا استثناء واحد: هو شخصية مستر

آستلي، ذلك الإنجليزي الصموت الفاضل الذي يحب باولين دون أن يعترف لها بحبه، ويمد يد العون إلى ألكسي، ويحاول أن يصلح المساوئ التي يقارفها الأبطال الرئيسيون في هذه القصة. إن هذا الإنسان المتأمل يرى أن الروليت إنما خلقت للروس، الشرهين المتلافين المبذرين، المسعورة أهواؤهم. إن دوستويفسكي يدين هنا على لسان مستر آستلي مَيْلين جامحين كانا يعيثان في نفسه فساداً، ثم برئ منهما آخر الأمر.

الفصل الأول

هاأنذا أعود أخيراً بعد غياب طال خمسة عشر يوماً، كان أصحابنا قد وصلوا رولتنبرج[1] منذ ثلاثة أيام. وكنت أحسبهم ينتظرونني على صبر بلغ من النفاذ أقصى الشدة. لكنني كنت على خطأ. كان الجنرال طلق الهيئة مختال الخطى، كلمني مستعلياً ثم أرسلني إلى أخته. واضح أنهم وجدوا ما يقترضونه من مال. حتى لقد بدا لي أن الجنرال كان من حضوري في ضيق وحرج. وكانت ماري فيليبوفنا مضطربة كل الاضطراب. فلم تكد تخاطبني ببضع كلمات، حتى أخذت المال فعدّته وأصغت إلى تقريري حتى نهايته. كانوا ينتظرون على العشاء ميزتنوف والفرنسي الصغير ورجلاً إنجليزياً. تلكم عادة أهل موسكو دائماً: متى حصلوا على مال دعوا الناس إلى عشاء. وحين رأتني باولين ألكسندروفنا سألتني لماذا غبت هذا الغياب الطويل كله، ثم مضت لم تنتظر جوابي. واضح أنها فعلت ذلك عامدة. ولا بد مع ذلك من تعليل. لقد ضاق صدري ذرعاً.

أُعطيت حجرة صغيرة في الطابق الرابع من الفندق. الناس يعرفون هنا أنني واحد من حاشية الجنرال. لقد ظفر أصحابي بلفت الأنظار إليهم. كان ذلك واضحاً. فالناس جميعاً هنا يعدّون الجنرال من سراة الروس الذين يملكون ثراء طائلاً. وقد كلفني قبل العشاء بعدة أمور، منها أنه أعطاني ورقتين نقديتين لتبديلهما (كل ورقة بألف فرنك). بدلتهما في مكتب الفندق. الآن، سينظر إلينا الناس، خلال أسبوعين في أقل تقدير، نظرتهم إلى أناس من أصحاب الملايين.

---

[1] لقد اختار دوستويفسكي لروايته في أول الأمر عنوان «رولتنبرج» ثم غيره استجابة لإلحاح الناشر. ولعله يريد باسم رولتنبرج مدينة فسبادن الألمانية التي قامر فيها بالروليت سنة ١٨٦٣ وسنة ١٨٦٥.

ذهبت أبحث عن ميشا وناديا[٢] لأصحبهما في نزهة: ولكنني فيما كنت أهبط السلم أرسل الجنرال يدعوني إليه. لقد رأى أن من الخير أن يعرف إلى أين أقود الطفلين. إن هذا الرجل لا يستطيع حتماً أن ينظر إليّ وجهاً لوجه. إنه يتمنى ذلك، لكنني أرد عليه في كل مرة بنظرة تبلغ من الإلحاح، أي من الوقاحة، ما يفقده صبره.

وفي حديث منتفخ محشو باستطرادات، في حديث صار آخر الأمر إلى فوضى كاملة واضطراب تام، أفهمني أن عليّ أن أنزّه الطفلين في الحديقة على مسافة من الكازينو. ومن أجل أن يختم كلامه، غضب وقال بلهجة فظة:

– أم تراك تأخذهما إلى الروليت؟ معذرة إذا قلت لك هذا، ولكنني أعرف أنك ما تزال على شيء من الطيش، فقد تستسلم لمغريات المقامرة. وعلى كل حال، رغم أنني لست من يهديك سواء السبيل، ولست أنوي أن أقوم بهذا الدور قط، يحق لي أن أتمنى أن لا تعرّض سمعتي لأذى، إذا جاز لي أن أستعمل هذا التعبير...

قلت بهدوء:

– لكنك تعلم حق العلم أنني لا أملك مالاً، ولا بد أن يملك المرء مالاً حتى يخسره في القمار.

أجاب الجنرال وقد احمرّ وجهه قليلاً:

– سأعطيك حالًا.

---

[٢] «ميشا» و«ناديا» هما تصغير اسمي ميشيل وناديجدا.

قال ذلك ثم نبش مكتبه قليلاً، فأخرج منه دفتراً، فوجد أنه مدين لي بما يقارب مائة وعشرين روبلاً.

وأردف يسأل:

– كيف أدفع لك هذا المبلغ؟ يجب أن نحوّله إلى تاليرات. إليك الآن مائة تالير رقماً مدوَّراً. أما الباقي فنصفيه فيما بعد.

تناولت المال دون أن أنبس بكلمة.

– لا يغضبنّك كلامي، أرجوك... أنت امرؤ سريع التأذي... ولئن أبديت لك هذه الملاحظة، فمن قبيل التحذير إن صح هذا التعبير، وأحسب أن ذلك من حقي...

وفيما كنت عائداً بالأطفال قبيل العشاء صادفت في الطريق جماعة يركبون خيلاً. كان أصحابنا ذاهبين في زيارة لبعض الآثار. عربتان فخمتان، جياد رائعة! كانت مدموازيل بلانش في إحدى العربتين مع ماري فيليبوفنا وباولين؛ وكان الفرنسي الصغير والإنجليزي وصاحبنا الجنرال يخفرون العربة على صهوات أفراسهم. وكان المارة يتوقفون لينظروا إليهم. لقد أحدث هذا أثره. لكن ذلك سوف ينتهي بالجنرال إلى نهاية سيئة. لقد حسبت أنهم بالآلاف الأربعة من الفرنكات التي جئتهم بها، وبما استطاعوا أن يقترضوه من غير شك، يملكون الآن مبلغاً يتراوح بين سبعة آلاف وثمانية. وهذا قليل جداً على مدموازيل بلانش.

إن مدموازيل بلانش تنزل مع أمها الفندق نفسه الذي ننزل فيه نحن، وينزل فيه الفرنسي القصير أيضاً. إن خدم الفندق ينادونه «سيادة الكونت». أما أم مدموازيل بلانش فهي تسمي نفسها «السيدة الكونتيسة». ومن يدري على كل حال؟ لعلهما كونت وكونتيسة حقاً.

كنت على ثقة من أن سيادة الكونت لن يتعرفني إذا نحن التقينا على العشاء. وواضح أن الجنرال لم يخطر بباله لحظة أن يعرّف أحدنا بالآخر، أو أن يقدمني إليه على الأقل. لقد عاش سيادة الكونت في روسيا، فهو يعرف إذن صِغَر شأن ما يسى هنالك «أوتشيتل» (المربي). على أن سيادة الكونت يعرفني حق المعرفة. لكنني لم أكن منتظراً في العشاء. لا شك أن الجنرال نسي أن يصدر أوامره في هذا الشأن، وإلا لأرسلني إلى المائدة المعدّة من غير شك. جئت من تلقاء نفسي، فرمقني الجنرال بنظرة استياء. وسرعان ما بادرت ماري فيليبوفنا الشهمة فعينت لي مكاناً. غير أن التقائي بمستر آستلي قد أخرجني من الحرج فإذا أنا بحكم الظروف واحد من الحفل.

في بروسيا إنما كنت قد التقيت أول مرة بهذا الرجل الغريب الأطوار. كنا جالسين متقابلين في حجرة واحدة من حجرات القطار. كنت يومئذ مسافراً للحاق بأصحابنا. ثم التقيت به مرة أخرى على الحدود الفرنسية، والتقيت به أخيراً في سويسرا. معنى ذلك أنني اجتمعت به مرتين في مدى خمسة عشر يوماً. وهاأنذا ألقاه اليوم في رولتنبرج! ما رأيت في حياتي رجلاً في مثل خجله. إنه خجول إلى درجة عجيبة. وهو يعلم ذلك حق العلم لأنه ليس بالغبي قط. على أنه ذو طبع مسالم لطيف. لقد حملته على الكلام أثناء لقائنا الأول. فذكر لي أنه زار في ذلك

الصيف رأس الشمال، وأنه يرغب كثيراً في أن يرى معرض نيجني نوفجورود[٣]. ولا أدري كيف أصبح على صلة بالجنرال. يخيل إليّ أنه موله بحب باولين. فلقد احمرّ وجهه احمراراً شديداً حين دخلت. وقد سرّه كثيراً أن يكون إلى جانبي على المائدة. وأظن أنه يعدّني منذ الآن صديقاً حميماً.

وكان الفرنسي الصغير مسرفاً في تصنّع الأوضاع الممجوجة. كان يعامل جميع الناس في احتقار ودون كلفة. إنني أتذكر أنه كان في موسكو يحب أن يذرَّ الرماد في العيون. وقد أطنب في الكلام على الأحوال المالية والسياسية الروسية. فسمح الجنرال لنفسه أن يعارضه مرة أو مرتين، ولكن على تخفٍ وتلطف، أي بالقدر الذي لا يفقده مهابته تماماً.

كنت في حالة نفسية غريبة. ومن نافل القول أن أذكر أنني ما بلغت من العشاء نصفه حتى كنت قد طرحت على نفسي ذلك السؤال المعتاد الأبدي: «ما الذي يجرني وراء هذا الجنرال؟ لقد كان ينبغي لي أن أتركهم منذ زمن طويل!». وكنت ألقي نظرة خاطفة على باولين ألكسندروفنا من حين إلى حين، فألاحظ أنها لا توليني أي انتباه. وصعدت أبخرة الخردل إلى أنفي آخر الأمر فقررت أن أقارف وقاحة من الوقاحات.

ومن أجل أن أبدأ ذلك، اقتحمت المناقشة على حين فجأة، دون أن أُدعى إلى المشاركة فيها، متكلماً بصوت مرتفع. كنت أحاول خاصة أن أشاجر الفرنسي الصغير. فالتفتت نحو الجنرال، أقول دون تمهيد ولا توطئة، بصوت عال واضح مفهوم (وأظن أنني قاطعته): لقد

[٣] إن معرض نيجني نوفجورود (على نهر الفولجا) كان أكبر معرض يقام في روسيا.

استحال تقريباً على الروس في هذا الصيف أن يتناولوا وجبات طعامهم على الموائد المعدة. فما أن سمع مني الجنرال هذا الكلام حتى رمقني بنظرة دهشة. وتابعت أقول:

– إن من يحترم نفسه لا بد أن يتعرّض للوقاحات وأن تناله الإهانات. ففي باريس، وعلى نهر الراين، وحتى في سويسرا، ترى الموائد المهيأة غاصة بالبولونيين وأشباههم، صغار الفرنسيين، بحيث لا تستطيع أن تنطق بكلمة واحدة متى كنت روسياً.

قلت ذلك بالفرنسية. فكان الأمير ينظر إليّ حائراً لا يدري أيجب عليه أن يغضب أم يكفيه أن يدهش لنسياني نفسي إلى هذه الدرجة من النسيان.

قال لي الفرنسي الصغير بلهجة الاحتقار والإهمال:

– يظهر أن أحداً قد لقّنك درساً.

– في باريس تشاجرت أولاً مع بولوني، ثم مع ضابط فرنسي انتصر للبولوني، ثم ناصرني جزء كبير من الفرنسيين حين رويت لهم أنني أوشكت أن أبصق في قهوة أحد كبار الكهنة «مونسينيور».

– تبصق؟

كذلك سأل الجنرال بدهشة متكبرة، حتى لقد جال بصره في أطراف الغرفة. وألقى عليّ الفرنسي نظرة متفحصة مرتابة.

قلت:

– تماماً. لقد ظللت ثماني وأربعين ساعة أظن أنه ربما كان عليّ أن أثب إلى روما من أجل قضيتنا، لذلك ذهبت إلى السفارة البابوية أطلب تأشيرة على جواز سفري. فاستقبلني هنالك قس قصير يشارف الخمسين من عمره، نحيل القامة، جليدي الوجه؛ فبعد أن أصغى إلى كلامي رجاني أن أنتظر، وذلك بلهجة مهذبة لكنها جافة جداً. وكنت مستعجلاً، لكنني جلست طبعاً، وأخرجت من جيبي جريدة «الأوبينيون ناسيونال»[٤]، وأخذت أقرأ فيها مقالاً هو هجوم عنيف لاذع على روسيا. وفي أثناء ذلك سمعت أحداً يمضي إلى «المونسينيور» في الغرفة المجاورة، ورأيت القس يُظهر له أنواع الاحترام. وجددت طلبي إلى القس، فرجاني مرة أخرى أن أنتظر، ولكن بمزيد من الخشونة في لهجته. وما هي إلا لحظة حتى دخل زائر تبيّن أنه نمساوي. فلما استمعوا إلى كلامه، صعدوا به فوراً إلى فوق. عندئذ شعرات بشيء من الغضب، فنهضت عن مكاني، واقتربت من القس وقلت له بلهجة قاطعة: ما دام «مونسينيور» يستقبل غيري، فإن في وسعه أن ينجز قضيتي. عندئذ التفت القس وقد بدت في وجهه دهشة خارقة. إنه لا يستطيع أن يفسر لنفسه كيف يجرؤ روسي أن يقارن نفسه بضيوف «مونسينيور». فإذا هو ينظر إليّ من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، ويصيح بأوقح لهجة ممكنة، كأنما يفتنه ويسحره أن يهينني: «ما ينبغي أن تظن مع ذلك أن «مونسينيور» يمكن أن يستغني من أجلك عن فنجان القهوة الذي يحتسيه!» فما كان مني إلا أن صحت أنا أيضاً بصوت أعلى من صوته قائلاً: «فاعلم إذن أنني أبصق في قهوة «مونسنيورك»، وأنني أستخف به! فإذا لم تنجز لي جواز سفري فوراً، فسأمضي إليه بنفسي لألقاه».

---

[٤] «الأوبنيون ناسيونال». كانت هذه الجريدة اللبرالية الفرنسية كثيراً ما تهاجم النظام الروسي بسبب بولنده.

– كيف؟ أفي اللحظة التي يستقبل فيها كردينالًا؟

كذلك صاح القس مذعوراً وهو يبتعد عني؛ وركض نحو الباب فمدّ ذراعيه كالمصلوب، ليفهمني أنه يؤثر أن يهلك على أن يدعني أدخل. عندئذ قلت له إنني زنديق وإنني متوحش، وإنني لا أحفل بهؤلاء الأساقفة والكرادلة والمونسينيوريين جميعاً، الخ الخ. أي أظهرت له أنني لن أخضع ولن أتنازل. فرشقني القس بنظرة بغض عميق، وانتزع من يدي جواز سفري، فمضى به إلى فوق. وما هي إلا دقيقة واحدة، حتى كنت قد حصلت على التأشيرة. وهي الآن معي، فهل تريد أن تراها؟

أخرجت جواز سفري، وأريته التأشيرة البابوية.

قال الجنرال يريد أن يبدأ الكلام:

– ومع ذلك...

فقاطعه الفرنسي الصغير قائلا وهو يضحك ضحكة صغيرة:

– إن ما أنقذلك هو تصريحك بأنك زنديق، وبأنك متوحش. كانت تلك وسيلة غير غبية°.

– أنا لا أستطيع على كل حال أن أفعل ما يفعله أصحابك الروس الذين يظلون مكتوفي الأيدي، لا يجرأون أن ينبسوا بكلمة، ويقدرون إذا لزم الأمر أن ينكروا وطنهم. وعلى كل حال فإن نزلاء فندق باريس قد أظهروا لي مزيداً من التقدير والاحترام حين قصصت عليهم مشاحنتي مع القس. أما ذلك الذي كان أكثر الناس فظاظة معي على المائدة المهيأة، وهو سيد

° «كانت تلك وسيلة غير غبية»، بالفرنسية في الأصل.

بولوني ضخم، فقد توارى. حتى إن الفرنسيين لم يحتجوا حين رويت لهم أنني قد رأيت منذ سنتين إنساناً أطلق عليه صياد فرنسي ناره سنة ١٨١٢، لا لشيء إلا ليفرغ شحنة بندقيته. وكان ذلك الإنسان طفلاً في العاشرة من عمره، لم يتسع وقت أسرته لأن تترك موسكو.

صاح الفرنسي الصغير يقول:

– مستحيل. ما من جندي فرنسي يمكن أن يطلق النار على طفل.

قلت:

– مع ذلك فقد وقع الأمر. إن نقيباً محترماً محالًا على المعاش هو الذي روى لي هذه القصة، وقد رأيت بأم عيني الندبة التي خلّفها الجرح في الخد.

وطفق الفرنسي يتكلم متدفقاً. وأراد الجنرال أن يدعمه ويؤيده، فنصحت له أن يقرأ، على سبيل المثال، «مذكرات» الجنرال بيروفسكي[٦] الذي سجنه الفرنسيون سنة ١٨١٢. وأخيراً أخذت ماري فيليبوفنا تتكلم في موضوع آخر لتغير مجرى الحديث. وكان الجنرال مستاء مني أشد الاستياء، لأننا كنا أنا والفرنسي قد أخذنا نتصايح فيما يشبه الشتائم. أما مستر آستلي فقد لاح لي أن تشاجرنا قد فاز برضاه، حتى إذا نهضنا عن المائدة دعاني إلى تناول قدح من الكحول معه.

[٦] «مذكرات الجنرال ف. آ. بيروفسكي»، نشرت سنة ١٨٦٥؛ لقد استطاع هذا الجنرال، وقد اعتقله الفرنسيون سنة ١٨١٢، أن يرى كيف أن الفرنسيين كانوا يطلقون الرصاص على كل سجين يبلغ من الضعف والوهن أنه لا يقدر على السير في الطابور.

واستطعت في المساء أن أتبادل الكلام خلال ربع ساعة مع باولين ألكسندروفنا كما كنت أرغب. وقد جرى الحديث بيني وبينها أثناء النزهة. كان جميع الحفل قد مضى إلى الكازينو عن طريق الحديقة. فجلست باولين على مقعد أمام نافورة الماء وأذنت لناديا أن تروح تلعب مع أطفال آخرين على مسافة ما. وأرسلت أنا ميشا إلى قرب حوضر الماء، فمكثنا أنا وباولين نتحدث وحيدين.

تكلمنا أول الأمر عن الأعمال بطبيعة الحال. فما كان أشد استياء باولين حين لم أنقدها إلا سبعمائة فلورين على التمام والكمال! فلقد كانت مقتنعة بأنني استطعت أن أقترض في باريس ما لا يقل عن ألفي فلورين لقاء رهن ماساتها. قالت باولين:

– أنا في حاجة إلى المال مهما كلف الأمر، فلا بد لي من الحصول عليه، وإلا فقد ضعت.

سألتها عما جرى أثناء غيابي. فقالت:

– لا شيء. لقد تلقينا نبأين من بطرسبرج، أولهما أن جدتي في حالة صحية سيئة، والثاني (وقد بلغنا بعد يومين) أنها لعلها توفيت.

وأضافت باولين إلى ذلك قولها:

– وهذا ما عرفناه من تيموتي بتروفتش، وهو إنسان دقيق فيما ينقل من أنباء، ونحن في انتظار أن يتأكد الخبر.

قلت:

– فالجميع إذن هنا ينتظرون؟

– نعم، الجميع ينتظرون. لقد قضينا حتى الآن ستة أشهر لا نأمل غير هذا.

– أنت أيضاً تأملين؟

– أنا لا أمتّ إلى المتوفاة بقربى؛ ما أنا إلا قريبة الجنرال. ولكنني على يقين من أنها لن تنساني في وصيتها.

قلت بلهجة التأكيد:

– أظن أنك ستتلقين مبلغاً ضخماً.

– أظن ذلك، فلقد كانت تحبني كثيراً. ولكن من أين تستمد أنت هذا الاعتقاد؟

أجبتها سائلاً:

– قولي لي: هل المركيز مطّلع أيضاً على جميع أسرار الأسرة؟

– أيعنيك أن تعرف هذا؟

كذلك سألتني باولين وهي تنظر إليّ في برود وقسوة.

– أظن ذلك. إذا لم يخطئ ظني فإن الجنرال قد استطاع أن يدبر أموره فيقترض منه بعض المال.

– تخميناتك صحيحة.

– أكان يقرضه لو كان يجهل قصة الجدة؟ ألم تلاحظي حين كنا على المائدة أنه قد دعاها بابولنكا[٧] ثلاث مرات إذ جاء على ذكرها؟ يا لها من مودة حميمة بغير كلفة!

– نعم، إنك على حق. ولسوف يخطبني متى علم أنني سأنال من الميراث نصيباً. هذا ما ترغب في معرفته، أليس كذلك؟

– أما يزال في مرحلة التفكير في خطبتك؟ كنت أحسب أنه يعد نفسه خطيباً منذ زمن طويل.

قالت باولين غاضبة:

– أنت تعلم أن الأمر ليس كذلك.

وأردفت تسأل بعد لحظة صمت:

– أين التقيت بهذا الإنجليزي؟

– كنت على يقين من أنك ستطرحين عليّ هذا السؤال.

وقصصت عليها لقاءاتي بمستر آستلي أثناء السفر. ثم أضفت:

– إنه خجول وعاطفي، ولا شك أنه قد وقع في هواك.

– نعم إنه يحبني.

[٧] «بابولنكا»، تصغير بابكا، أي الجدة، وتقال تودداً وتحبباً.

– وهو أغنى من الفرنسي عشر مرات. هل للفرنسي ثروة حقاً؟ أهذا أمر لا يتطرق إليه أي شك إطلاقاً؟

– إطلاقاً! إن له قصراً منيفاً. ولقد أكد لي الجنرال ذلك أمس. أيكفيك هذا؟

– لو كنت في مكانك لتزوجت الإنجليزي.

– لماذا؟

– الفرنسي فتى أجمل. ولكنه حقير مجرم. أما الإنجليزي فرجل شريف، وهو فوق ذلك أغنى من الفرنسي عشر مرات.

قلت لها ذلك بلهجة قاطعة.

أجابت بهدوء:

– هذا صحيح، ولكن الفرنسي مركيز، وهو أذكى فؤاداً وأخف ظلاً.

قلت بتلك اللهجة نفسها:

– أهذا مؤكد؟، مؤكد تماماً؟

كانت أسئلتي تسوء باولين كثيراً، ولاحظت أنها تريد أن تغيظني وأن تغضبني بلهجة جوابها وغرابته. فلم ألبث أن ذكرت لها ذلك، فأجابت بقولها:

– صحيح إنه ليسليني أن أثير غيظك. وعليك أن تكافئني لمجرد أنني أسمح لك بإلقاء هذه الأسئلة وتصور هذه الافتراضات.

قلت بهدوء:

– إنني اقرّ لنفسي بحق إلقاء جميع ما أريد إلقاءه من أسئلة، لأنني مستعد لدفع أي ثمن تريدينه لها، ولأنني لا أقيم لحياتي نفسها أي وزن.

فانفجرت باولين ضاحكة:

– لقد قلت لي ذات يوم، ونحن على جبل شلانجنبرج، إنك مستعد، بكلمة واحدة مني، أن تلقى بنفسك إلى تحت، منكّس الرأس، بينما نحن على علو ألف قدم. لسوف أقول هذه الكلمة يوماً، لا لشيء إلا لأرى أأنت تقدم على التنفيذ حقاً؛ وثق أنني سأظهر يومئذ ما أتصف به من صلابة وحزم. أنا إنما أكرهك لأنني سمحت لك بتلك الأشياء كلها، وأنا أكرهك مزيداً من الكره لأنني لا غنى لي عنك. إنني ما زلت في حاجة إليك. فلا بد إذن من أن أدّخرك.

قالت ذلك ثم نهضت. كانت تبدو خارجة عن طورها. لقد أصبحت في الآونة الأخيرة تختم أحاديثنا دائماً بمثل هذه اللهجة من الشراسة والحقد، وهو حقد لا تظاهر فيه ولا افتعال.

قلت لها، رغبةً مني في أن لا أدعها تمضي من غير تفسير:

– هل تسمحين لي أن أسألك من هس مدموازيل بلانش؟

– أنت تعرف ذلك حق المعرفة. لم يحدث أي شيء جديد. إن مدموازيل بلانش ستصبح زوجة الجنرال من غير شك؛ هذا إذا صح طبعاً أن الجدة قد توفيت، ذلك أن مدموازيل بلانش وأمها وابن عمها المركيز يعرفون جميعاً تمام العلم أننا لا نملك شيئاً البتة.

– وهل الجنرال هائم بها موله؟

– ليس هذا هو الموضوع الآن. اسمع ما سأقوله لك وافهمه تمام الفهم: خذ هذه السبعمائة فلورين، والعب بها على الروليت، واجن أكبر قدر ممكن من الربح. لا بد لي من مال الآن، مهما كلف الأمر.

قالت هذا الكلام، ثم نادت ناديا وذهبت إلى الكازينو تلحق بأصحابنا. وسرتُ أنا في أول ممر على اليسار. كنت أفكر وأفكر فما تنقضي دهشتي. إن هذا الأمر الذي أصدرته إليّ باللعب على الروليت قد صعقني. والغريب في الأمر أني رغم كثرة ما يشغل بالي، غرقت غرقا كاملا في تحليل عواطفي نحو باولين. صحيح أنني أثناء الخمسة عشر يوماً التي غبتها عنها كنت أشعر بخفة لا أشعر بمثلها اليوم بعد عودتي؛ ولكنني تألمت أثناء هذه الرحلة كمن فقد صوابه: كنت أركض من مكان إلى آخر كأن الشيطان يطاردني؛ وحتى في المنام كنت أراها دائماً أمامي. وفي ذات مرة (كان ذلك في سويسرا)[٨] خاطبتها بصوت عال، فأضحَكَ ذلك جميع من كانوا معي في القطار.

مرة أخرى طرحت اليوم على نفسي هذا السؤال: «أأنا أحبها؟». ومرة أخرى لم أستطع أن أجد لهذا السؤال جواباً؛ أو قل إنني أجبت، للمرة المائة، بأنني أكرهها، نعم أكرهها. مرت بي لحظات (وخاصة في ختام الأحاديث التي تقوم بيننا) تمنيت فيها أن أهب نصف عمري في سبيل أن أخنقها! أقسم أنه لو كان في وسعي أن أغمد خنجرًا مسنونًا في صدرها على مهل،

---

[٨] لقد تصور دوستويفسكي رواية «المقامر» في نهاية صيف ١٨٦٣، أثناء رحلة إلى الخارج قام بها مع آبوليناريا سوسلوفا التي تسمى أيضاً باولين.

لشعرت من ذلك بمتعة فيما أظن. ومع ذلك أقسم بأقدس ما أقدّس أنني لو طلبَتْ مني ونحن على جبل شلانجنبرج، أن ألقي بنفسي من أعلى قمة يرتادها الناس، لرميت نفسي فوراً، ولشعرت من ذلك بغبطة. لقد كنت أعرف ذلك. كان يجب أن ينحلّ هذا الأمر بطريقة من الطرق. وهي تفهم ذلك كله أروع فهم، فإذا تصورتْ أنني أدرك حق الإدراك أن لمسها مستحيل، وأنني أعي كل الوعي أن رغباتي كلها عبث لا رجاء فيه، شعرت من ذلك بلذة لا تفوقها لذة. إنني على ثقة من ذلك. وإلا فهل كان لها، هي التي تملك ما تملك من رصانة وذكاء، أن تعاملني بهذه الألفة كلها وبهذه الصراحة كلها؟ يُخيّل إليّ أنها حتى هذا اليوم تنظر إليّ نظرة تلك الإمبراطورة القديمة التي نضبت عنها ثيابها حتى أصبحت عارية كل العري أمام عبد من عبيدها، لأنها لا تعدّه رجلاً. نعم إنه يتفق لها في كثير من الأحيان أن لا تعدّني في الرجال.

ومع ذلك فقد عهدت إليّ اليوم بمهمة: أن أربح في الروليت مهما كلف الأمر. وليس يتسع الوقت لأن أتساءل لماذا يجب أن أربح، وخلال أية مدة من الزمن يجب أن أحقق هذا الربح، وما هي الحسابات الجديدة التي بزغت في هذا الرأس الذي لا يكف عن العمل لحظة واحدة! ثم إن من الواضح أن أحداثاً جديدة كثيرة قد وقعت خلال هذه الأيام الخمسة عشر: إنني ما زلت أجهل الأحداث. فيجب عليّ أن أجلو هذا كله، يجب عليّ أن أُخرج هذا كله إلى النور، بأقصى سرعة. ولكن مهمة أخرى تقع على عاتقي الآن: هي أن أذهب إلى الروليت.

الفصل الثاني

لقد ساءتني هذه المهمة والحق يقال: كنت قد قررت أن أقامر، ولكنني لم أتوقع أبداً أن أبدأ المقامرة لغيري. حتى لقد شعرت بشيء من الحيرة، ودخلت قاعات المقامرة متجهم المزاج. وكل ما رأيته فيها قد ساءني منذ أول نظرة. إنني لا أستطيع أن أحتمل تلك المقالات التي تُكتب في العالم بأسره، وخاصة في جرائدنا الروسية، والتي يعالج فيها أصحابها كل عام تقريباً، عند مطلع الربيع، موضوعين اثنين: أولهما البذخ والترف في قاعات المقامرة من مدن المياه على نهر الراين، والثاني أكوام الذهب التي يزعمون أنها تتكدس على الموائد. هذا رغم أن هؤلاء الكتّاب لا يؤجَرون على هذه المقالات، وإنما هم يتطوعون تطوعاً منزّهاً عن الغرض مبرّأ من المنفعة. إن هذه القاعات الرديئة خالية من كل بهاء أو سناء؛ والذهب فيها لا يتكوم على موائدها ويندر أن يُرى على هذه الموائد. لقد يفد طبعاً من حين إلى حين رجل شاذ الطبع متفرد المزاج، إنجليزي أو آسيوي (تركي كما حدث في هذا الصيف) فيربح أو يخسر مبالغ خرافية في مدة قصيرة. أما الآخرون فإنهم لا يجازفون إلا بدريهمات، ولست ترى على المائدة إلا قليلاً من المال بشكل عام.

حين دخلت قاعة القمار (لأول مرة في حياتي) بقيت بعض الوقت متردداً لا أعزم أمري. أضف إلى ذلك أن الجمهور كان يقف في طريقي. ولكن هبني كنت وحيداً، فأغلب ظني أنني كنت سأنصرف قبل أن أبدأ المقامرة. أعترف أن قلبي كان يخفق خفقاناً قوياً وأنني لم أملك رباطة الجأش وهدوء النفس. كنت مقتنعاً منذ زمن طويل أنني لن أبارح رولتنبرج كما جئتها، وكنت مزمعاً على أن لا أبارحها كما جئتها. فلا بد أن حدثاً أساسياً حاسماً سيتدخل

في مصيري لا محالة. يجب أن يقع هذا، ولسوف يقع. ومهما يكن هذا الأمل الذي عقدته على الروليت سخيفاً مضحكاً، فإنني أجد أن الرأي الذي يسلم به عامة الناس إذ يقولون إن من السخف أن يتوقع المرء من المقامرة أي شيء، أقرب إلى السخف وأبعث على الضحك. لماذا تكون المقامرة أسوأ من أية وسيلة أخرى من وسائل الحصول على المال؟ لماذا تكون المقامرة أسوأ من التجارة مثلاً؟ صحيح أن واحداً من مائة يربح. ولكن هل يهمني هذا؟

ومهما يكن من أمر، فلقد قررت أولاً أن لا أكون جاداً في ذلك المساء. فإذا حدث شيء فسيكون من قبيل المصادفة العابرة. ذلك ما كنت أنويه. أضف إلى هذا أنه كان عليّ أن أدرس المقامرة نفسها؛ ذلك أنني رغم كثرة ما قرأت من أمور لا حصر لها في وصف الروليت، وقد قرأتها في نهم شديد وشراهة قوية، لا أستطيع أن أفهم شيئاً من أصول ممارستها قبل أن أراها بعيني رأسي.

في الوهلة الأولى، لاح لي كل شيء قذراً، قذراً حقيراً بالمعنى الأخلاقي. لا أريد أن أتحدث عن تلك الوجوه الشرهة القلقة التي تحاصر موائد القمار بالعشرات بل المئات. إنني لا أرى أي ضير في رغبة المرء في أن يربح أكبر مقدار، بأقصى سرعة. لطالما استبلدت فكرة ذلك الواعظ البطر الذي كان في منجى من العوز والحاجة، فقال في الرد على ما ذكر له بعضهم من أنهم يقامرون على مبالغ زهيدة قال: «وهذا أنكى وأسوأ، لأنه صادر عن طمع صغير». لكأنه يظن الطمع الصغير والطمع الكبير شيئين مختلفين لا شيئاً واحداً. إن المسألة مسألة نِسَب. فما هو صغير في نظر روتشيلد هو الثراء الطائل نفسه في نظري أنا. والناس فيما يتصل بالأرباح والخسائر، لا في الروليت فحسب، بل في كل مجال آخر، إنما يحركهم دافع واحد:

هو أن يربحوا أو ينتزعوا شيئاً من شخص آخر. هل الربح والنفع عيبان في ذاتهما؟ تلك مسألة أخرى. وما هنا سأحلها. ولما كنت أنا ممن تستبد بهم الرغبة في الربح إلى أقصى حد، فإن هذا الطمع كله، بل إن رذيلة الطمع هذه، إذا شئتم هذا الاسم، كانت قريبة مني مألوفة عندي، إن صح التعبير، منذ دخولي إلى القاعة. لا شيء أمتع من أن لا يتحرج المرء أمام الآخرين، بل ينطلق في عمله صريحاً لا يصده عنه صاد. وفيم يخدع المرء نفسه؟ ذلك أسخف وأغبى ما يشغل به الإنسان باله. غير أن الشيء الذي كان يثير الاشمئزاز منذ النظرة الأولى في هذا الحشد كله إنما هو الجد الكبير والاهتمام العظيم بل والاحترام الهائل الذي كان هؤلاء الناس جميعاً يحيطون به موائد القمار. من أجل هذا إنما يجب أن نميز هنا تمييزاً واضحاً بين نوع من اللعب الرديء وبين اللعب الذي يباح لإنسان محترم. هناك نوعان من المقامرة: مقامرة المهذبين من الناس، ومقامرة الغوغاء. والحدود بين هذين النوعين واضحة فاصلة. وما أعيب هذا في حقيقة الأمر! الرجل المهذب، مثلاً، يمكن أن يجازف بخمس ليرات ذهبية أو عشر، وقلما يجازف بأكثر من ذلك، فإذا كان غنياً فقد يجازف بألف فرنك لكنه لا يفعل ذلك إلا لعباً، إلا على سبيل التسلية، من أجل أن يتابع مجرى الربح أو الخسارة. فإذا ربح كان يمكن مثلاً أن يروح يضحك ملء صوته، وأن يشارك واحداً ممن حوله ملاحظاته، بل وأن يقامر مرة أخرى مضاعفاً رهانه، ولكنه لا يفعل ذلك إلا من باب حب الاطلاع، بغية أن يلاحظ الحظوظ كيف تجري وتدور، بغية أن يجري حسابات، لا رغبة مبتذلة منه في الربح. أي أنه لا يرى في جميع موائد القمار هذه (سواء الروليت منها أو «الثلاثين والأربعين») إلا تسلية جُعلت للذة وحدها. حتى أنه ما ينبغي له أن تخطر بباله الإغراءات والمصائد التي يعتمد عليها «البنك»؛ بل إنه ليكون ظرفاً وأناقة منه أن يتخيل أن سائر اللاعبين، أن جميع

هؤلاء الصغار الذين يرتجفون من أجل فلورين واحد إنما هم أناس مهذبون أغنياء مثله، وأنهم لا يقامرون إلا على سبيل التسلية إزجاءً للوقت. إن هذا الجهل الكامل بالواقع، وهذه الآراء الساذجة في البشر تعد، ولا شك، من أرفع الأشياء أرستقراطية.

كنت أرى أمهات يدفعن بناتهن إلى أمام، صبايا ضعيفات بريئات في الخامسة عشرة من أعمارهن أو في السادسة عشرة، يعطينهن بضع نقود ذهبية ويعلمنهن سير اللعب. فإذا ربحت الصبية أو خسرت، انسحبت مفتتنة، تبتسم ابتسامة واحدة لا تختلف باختلاف الربح والخسارة. وقد دنا جنرالنا من المائدة بثقة قوية متينة، فهرع أحد الخدم يدفع له كرسياً، ولكنه لم ينتبه هو إلى ذلك؛ وأخرج محفظته ببطء، وببطء أخرج من المحفظة ثلاثمائة فرنك، نقداً ذهبياً وضعه على الأسود فربح؛ فلم يأخذ المال بل تركه في مكانه على المائدة، فربح الأسود مرة أخرى، وفي هذه المرة أيضاً لم يأخذ المال بل تركه حيث هو، فلما ربح الأحمر في المرة الثالثة خسر الجنرال ألفاً ومائتي فرنك، فانسحب مبتسماً، مسيطراً على نفسه كامل السيطرة. أنا واثق أن قلبه كان يضطرب، فلو كان ما راهن عليه ضعفي المبلغ أو ثلاثة أضعافه لما ملك أن يحافظ على رباطة جأشه، ولظهر اضطرابه. ومن جهة أخرى كان إلى جانبي فرنسي ربح ثم خسر حوالي ثلاثين ألف فرنك، وظل وجهه مع ذلك هادئ المظهر لم يُلمَح فيه أثر من آثار انفعال. فليس للأرستقراطي الحق أن ينفعل ولو خسر ثروته كلها. يجب أن يظل المال دون الأرستقراطي حتى لكأن الأرستقراطي لا يكاد يحفل به أو يقلق له. ومن الأرستقراطية طبعاً أن يظهر المرء جاهلاً بالوحل والمشهد اللذين يضطرب فيهما هذا الحشد كله من الناس. ومع ذلك فإن الموقف المناقض موقف مرموق في بعض الأحيان كالموقف الأول سواء بسواء: أن

تلاحظ هؤلاء الحشرات جميعاً، أي أن تنظر إليهم، بل أن تراقبهم وترصدهم أيضاً، ولو بالنظارة المقربة. ولكن شريطة أن لا ترى في هذا الجمهور كله وفي هذا الوحل كله إلا نوعاً من تسلية، إلا تمثيلاً أعد لدفع الملل عن «الجنتلمان». وقد تقحم نفسك في هذا الجمهور، شريطة أن تنظر حواليك مقتنعاً كل الاقتناع أنك لست فيه إلا مشاهداً، وأنك لست منه ولا هو منك. على أنه لا يليق أيضاً أن تلاحظ بكثير من الإلحاح واللجاجة: وإلا لم تكن جديراً بصفة الجنتلمان، لأن هذا المشهد لا يستحق على كل حال أن تشد إليه انتباهك متصلاً غير منقطع. وقل بين المشاهد على وجه العموم مشهد يستحق من الجنتلمان أن يشد إليه انتباهه متصلا غير منقطع. أما أنا فكنت أحس أن هذا كله يستحق انتباهاً مشدوداً متصلا، لا سيما ممن لم يجيء ليلاحظ فحسب، بل لينضم إلى هذه الجمهرة كلها أيضاً. ويجب أن يكون واضحاً في الأذهان أنه لا محل فيما أسوقه الآن من ملاحظات، مكان لآرائي الأخلاقية التي أضمرها في قرارة نفسي. ومهما يكن من أمر، فإنني أقول هذا الكلام تخفيفاً عن ضميري. ولكنني أحرص على أن أضيف ما يلي: لقد صرت في الآونة الأخيرة أشعر بنفرة قوية من إخضاع أفكاري وأفعالي لأي مقياس أخلاقي. فأنا الآن مسوق في اتجاه آخر.

إن هذه الجمهرة الوضيعة تقامر حقاً على نحو قذر. بل لست بعيداً عن التفكير في أن سرقات عادية تُقترف هنا كثيراً حول مائدة القمار. إن القيّمين «الكروبييه» الجالسين عند أطراف الموائد، يراقبون المبالغ التي يضعها المراهنون، ويجرون الحسابات، فيقومون بعمل مضنٍ مرهق. ويا لهم من لصوص، هم أيضاً! إن أكثرهم فرنسيون! على أنني إذا كنت أجري هذه الملاحظات، فلست أفعل ذلك من أجل أن أصف الروليت. فإنما أنا أتلاءم مع الجو، بغية أن

أعرف كيف أسلك في المستقبل. لقد لاحظت مثلاً أنك كثيراً ما ترى يداً تمتد على المائدة فجأة فتلمُّ ما تكون قد ربحته أنت. ويتبع ذلك أن تشب مشاجرة بطبيعة الحال، وأن يعلو صراخ. وإني لأتحداك أن تستطيع البرهان باستشهاد الشهود على أن الربح كان ربحك أنت حقاً.

كانت هذه المهزلة كلها ألغازاً عسيرة على الحل في نظري. ولكنني تعلمت، على نحو من الأنحاء، أن المرء يراهن على أرقام (أما مزدوج وإما مفرد)، ويراهن على ألوان. فقررت أن أجازف في ذلك المساء بمائة فلورين من أموال باولين ألكسندروفنا. غير أنه أزعجني أنني أُقبِل على اللعب لغيري لا لنفسي. كان ذلك إحساساً شاقاً إلى أبعد حدود المشقة، وتمنيت أن أتخلص منه بأقصى سرعة. كنت أشعر طوال الوقت أنني إذ أبدأ اللعب لحساب باولين إنما أخرّب حظي أنا. هل يستحيل حقاً أن يدنو المرء من مائدة القمار دون أن تسري إليه عدوى الإيمان بالخرافات فوراً؟

ومن أجل أن أبدأ أخرجت خمسة فردريكات[٩]، أي خمسين فلورينا، فوضعتها على رقم مزدوج. ودارت الدائرة، فربح الرقم ١٣؛ لقد خسرت إذن. فتألمت ألماً شديدا؛ ورغبة مني في الخلاص من هذه الورطة وفي الانصراف، وضعت خمسة فردريكات أخرى على اللون الأحمر. فربح الأحمر. فوضعت الفردريكات العشرة... فربح الأحمر أيضاً. فتركت المبلغ كله، فربح الأحمر مرة ثالثة. فتناولت أربعين فردريكاً، فوضعت منها عشريناً على الأرقام الاثني عشر من الوسط، دون أن أعرف ما قد تعطيه هذه الأرقام عند الربح. فدُفع لي المبلغ ثلاثة أضعاف. فجأة استحالت فردريكاتي العشرة إلى ثمانين. لكنني شعرت عندئذ بإحساس

---

[٩] «خمسة فريدريكات»: قطع نقدية ذهبية ألمانية من ذلك العصر تساوي كل منها ١٠ – ١١ تالير (فلورين).

غريب بلغت من العجز عن احتماله أنني قررت أن أخرج من المكان. خُيّل إليّ أنني لو كنت ألعب لنفسي لما لعبت على هذا النحو. ومع ذلك وضعت الثمانين فردريكاً على رقم مزدوج. فربح الرقم «أربعة»: فنُقدت ثمانين فردريكاً أيضاً. فوضعت المائة والستين فردريكاً في جيبي ومضيت باحثاً عن باولين ألكسندروفنا.

كانوا يتنزهون جميعاً في الحديقة، فلم أرها إلا على العشاء. لم يكن الفرنسي هناك في هذه المرة، فاستطاع الجنرال أن يتمتع بكامل حريته. ورأى أن من الواجب أن ينبهني مرة أخرى إلى أنه لا يجب أن يراني على مائدة القمار، فهو يرى أنني إذا خسرت كثيراً أساء ذلك إلى سمعته إساءة كبيرة. ثم أضاف يقول بلهجة فخمة:

– وإذا ربحت كثيراً، فإن هذا أيضاً يسيء إلى سمعتي. طبعاً ليس من حقي أن أتحكم في أفعالك، ولكن يجب أن تقتنع أنت نفسك بأن...

ولم يكمل جملته بل تركها معلقة على عادته.

فأجبته بلهجة جافة بأن ما أملكه من مال قليلٌ جداً، وأنني إذن لن أخسر خسارة ظاهرة جداً، ولو لعبت. وحين صعدت إلى غرفتي أُتيح لي أن أمد إلى باولين المبلغ الذي ربحته، وقلت إنني لن ألعب من أجلها بعد اليوم قط.

فسألتني بلهجة قلقة:

– لماذا؟

فأجبت وأنا أنظر إليها دهشاً:

– لأنني أريد أن ألعاب لنفسي، لأن هذا يزعجني.

– إذن فما زلت تعتقد أن الروليت مخرجك الوحيد، وسبيلك الوحيد إلى الخلاص؟

ألقت عليّ هذا السؤال ساخرة.

فأجبتها جاداً كل الجد بأن هذا صحيح. أما عن يقيني بأنني سأربح لا محالة، فإنني أسلّم بأن ذلك يبدو مضحكاً، ولكن «دعوني وشأني».

ألحّت باولين ألكسندروفنا على ضرورة أن أقاسمها ربح ذلك اليوم، ومدت إليّ ثمانين فردريكاً، عارضة عليّ أن أستمر في المقامرة على هذا الشرط. فرفضت رفضاً قاطعاً، وأكدت لها أنني إذا كنت لا أستطيع أن أقامر للآخرين، فما ذلك لأنني لا أريد ذلك، بل لأنني واثق من الخسارة.

قالت إلى شاردة اللب:

– ومع ذلك، فأنا أيضاً لم يكد يبقى لي من أمل في غير الروليت. لهذا يجب عليك قطعاً أن تستمر في اللعب على أساس المناصفة. وستفعل ذلك. فهمت؟

قالت هذا وتركتني دون أن تستمع إلى احتجاجاتي.

الفصل الثالث

مع ذلك لم تحدثني أمس مرة واحدة عن اللعب. وتحاشت على وجه العموم أن تتجه إليّ بكلام. إنها لم تغير أساليبها في معاملتي. فإذا لقيتها قابلتني بذلك الهدوء المطلق نفسه، وبنوع من شعور مبغض محتقر. ومهما يكن من أمر فإنها لا تحاول حتى إخفاء نفورها مني. إنني أرى ذلك واضحاً كل الوضوح. على أنها، رغم هذا، لا تخفي عني أيضاً أنها في حاجة إلي، وأنها تحتفظ بي لغرض أجهله. لقد نشأت بيننا صلات غريبة يصعب عليّ فهم أكثرها، هذا إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى ما تقابل به سائر الناس من زهو وصلف واحتقار. إنها تعرف مثلاً أنني أحبها حب جنون. بل إنها لتسمح لي أن أحدثها عن هيامي بها. وهل ثمة وسيلة أفضل من هذه الوسيلة لإظهار ازدرائها بي؟ إن خير ما يمكن أن تفعله إظهاراً لهذا الازدراء هو أن تتيح لي أن أحدثها عن حبي حديثاً حُرّاً طليقاً لا تحول دونه حواجز أو حُجُب. فكأنها تقول: «إنني من قلة الاحتفال بعواطفك بحيث لا أكترث أي اكتراث بكل ما قد تقوله، بكل ما قد تعبر لي عنه من عواطف». ولقد كانت تحدثني في الماضي عن شؤونها، ولكنها لم تكن في يوم من الأيام مخلصة صادقة. أكثر من ذلك، أنها في استهانتها بي كانت تعمد إلى «براعات» من هذا القبيل: هب أنها كانت تعلم أنني مطّلع على ظرف من ظروف حياتها، أو على احتمال من الاحتمالات يوقظ بعض المخاوف في نفسها: لقد كانت تقص عليّ من تلقاء نفسها بعض هذه الأحداث، إذا هي كانت في حاجة، من أجل بلوغ أهدافها، إلى استخدامي عبداً أو ساعياً. ولكنها لم تكن تكشف لي إلا عما لا بد من معرفته لإنسان يوفد في مهمة. حتى إذا ظل ترابط الوقائع مجهولاً لدي، ولاحظتُ أن عذابها يعذبني ويقلقني لم تتنازل أن تطمئنني طمأنة كاملة

بصراحة كالصراحة التي تكون بين أصدقاء، مع أنني أرى أنها ما دامت تعهد إليّ في كثير من الأحيان بمهمات دقيقة بل ومحفوفة بالمخاطر فقد كان عليها أن تصارحني. ولكن أتراها كانت تحفل بعواطفي، وتكترث بمشاركتي إياها مخاوفها، وتهتم بضروب القلق التي كانت تثيرها في نفسي همومها مضاعفة ثلاث مرات في أغلب الظن!

كنت منذ ثلاثة أسابيع أعرف أنها عقدت نيتها على أن تلعب الروليت. حتى لقد طلبت إليّ أن أتولى اللعب نيابة عنها، إذ لا يليق أن تلعب بنفسها. وقد لاحظتُ من لهجة كلامها أن هناك أمراً هاماً يشغل بالها، ليس مجرد الرغبة في المقامرة. والمال في ذاته لا يعنيها. لا شك أن هناك هدفاً وظروفاً أستطيع أن أخمّنها ولكنني ما زلت أجهلها. واضح أن وضع الاستعباد والإذلال الذي تضعني فيه سوف يتيح لي (وهو كثيراً ما يتيح لي ذلك) أن أسألها بلا لف ولا دوران ولا كلفة. فما دمت عبدا لها، وما دمت غير موجود في نظرها، فلا يمكن أن تشعر بإهانة تلحقها إذا أنا لم ألتزم معها حدود الأدب، وإذا أنا أظهرت شيئاً من حب الاستطلاع. ولكنها في الواقع، رغم أنها تسمح لي أن أطرح عليها بعض الأسئلة، لا تجيب عن هذه الأسئلة، بل إنها في بعض الأحيان لا توليها أي انتباه! تلكم كانت العلاقات بيننا!.

ولقد تحدثوا أمس كثيراً عن برقية أرسلت إلى بطرسبرج منذ أربعة أيام ولم يصل جوابها إلى الآن. كان واضحاً أن الجنرال مضطرب مشغول البال. لا شك أن الموضوع يتعلق بالجدة. والفرنسي مضطرب أيضاً. من ذلك أنهما ظلا يتحدثان، أمس، بعد العشاء، زمناً طويلاً، حديثاً تبدو فيه علائم الجد. إن الفرنسي يصطنع في معاملتنا أوضاعاً متعالية متغطرسة لا يصدقها العقل؛ يصدق عليه المثل القائل: «تدعوه إلى مائدتك فما يلبث أن يضع فوقها

قدميه». وحتى مع باولين يصل عدم تحرجه إلى درجة الغلظة والفظاظة. يجب أن أضيف إلى هذا أنه كان يشترك في النزهات العائلية بحديقة الكازينو، أو في النزهات التي كانت الأسرة تقوم بها ركوباً على الخيل في الضواحي. لقد اطلعت منذ زمن طويل على بعض الظروف التي جعلت الفرنسي على علاقة بالجنرال: لقد كان في نيتهما أن ينشئا مصنعاً في روسيا معاً. ولست أدري الآن هل هجر هذا المشروع أم هما ما يزالان يتكلمان فيه. أضف إلى ذلك أنني وقعت عرضاً على جزء من سرهما العائلي: إن الفرنسي قد أخرج الجنرال من مأزق في العام الماضي، إذ أقرضه ثلاثمائة روبل إكمالاً للمبلغ الذي كان الجنرال يَدين به للتاج حين استقال من مناصبه. والجنرال هو الآن في قبضة الفرنسي. ولكن مدموازيل بلانش هي التي تمسك بالدور الأساسي في هذه الكوميديا كلها، وأنا على يقين من أنني لا أخطئ التقدير حين أقول هذا الكلام.

فمَن هي مدموازيل بلانش؟ يقال هنا عندنا إنها فرنسية من طراز رفيع، تسافر مع أمها، وتملك ثروة طائلة. ويقال أيضاً إنها تمت بقرابة بعيدة للمركيز من جهة العمومة. ويروى أن علاقات مدموازيل بلانش بالمركيز كانت قبل رحلتي إلى باريس تتصف بمزيد من الكلفة والتأنق. أما الآن فإن صداقتهما وقرابتهما تظهران أبعد عن التكلف وأقرب إلى الصلة الحميمة. ولعل أوضاعنا تظهر لهما الآن على حالة من السوء تجعلهما يريان أنه من غير المفيد بعد اليوم أن يعمدا إلى التظاهر والمراعاة والمداراة. وقد لاحظت أمس كيف كان مستر آستلي يتفرّس في مدموازيل بلانش وأمها. بدا لي أنه كان يعرفهما. حتى لقد اعتقدت أن صاحبنا الفرنسي قد سبق أن التقى هو أيضاً بمستر آستلي. ومهما يكن من أمر فإن مستر آستلي يبلغ

من الخجل والحياء والخفر والصمت أنه لا يمكن أن يُعقد عليه أي أمل: فسيظل الغسيل الوسخ يغسل داخل الأسرة. والفرنسي لا يكاد يحييه على كل حال، ولا يكاد يوليه أي انتباه. معنى ذلك أنه لا يخشاه. وهذا أمر أفهمه. ولكن لماذا تتجاهله مدموازيل بلانش أيضاً؟ لا سيما وأن المركيز قد زل لسانه أمس فجأة أثناء الحديث (لا أتذكر الآن في أية مناسبة) فقال إن مستر آستلي ثري ثراء فاحشاً فهو يعرف ذلك. وفي تلك اللحظة إنما كان على مدموازيل بلانش أن تنظر إلى مستر آستلي! المهم أن الجنرال قلق. ولا شك أنك تقدر مدى ما يمكن أن يكون لبرقية قد تصل من موسكو معلنة موت عمته من خطورة الشأن عنده!

ورغم اقتناعي بأن باولين كانت تتحاشى عن قصد أن يقوم بيني وبينها حديث، فقد اصطنعت هيئة البرود وقلة الاكتراث: كنت أقدّر أنها ستقرر فجأة أن تجيء إلي. وعلى خلاف ذلك وجهت انتباهي كله، أمس واليوم، إلى مدموازيل بلانش. مسكين هذا الجنرال... إنه ضائع لا محالة. فلأن يهيم هذا الهيام كله، وهو في الخامسة والخمسين من عمره، فتلك مصيبة ولا شك. أضف إلى ذلك ترمله، وأولاده، والدمار الذي هو فيه، والديون... وأخيراً هذه المرأة التي فتنت عقله وسحرت لبه. إن مدموازيل بلانش جميلة ولكنني لا أدري هل يفهمني القارئ إذا قلت أن وجهها هو من تلك الوجوه التي توقظ الرعب في النفس. أنا على الأقل، كنت أخاف دائماً هذا النوع من النساء. إنها في نحو الخامسة والعشرين من عمرها، فارعة الطول، جميلة الكتفين، مكتنزة العنق والثديين، لها بشرة بلون البرونز، ولها شعر أسود كأنه الأبانوس سواداً، إلى غزارة تكفي رأسين لا رأساً واحداً. أما العينان فسوداوان، إلى ازرقاق في بياضهما، وجرأة في نظرتهما. والأسنان ساطعة، والشفتان مصطبغتان دائماً. والجسم كله

يعبق بشذى كأنه المسك. وهي تحسن اختيار ملابسها، ثرية باذخة ولكن على ذوق مرهف أنيق. قدماها ويداها رائعة. صوتها أبح. قد تضحك في بعض الأحيان قهقهة فتظهر أسنانها كلها، ولكنها في أكثر الأحيان تظل صامتة صمتاً فيه شيء من وقاحة، على الأقل في حضور باولين وماري فيليبوفنا (تروّج الآن إشاعة غريبة هي أن ماري فيليبوفنا عائدة إلى روسيا). ويُخيل إليّ أن مدموازيل بلانش ليست على شيء من ثقافة، حتى قد تكون غبية، ولكنها في مقابل ذلك شديدة الحذر ماكرة. وأعتقد أن حياتها لم تخلُ من مغامرات. ومن الجائز جداً أن لا يكون بينها وبين المركيز أية قرابة، ومن الجائز جداً أن لا تكون أمها هي أمها حقاً. ولكن يبدو أنها وأمها كانتا، في برلين، حيث التقينا بهما، على علاقات طيبة. أما المركيز، فإنني ما زلت أشك حتى الآن في أنه مركيز، أما أنه ينتمي إلى المجتمع الراقي، سواء عندنا في موسكو أو في فرنسا. يقال إنه يملك هنالك قصراً. وقد أيقنت أن مياهاً كثيرة كان لابد أن تجري تحت الجسور أثناء غيابي خلال خمسة عشر يوماً، ولكنني ما زلت لا أعرف على وجه الدقة هل تكاشف الجنرال ومدموازيل بلانش بكلام حاسم. ومهما يكن من أمر فإن كل شيء مرهون الآن بأحوالنا، أي بمقدار المال الذي يمكن أن يلألئه الجنرال أمامهم. فإذا عُرف مثلاً أن الجدة ما تزال على قيد الحياة، فيقيني أن مدموازيل بلانش ستختفي فوراً. إني لأدرك بنفسي أن من الغريب والمضحك أن يصبح المرء نماماً ومشاءً إلى هذا الحد. وأن ذلك كله ليثير في نفسي الاشمئزاز جداً. وما أشد ما ستكون فرحتي حين أترك هؤلاء الناس جميعاً، وهذه الأمور كلها! ولكن هل أستطيع أن أبتعد عن باولين، هل أستطيع أن لا أحوم حولها مستطلعًا متجسسًا؟ صحيح أن التجسس أمر حقير... ولكنني لا أعبأ بهذا...

أمي واليوم، ظهر لي مستر آستلي غريب الأطوار هو أيضًا. نعم إنني مقتنع بأنه يحب باولين. إنه لطريف ومضحك كل ما قد تعبّر عنه في بعض الأحيان نظرة رجل عاشق، يتصف بالخجل الشديد، وبالخفر إلى درجة المرض، بينا هو يؤثر أن يغيب في غياهب الأرض على أن يفضح نفسه بكلمة أو بنظرة. إننا كثيراً ما نلتقي بمستر آستلي أثناء النزهة: يخرج من مخبئه ويمضي في طريقه وهو يحترق رغبة في الانضمام إلينا بغير شك. فإذا رجوناه أن ينضم إلينا أذعن على الفور. وفي الأماكن التي نستريح فيها، سواء بالكازينو أو عند الفرقة الموسيقية أو أمام نافورة المياه، فإنه يقف دائماً على مقربة من مقعدنا. وحيثما نكن، سواء في الحديقة أو في الغابة أو في جبل شلانجنبرج، يكفي أن ندير البصر من حولنا حتى نرى مستر آستلي في أقرب ممر أو وراء دغل. يُخيّل إليّ أنه يبحث عن فرصة للتحدث معي خاصة. وقد التقينا في هذا الصباح فتبادلنا بضع كلمات. إنه في بعض الأحيان يتكلم بجمل متقطعة. صاح يقول لي، حتى قبل أن يحييني تحية الصباح:

– آ... الآنسة بلانش... لقد رأيت نساءً كثيرات مثل الآنسة بلانش!

قال ذلك وصمت ينظر إليّ نظرة بليغة. لا أدري ما الذي أراد أن يقوله بهذا الكلام. ذلك أنه حين سألته: «ماذا تريد أن تقول»، هز رأسه وهو يبتسم ابتسامة ماكرة، وأردف:

– هكذا... هل تحب الآنسة باولين الأزهار كثيراً؟

قلت:

– لا أعرف.

فصاح مشدوهاً:

– كيف؟ حتى هذا لا تعرفه؟

– لا، لا أعرفه. لم أفطن إلى ذلك ولم أنتبه إليه.

ذلك ما ردّدته وأنا أضحك.

– هِمْ... هذا يعطيني فكرة.

قال ذلك ثم حياني بحركة من رأسه وتابع طريقه. وكان وجهه ينمّ عن سرور على كل حال. وقد تحدثنا كلانا بلغة فرنسية فظيعة.

الفصل الرابع

كان النهار مضحكاً فاضحاً سخيفاً. هي الآن الساعة الحادية عشرة من المساء. وهاأنذا في غرفتي الصغيرة أحاول أن أرتب ذكرياتي. لقد ابتدأت الأمور في الصباح على النحو التالي: كان عليّ أن أذهب إلى الروليت أقامر من أجل باولين ألكسندروفنا. أخذت فردريكاتها الستمائة، ولكن على شرطين: أولهما أنني لا أقبل أن ألعب على أساس المناصفة، أي أنني إذا ربحت فلن آخذ لنفسي شيئاً؛ والثاني أن تشرح لي باولين في المساء لماذا هي في مثل هذه الحاجة الماسة إلى الربح، وما هو المبلغ الذي تود أن تربحه. كنت لا أستطيع أن أفترض أنها تريد ذلك للمال وحده. لقد كان واضحاً أنها في حاجة كبيرة للمال، لا أدري لأي غرض. فوعدتني باولين أن تشرح لي ذلك. ومضيت.

الناس محتشدون في قاعات القمار يسحق بعضهم بعضاً. ألا ما أشد وقاحتهم جميعاً، وما أشد شراهتهم! شققت طريقي بين الجمهور ووقفت قرب القيّم. ثم بدأت اللعب وجلاً، لا أجازف إلا بليرتين أو ثلاث دفعة واحدة. وكنت أثناء ذلك أراقب وألاحظ. يُخيل إليّ أن جميع هذه الحسابات ليس لها كبير قيمة، وليس لها من خطورة الشأن ما يزعمه كثير من اللاعبين. إن هؤلاء يجلسون هنالك وبين أيديهم أوراق مملوءة أرقاماً: فهم يسجلون الضربات، ويعدُّون، ويقدّرون الاحتمالات، ويجرون عملية حسابية أخيرة، ثم يراهنون بعد ذلك كله... فإذا هم يخسرون، كما يخسر الناس البسطاء الذين يلعبون دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الحساب. وفي مقابل ذلك استخرجت نتيجة تبدو صادقة: فالواقع أن تعاقب الحظوظ عرضاً يخضع لنوع من الترتيب، إن لم يكن لنوع من النظام. ذلكم شيء غريب جداً بطبيعة

الحال. إنه يتفق مثلاً أن يعقب ظهور الأرقام الاثني عشر الوسطى، ظهور الأرقام الاثني عشر الأخيرة. يحدث هذا مرتين مثلاً. فالضربة تقع على الأرقام الاثني عشر الأخيرة، ثم تنتقل إلى الأرقام الاثني عشر الأولى؛ حتى إذا وقعت على الأرقام الاثني عشر الأولى عادت إلى الأرقام الاثني عشر الوسطى. وثلاث مرات أو أربعاً متتالية تخرج الأرقام الوسطى، ثم تخرج الأرقام الاثنا عشر الأخيرة من جديد؛ وبعد دورتين نعود إلى الأولى، التي لا تخرج إلا مرة واحدة ثم تخرج الأرقام الوسطى ثلاث مرات متتاليات، ويستمر ذلك ساعة ونصف ساعة أو يستمر ساعتين. واحد، ثلاثة، اثنان. واحد، ثلاثة، اثنان. شيء عجيب جداً. وفي أحد الأصباح أو في أحد الأصائل ترى الأسود والأحمر يتناوبان، على غير نظام تقريباً، وفي كل لحظة، ولا يخرج كل لون إلا مرتين متتاليتين أو ثلاثاً حتى إذا جاء الغد أو كان المساء رأيت الأحمر وحده مثلاً يخرج، حتى لقد يظل يخرج اثنتين وعشرين مرة متتالية. ويستمر الحال على هذا المنوال زمناً، وقد يستمر نهاراً بأسره. إنني مدين بجزء كبير من هذه الملاحظات لمستر آستلي الذي يقضي النهار كله قرب موائد اللعب، لكنه لا يقامر أبداً.

ولنعد إلى ما حدث لي. لقد خسرت كل شيء حتى آخر قرش، وذلك خلال برهة وجيزة. وضعت في أول الأمر عشرين فردريكاً على رقم شفع، فربحت، ووضعتها مرة أخرى فربحت، وهكذا مرتين أو ثلاثاً. أعتقد أن المبلغ الذي تجمع بين يدي بعدئذ قد صار أربعمائة فريدريك في مدى خمس دقائق. وقد كان عليّ في تلك اللحظة أن أنصرف، ولكن إحساساً غريباً قام في نفسي هو رغبة في استفزاز القدر، في نقر القدر على خده، في إخراج لساني له. فجازفت بأكبر مبلغ تجوز المقامرة به: أربعة آلاف فلورين، فخسرت. فازدادت حرارة رأسي

فأخرجت كل ما كان قد بقي لي، فوضعته حيث وضعت المبلغ الأول في المرة السابقة فخسرت أيضاً. عندئذ تركت المائدة طائش اللب مصعوقاً. كنت عاجزاً حتى عن استيعاب ما جرى لي؛ ولم أبلغ باولين ألكسندروفنا عثاري إلا قبيل العشاء. أما ما قبل ذلك فقد ظلت أضرب في الحديقة ذاهباً آياً.

وأثناء العشاء كنت مضطرباً كاضطرابي قبل ذلك بثلاثة أيام. وكان الفرنسي والآنسة بلانش ما يزالان يتناولان طعام العشاء معنا. وقد اتفق أن الآنسة بلانش كانت في الصباح بالكازينو فشهدت ما وقع لي. فرأيتها في هذه المرة تخاطبني بمزيد من الاعتبار. أما الفرنسي فقد مضى بخطوات أسرع وأصرح فسألني من غير لف ولا دوران هل المال الذي خسرته كان مالي أنا. أعتقد أنه يقدر أن المال مال باولين. «إن في الرز بصلًا». فما لبثت أن ارتجلت الجواب فقلت إن المال الذي خسرته مالي.

كان الجنرال دهشاً إلى أقصى حدود الدهشة: من أين جئت بهذا المبلغ كله؟ فشرحت له أنني قد بدأت المقامرة بعشرة فردريكات، فلما ضاعفت المبلغ بعد ذلك ست مرات متتالية أو سبعاً أصبح ما معي يبلغ خمسة آلاف فلورين أو ستة، خسرتها بعدئذ في ضربتين اثنتين.

هذا الكلام كله يحتمل التصديق طبعاً. ولقد كنت أنظر إلى باولين أثناء ارتجالي تلك الشروح، فلم أستطع أن أكشف في وجهها عن أي تعبير. لكنها تركتني أتم كلامي دون أن تستوقفني. فاستنتجت من ذلك أنه كان عليّ أن أكذب وأن أخفي أنني قامرت بمالها. ومهما يكن من أمر فقد قلت لنفسي: إن عليها أن تشرح لي الليلة ما وعدتني بشرحه في هذا الصباح.

وكنت أحسب أن الجنرال سيبدي لي ملاحظة ما، ولكنه لزم الصمت. وفي مقابل ذلك، رأيت في وجهه أنه كان مضطرباً قلقاً. لعله، وهو يعاني ما يعانيه من مصاعب، لم يزد على أن آلمه أن يسمع واحداً من الناس يذكر أن كومة كهذه الكومة الكبيرة من الذهب قد صارت في مدى ربع ساعة بين يدي غبي يبلغ هذا المبلغ كله من الطيش.

وأغلب الظن أنه قد نشبت بينه وبين الفرنسي في مساء أمس مناقشة حادة. لقد تحدثا حديثاً حاراً عنيفاً خلال مدة طويلة، بعد أن أحكما إقفال باب الغرفة عليهما بالمفتاح. وخرج الفرنسي من الاجتماع حانقا غاضبا. وعاد في هذا الصباح يلقى الجنرال مبكراً... لاستئناف حديث الليلة البارحة ما في ذلك شك.

حين علم الفرنسي بخسارتي نبهني بلهجة ساخرة، وشيء من الخبث والمكر، إلى أن على المرء أن يكون أقرب إلى التعقل والتبصر. ولا أدري لماذا أضاف إلى ذلك قوله إن الروس عاجزون في رأيه عن المقامرة رغم أنهم كثيراً ما يقامرون.

فقلت:

– في رأيي أن الروليت لم تُخترع إلا للروس.

فلما رأيت الفرنسي يُسمعني ضحكة صغيرة تحمل معنى الاحتقار، لفتّ نظره إلى أنني على حق، ذلك أن وصف الروس بأنهم مقامرون يشتمل على تقريع أكثر كثيراً مما يشتمل على إطراء. فعليه إذن أن يوافق على ما قلت. فسألني الفرنسي:

– على أي أساس تبني رأيك؟

– على أساس أن مَلَكة جمع رؤوس الأموال قد دخلت، خلال التاريخ، في سجل فضائل الإنسان الغربي المتمدن ومزاياه؛ بل لعلها أصبحت البند الرئيسي في هذا السجل. أما الروسي فليس عاجزاً عن جمع رؤوس الأموال فحسب، بل أيضاً يبعثر هذه الأموال هنا وهناك دون أي إحساس بما يحسن وما لا يحسن. ونحن الروس في حاجة أيضاً إلى مال على كل حال. لذلك ترانا شرهين إلى وسائل، كالروليت وما إليها، نستطيع بها أن نحصّل ثروة طائلة على حين بغتة خلال ساعتين من غير أن نعمل. إن هذا يغرينا ويفتن لبنا. ولما كنا نقامر بلا تعقل ونخبط خبط عشواء دون أن يسوءنا ذلك، فإننا نخسر.

قال الفرنسي موافقاً على خيلاء:

– هذا صحيح بعض الصحة.

فقال الجنرال بلهجة قاسية متفخمة:

– بل هو خطأ. وعار عليك أن تقول مثل هذا الكلام في حق بلدك.

فأجبته قائلاً:

– عفوك... إننا لا نستطيع أن نقول أيضاً أي الأمرين أسوأ: أَطَيْش الروس أم أسلوب الألمان في جمع المال بالعمل الشاق الشريف!

صاح الجنرال متعجباً:

– يا لها من فكرة قليلة الحياء!

وصاح الفرنسي:

– فكرة روسية حقا!

وكنت أضحك. كنت أحترق شوقاً إلى وخزهما واستفزازهما، فقلت:

– إني لأوثر طوال حياتي أن أعيش حياة بداوة مترحلة في خيمة من خيام الكرخيز على أن أعبد معبود الألمان.

فقال الجنرال وقد بلغ غضبه مبلغ الجد:

– أي معبود؟

– أسلوب الألمان في تكديس الثروات. إنني هنا منذ وقت قصير، ومع ذلك فإن الأمور التي أتاح لي هذا الوقت القصير أن ألاحظها وأن أتحقق منها تثير طبيعتي التترية وتبعثها على التمرد. يميناً أنني لا أريد لنفسي تلك الفضائل. لقد قطعت أمس حوالي عشرة فراسخ في الضواحي. إن ما رأيته هو عين ما نقرؤه في تلك الكتب الألمانية الصغيرة التي تدعو إلى مكارم الأخلاق وتزدان بالصور: لكل بيت ههنا «فاتر»[١٠] رهيب التمسك بالفضائل، خارق التشبث بمزايا الإخلاص والشرف: هو من ذلك كله بحيث يخاف المرء أن يدنو منه. إنني لا أطيق أولئك الشرفاء الذين يخشى المرء أن يقترب منهم. ولكل «فاتر» أسرة يجتمع أفرادها كل مساء يقرأون جميعهم كتباً مثقفة بصوت عال؛ وفوق البيت الصغير يسمع حفيف أشجار الدردار والكستناء... غروب الشمس... طائر على السطح... كل ذلك شعري مؤثر إلى أقصى الحدود... لا تغضب يا سيدي الجنرال، واسمح لي أن أتكلم عن الأسلوب الذي يؤثر

[١٠] كلمة Vater بالألمانية في الأصل معناها أب.

في القلب. أذكر أن المرحوم أبي كان يقرأ لنا كتباً من هذا القبيل، يقرؤها لي ولأمي، في المساء، تحت أشجار الزيزفون في حديقتنا الصغيرة. فأنا إذن قادر على أن أقطع في الأمر برأي. إن كل أسرة هنا يستعبدها «فاتر» استعباداً كاملاً. إنهم جميعاً يعملون كأبقار ويكنزون المال كيهود. فلنفرض أن الأب قد سبق أن جمع مبلغاً من المال، وينوي أن يورث ابنه الأكبر مهنته أو أرضه: إنه لن يمهر ابنته التي لن تتزوج. وسيبيعون الابن الأصغر خادماً أو جندياً فيضمون ثمنه إلى الميراث. هذا صحيح. هذا ما يحدث هنا. لقد سألت فعرفت أن هذا ما يحدث. وذلك كله إنما مصدره الإخلاص، مصدره إخلاص مسرف إلى أبعد حدود الإسراف، حتى ليعتقد الابن الأصغر الذي باعوه، اعتقاداً جازماً، أنهم إنما باعوه بداعي الشرف والإخلاص. ذلك هو المثل الأعلى حقاً، حين تغتبط الضحية نفسها باقتيادها إلى التضحية بها! ثم ماذا بعد ذلك؟ إن الابن الأكبر لن تكون حياته أملأ بالفرح: إن له فتاة يحبها قلبه، ولكنه لا يستطيع أن يتزوجها، إذ لم يجمع بعد مبلغ كاف من الفلورينات. وها هما ينتظران متمسكين بأهداب الفضيلة والإخلاص، ويمضيان إلى التضحية مبتسمين. وتأخذ وجنتا الفتاة بالتخدر، ويجف ماؤهما. وأخيراً، بعد عشرين عاماً، يكون مالهما قد ازداد، فالفلورينات تكدست بالإخلاص والفضيلة. فيبارك «فاتر» ابنه الأكبر الذي بلغ الأربعين، والفتاة التي بلغت الخامسة والثلاثين، فذبل منها الصدر واحمرّ الأنف... ويبكي الأب في هذه المناسبة، ويعظ بمكارم الأخلاق، ويلفظ أنفاسه... ويصبح الولد الأكبر «فاتر» فاضلاً هو أيضاً، وتتكرر الحكاية. حتى إذا انقضى خمسون عاماً أو ستون كان حفيد «فاتر» الأول قد جمع حقاً رأس مال ضخم، فتركه لابنه ثم أورثه هذا ابنه، وبعد خمسة أجيال أو ستة يظهر

البارون دون روتشيلد بشخصه أو يظهر هوب وشركاه[١١]، أو يظهر لا أدري أي شيطان! أليس هذا مشهداً فخماً رائعاً: قرن أو قرنان من عمل شاق وصبر دائب وذكاء نشيط، وإخلاص كامل، وطاقة مستمرة، وحزم صلب، وتبصُّر بالمستقبل! ماذا تريدون أكثر من ذلك؟ لا شيء أروع من هذا ولا أرفع: ومن وجهة النظر هذه إنما يأخذون يحكمون على العالم بأسره، ويعاقبون المذنبين، أي أولئك الذين يختلفون عنهم ولو أيسر الاختلاف! ألا إن الاستهتار على الطريقة الروسية أو جني الثراء بالروليت أحب إلى نفسي وآثر في قلبي. لا أريد أن أكون هوب وشركاه في ختام خمسة أجيال! إنني في حاجة إلى مال لنفسي، ولا أقيس نفسي أبداً برأس مال. أعرف أنني قلت سخافات كثيرة. ولكن لا ضير... تلكم هي أرائي.

قال الجنرال مفكراً واجماً:

– لا أدري هل يشتمل كلامك على جانب من حق، غير أن هناك شيئاً أنا منه على يقين، وهو أنك تبدي غروراً لا يطاق متى ترك لك الحبل على الغارب...

ولم يكمل الجنرال جملته، على عادته حين يعالج موضوعاً أوسع قليلاً من موضوعات الأحاديث العادية. إن جنرالنا لا يتم أبداً جملة في مثل هذه الأحوال. وكان الفرنسي يصغي إلى الكلام محملقاً وقد اتخذ وضع من لا يكترث به. وكانت باولين تظهر بمظهر متعال لا يبالي؛ حتى لكأنها لم تسمع شيئاً من هذه الأحاديث التي دارت هذه المرة على المائدة.

[١١] «هوب وشركاه»، مصرف كبير في أمستردام.

الفصل الخامس

كانت جالسة مفكّرة أكثر مما تكون كذلك في العادة. ولكن ما إن نهضنا عن المائدة حتى سألتني أن أرافقها في النزهة. فأخذنا الأطفال ومضينا إلى الحديقة من جهة نافورة المياه. وإذ كنت مهتاجاً شديد الاهتياج، فقد سألتها في حماقة وفظاظة وسرعة، لماذا أرى أن صاحبنا المركيز دي جريو، الفرنسي القصير[١٢]، أصبح ليس فقط لا يصحبها حين تخرج، بل يبقى كذلك أياماً برمتها لا يخاطبها بكلمة.

فأجابتني بصوت غريب:

– لأنه غليظ.

لم يسبق قط أن سمعتها تتكلم عن دي جريو بهذه الطريقة، فصمتّ، خشية أن أفهم سبب هذا الحنق وهذا الغيظ. ثم قلت:

– هل لاحظت أنه كان اليوم على غير وفاق مع الجنرال.

فأجابت بلهجة جافة مغتاظة:

– أنت تعلم أنه أقرض الجنرال مالاً على رُهن جميع أملاك الجنرال. فإذا لم تمت الجدة آلت المرهونات كلها إلى الفرنسي، فأصبح هو مالكها.

[١٢] «المركيز دي جريو، الفرنسي القصير»؛ إن دوستويفسكي يطلق هنا على ابن عم مدموازيل بلانش اسم بطل رواية «مانون ليسكو»، وهذه إشارة إلى أن المركيز المزعوم هو خليل بلانش وعشيقها.

– أصحيح إذن أن كل شيء قد رهن؟ لقد سمعت عن هذا الأمر، لكنني لم أكن واثقاً.

– بلى!

قلت:

– وداعاً إذن يا مدموازيل بلانش. إنها لن تصبح زوجة الجنرال. هل تعلمين أنه يُخيل إليّ أن الجنرال قد بلغ من فرط هيامه بالأنسة بلانش أنه سوف ينتحر إذا هي هجرته. إن الغرام العنيف خطر جداً في مثل سنه.

قالت باولين ألكسندروفنا حالمة شاردة:

– أعتقد أيضاً أنه سيقع له شيء ما.

صحتُ قائلا:

– ألا ما أروع هذا ما من برهان أعنف من هذا البرهان على أنها لم تكن راضية بالزواج منه إلا في سبيل المال. إنهما لم يراعيا حتى أصول اللياقة والحشمة، ولم يحفلا بشيء البتة. هذا رائع! ثم ما هذا الذي يعمدون إليه فيما يتعلق بالجدة؟ هل هناك ما هو أسخف أو أحط من إرسال البرقية ليسألوا: «هل ماتت؟ هل ماتت؟ هل ماتت حقاً؟». ما رأيك يا باولين ألكسندروفنا؟

قالت تقاطعني مشمئزة:

– ما هذا الكلام كله إلا سخافات غبية! وإني ليدهشني أن تكون فرح المزاج إلى هذا الحد. ما الذي يبهجك؟ أتراك مبتهجاً لأنك خسرت مالي؟

– لماذا أعطيتني هذا المال لأخسره؟ لقد قلت لك إنني لا أستطيع أن ألعب لغيري، ولا أستطيع أن ألعب لك أنت من باب أولى! إنني أطيع كل ما يمكن أن تأمريني به. وقد حذرتك مع ذلك، قائلاً إنه لن يخرج من هذا كله خير. ولكن قولي: هل يؤثّر فيك كثيراً أن تخسري مثل هذا المبلغ الضخم من المال؟ فيم كان يمكن أن ينفعك هذا المال؟

– لماذا هذه الأسئلة؟

– ولكنك وعدتني أن تشرحي لي الأمور... اسمعي: أنا مقتنع بأنني إذا أخذت ألعب لنفسي (وعلى اثني عشر فردريكا) فلسوف أربح. وسأعطيك عندئذ كل ما تريدينه من مال.

فنظرت إليّ نظرة احتقار. فتابعتُ أقول:

– لا تغضبي مني إذا أنا عرضت عليك هذا. فإن شعوري هو من شدة الامتلاء بأنني في نظرك «صفر» بحيث تستطيعين أن تقبلي مني حتى مالاً. ليس يضيرك ولا يلحق بك إهانة أن أقدم إليك هدية. ثم إنني قد خسرت مالك.

فرشقتني بنظرة عجلى؛ وإذ لاحظت أنني أتكلم حانقاً ساخراً، غيّرت موضوع الحديث مرة أخرى.

– لا شيء من أموري يمكن أن يعنيك. فإذا حرصت على أن تعرف، فاعلم أن عليّ ديوناً. لقد اقترضت مالًا، وأود أن أرد المال إلى صاحبه. لقد راودتني فكرة مجنونة عجيبة هي أنني سأربح هنا في القمار. لماذا؟ لا أدري. ولكنني كنت أعتقد أنني سأربح. ومن يدري؟ لعل

هذا الأمل قد استقر في نفسي لأنني لم يكن لي خيار، ولأن الربح في القمار كان آخر حظ يمكن أن أعوّل عليه.

– أو لأنه كان ينبغي الربح مهما كلف الأمر؛ مثلك في ذلك كمثل إنسان يغرق فإذا هو يتشبث بقشة. أكان يحسب القشة جذع شجرة لولا أنه كان بسبيل أن يغرق؟

ظهرت الدهشة على باولين. فسألتني:

– كيف؟ أليس يراودك هذا الأمل نفسه أنت أيضاً؟ لقد قلت لي منذ خمسة عشر يوماً، وأنت تطنب في الشرح، إنك واثق من الربح هنا في الروليت؛ ورجوتني أن لا أنظر إليك نظرتي إلى مجنون. أكنت تمزح إذن؟ لكنني أذكر أنك كنت تتكلم بلهجة تبلغ من الجد أن المرء يستحيل عليه أن يحمل كلامك على محمل المزاح.

قلت مفكّرًا:

– صحيح. وما زلت واثقاً كل الثقة أنني سأربح. بل إني لأعترف لك بأنك تقودينني الآن إلى أن أطرح على نفسي هذا السؤال: لماذا لم تؤد هذه الخسارة الغبية الفاضحة التي خسرتها اليوم إلى إدخال الشك في نفسي؟ إنني ما زلت مقتنعاً بأنني رابح حتماً متى لعبت لنفسي لا لغيري.

– لماذا هذا الاقتناع كله؟

– الحق أنني لا أدري. لكنني أعرف أنه يجب أن أربح، وأن هذا الربح مخرجي الوحيد. ولعل هذا هو السبب أيضاً في شعوري بأنني سأربح لا محالة.

– إذن يجب أيضاً أن تربح مهما كلف الأمر، ما دمت على يقين يبلغ هذا المبلغ كله من الصلابة.

– أراهن أنك تشكين في أن يكون من الجائز أنني أشعر بضرورة ماسة وحاجة ملحّة؟

قالت باولين بلهجة هادئة غير مكترثة:

– ذلك أمر لا يعنيني في شيء. ولكن ما دمت تسألني فأنا أقول لك: نعم. إنني أشك في أن يكون هناك شيء يعذبك عذاباً عميقاً. فلقد تشعر ببعض عذاب، ولكن عذابك لا يمكن أن يكون خطيراً. أنت امرؤ مشوش لا تستقر على حال. ما حاجتك إلى المال؟ إنني في كل ما ذكرته لي من أسباب، ذلك اليوم، لم أجد شيئاً ذا بال.

قاطعتها قائلا:

– بالمناسبة، قلت إنك في حاجة إلى سداد دَين، دَين كبير فيما يُخيل إلي. أليس الفرنسي هو الدائن؟

– ما هذا؟ إنك اليوم لفارس. أتراك سكران؟

– أنت تعلمين أنني أبيح لنفسي أن أقول كل شيء، وأن أطرح في بعض الأحيان أسئلة مباشرة جداً. فأنا عبدك، وما يستحي المرء من عبده، ولا يشعر بشيء من غضاضة أمام عبده.

– يا لها من سخافات! إنني لا أطيق نظرية «العبودية» هذه التي تعرضها!

– لاحظي أنني لا أتكلم عن عبوديتي لأنني أرغب في أن أكون عبدك. وإنما أنا أتكلم عنها شيئاً مستقلاً عن إرادتي كل الاستقلال.

– قل لي بصراحة: لماذا أنت في حاجة إلى مال؟

– وأنت لماذا تريدين أن تعرفي ذلك؟

فأجابت تقول وهي تهز رأسها بحركة ملأى بالكبرياء:

– أنت حر...

قلت:

– أنت لا تطيقين نظرية العبودية، ولكنك تطلبين أن يُستعبد لك المرء: «أجاب دون أن تناقش». هذا لسان حالك. ألا فليكن ما تريدين: لماذا أنا في حاجة إلى مال؟ هذا سؤالك. ويا له من سؤال. إن المال هو... هو كل شيء..

– مفهوم. ولكن يجب أن لا يجن المرء هذا الجنون كله رغبة في المال! ذلك أنني أرى أنك تمضي إلى حد الهذيان... إن ثمة شيئاً بعينه، إن هناك هدفاً بذاته. تكلم بلا لف ولا دوران. أريد هذا.

لكأنها أخذت تغتاظ. وملأني افتتاناً أن أراها تظل تطرح عليّ أسئلة بهذه اللهجة الغضبى.

قلت:

– إن لي هدفاً ولا شك. ولكنني لا أعرف كيف أشرح لك ما هو هذا الهدف. كل ما هنالك أنني بالمال سأصبح رجلاً آخر، حتى في نظرك أنت، فما أبقى عبداً.

– كيف؟ كيف تصل إلى هذا؟

– كيف أصل إلى هذا؟ إنك لا تستطيعين حتى أن تفهمي أن في إمكاني أن أصل إلى أن تنظري إليّ نظرتك إلى إنسان غير عبد! وذلك بعينه هو ما أصبحت لا أريده. أصبحت لا أريد هذه الدهشات وهذه الاستغرابات!

– كنت تقول إن هذه العبودية تهيئ لك لذائذ عذبة. وكنت أنا أصدق هذا الكلام!

صحيتُ أقول وأنا أشعر بلذة غريبة نادرة:

– كنت تصدقين ذلك؟ يا لها من سذاجة جميلة! نعم إن العبودية التي تخضعينني لها هي عندي لذة عذبة. إن المرء ليجد لذة في أدنى درجة من درجات الانحطاط والمذلة! (كذلك استمررت أهذي). ومن يدري؟ فلعل المرء يجد هذه اللذة العذبة أيضاً تحت ضربات المقرعة حين تهوي على ظهره وتسلخ جلده... ولكن لعلني أريد أن أشعر بمتع أخرى... منذ قليل، قرّعني الأمير أمامك، من أجل سبعمائة روبل قد لا أقبضها يوماً؛ ورفع المركيز دي جريو حاجبيه يتفرّسني متظاهراً في الوقت نفسه بأنه يجهل وجودي. هذا على حين أنني ربما كنت، من جهتي، أحترق شوقاً إلى أن أمسك بالمركيز، أمامك، من أرنبة أنفه.

– كلام صبية أغرار! إن في وسع المرء، في كل ظرف من الظروف، أن يتصرف تصرفاً يحفظ له كرامته. إن الكفاح يرفع قدر الإنسان ولا يخفضه.

– جمل محفوظة أو أقوال مأثورة: هكذا تتكلمين! إنك تفترضين أنني لا أحسن الظهور بالمظهر الكريم، وأنني على كوني إنساناً ذا كرامة، لا أعرف كيف أتصرف تصرفاً يصون الكرامة. تظنين أن الأمر يمكن أن يكون كذلك! ألا إن جميع الروس هكذا. لأن الروس

يبلغون من غنى المواهب وتنوعها أنهم يعجزون عن أن يجدوا، بسرعة، شكلاً يناسبهم. أما هنا فالشكل هو الأمر الهام. إننا، نحن معشر الروس، نبلغ من غنى المواهب أنه لا بد لنا من عبقرية حتى نجد لأنفسنا شكلاً مناسباً. ونحن في أغلب الأحيان تعوزنا العبقرية، لأن العبقرية شيء نادر جداً على وجه العموم. إن الشكل، لدى الفرنسيين وربما لدى أوروبيين آخرين أيضاً، يبلغ من كمال التحديد ودقة التعيين أن من الممكن أن يظهر المرء بمظهر كريم إلى أبعد حدود الكرامة ولو كان أبعد الناس عن الكرامة. هذا هو السبب الذي يجعل للشكل لديهم هذه الأهمية كلها. إن الفرنسي قد يتحمل إهانة من الإهانات دون أن يقطب جبينه غيظاً، مع أن الإهانة قد تكون عميقة، حقيقية؛ ولكنه لن يتحمل بحال من الأحوال نقرة على أنفه بسبابة، لأن ذلك مخالف للآداب المقررة والشكل التقليدي. ولئن كنا نرى الفرنسيين يظفرون بهذه الحظوة وهذا النجاح لدى بناتنا، فلأن لهم شكلاً حسناً. على أنني، من جهتي، لا أرى هنا أي شكل وإنما أرى ديكاً، ديكاً من ديوك بلاد الغال؛ ولست بمن يستطيع أن يفهم هذا على كل حال، لأنني لست امرأة. ولعل في الديكة خيراً أجهله. ولكنني أقول ترهات ثم أنت لا توقفينني عن الكلام. ألا أوقفيني أكثر من ذلك. حين أتحدث إليك فإنني أحب أن أقول كل ما في قلبي، كله، كله... فأفقد القدرة على مراعاة أي شكل. بل إنني أعترف أنني لا أفتقد الشكل فحسب، بل تعوزني كل مزية. أصرّح لك بهذا. حتى إنني لا أحفل بأية مزية. لقد تجمد الآن كل شيء في نفسي. وأنت تعرفين سبب ذلك. لم يبق في ذهني فكرة واحدة. أصبحت منذ زمن طويل لا أعرف ماذا يجري في العالم، لا في روسيا ولا هنا. هذا مثل: لقد مررت بمدينة درسدن، ونسيت ماذا تشبه هذه المدينة. إنك تعرفين ما الذي يستغرقني... وإذ لم يكن لي أي أمل، وإذ كنت في نظرك صفراً، فإنني أسوق كلامي صريحاً

صريحاً: إنني لا أرى في أي مكان شيئاً سواك، وكل ما عداك فهو عندي سواء. لماذا أحبك؟ وكيف أحبك؟ لا أدري. قد لا تكونين من الجمال على شيء البتة. هل تتصورين أنني لا أعرف أأنت جميلة أم لا، حتى من ناحية جمال الوجه؟ أما قلبك فسيئ ولا شك، وأما فكرك فمن الجائز جداً أن يكون مجرداً من كل رِفعة ونُبل.

– فلعلك لعدم إيمانك بنبلي تعوّل على أن تشتريني إذن بالمال؟

هتفت أقول:

– متى عوّلت على أن أشتريك؟

– لقد ضللت الطريق، وفقدت المنطق. إن لم تكن تأمل أن تشتريني أنا بالمال، فإن اعتباري لك هو ما تأمل أن تشتريه.

– ليس الأمر كذلك تماماً. قلت لكِ إن من الصعب عليّ أن أشرح ما بنفسي. إنك تسحقينني سحقاً. لا تغضبنك ثرثرتي. أنت تفهمين لماذا يجب أن لا يُزعل مني. أنا مجنون، هذا كل ما في الأمر. على أن ذلك لا يهمني، فازعليّ إذا شئت. إنه ليكفيني وأنا بغرفتي الصغيرة، في أعلى، أن أتذكر أو أن أتخيل حفيف ثوبك حتى أكون مستعداً لعض أصابعي. لماذا زعلت مني؟ ألأنني أعلن أنني عبدك؟ استفيدي من عبوديتي، استفيدي منها! هل تعلمين أنني سأقتلك في ذات يوم؟ لا غيرة ولا لأنني أكون قد انتهيت من حبك! لا، وإنما سأقتلك لمجرد أنني أشعر في بعض الأيام برغبة في أن ألتهمك. تضحكين؟

قالت بلهجة غضبى:

– لست أضحك. ولكنني آمرك أن تسكت.

وتوقفت، وهي تختنق غضباً. شهد الله لا أدري أهي جميلة، لكنني أحب أن أنظر إليها حين تتوقف أمامي هذا التوقف؛ ومن أجل ذلك إنما أحب أن أستثير غضبها. ولعلها لاحظت هي ذلك، فتعمدت أن تغضب. وقلت لها ذلك. فصاحت مشمئزة:

– يا للشناعة!

واستأنفت كلامي قائلاً:

– يستوي عندي... ثم اعلمي أيضاً أن من الخطر أن نتنزه معاً: فكثيراً ما تراودني رغبة لا تُقَاوم في أن أضربك، في أن أشوهك، في أن أخنقك. أتظنين أن الأمر لا يمكن أن يمضي إلى هذا الحد؟ إنك تغيظيني. أتحسبين أنني أخشى الفضيحة؟ أتحسبين أنني أخشى سخطك؟ أنا أستخف بسخطك! إنني أحبك بغير أمل، وأعرف أن حبي سيزداد بعد ذلك ألف مرة. وإذا قتلتك يوماً فسيكون عليّ أن أقتل نفسي أيضاً. ولكنني سأؤجل قتل نفسي ما استطعت إلى التأجيل سبيلاً، حتى أشعر من فراقك بذلك العذاب الذي لا يطاق! هل تصدقين هذا الشيء الذي لا يصدق: أنني في كل يوم أحبك أكثر مما كنت أحبك في اليوم السابق؛ وهذا أمر مستحيل مع ذلك! أفتريدين بعد ذلك أن لا أؤمن بالقدر! تذكري: لقد قلت لك أول أمس، ونحن على جبل شلانجنبرج، قلت لك بصوت خافت جداً، حين تحديتني: «قولي كلمة واحدة، فأرمي بنفسي إلى الهاوية». لو أنك قلت تلك الكلمة إذن لرميت نفسي. أنت تصدقين هذا، أليس كذلك؟

صاحت تقول:

– ثرثرة غبية.

– يستوي عندي أن تكون غبية أو أن لا تكون كذلك. أنا أعلم أنني حين أكون معك أحتاج إلى أن أتكلم، أن أتكلم، أن أتكلم... فأتكلم. إنني حين أكون معك أفقد حب نفسي كله، وليس يهمني هذا.

قالت بلهجة خشنة، ونبرة مهينة:

– فيم عساني أجبرك على أن تلقي بنفسك من قمة جبل شلانجنبرج؟ لا فائدة من هذا البتة.

هتفت أقول:

– رائع! لقد استعملت هذا التعبير الرائع عامدة لإذلالي: «لا فائدة». كشفتك. تقولين: «لا فائدة». ولكن اللذة مفيدة دائما، والسلطة المطلَقة التي لا حدود لها نوع من المتعة، ولو كانت سلطة على ذبابة. الإنسان ظالم بطبيعته: إنه يحب التعذيب. وأنت تحبين هذا أكثر مما تحبين أي شيء آخر.

أذكر أنها كانت تتفرسني بانتباه خاص. لا شك أن وجهي كان يعبر عندئذ عن جميع الإحساسات العجيبة السخيفة الخارقة التي كنت أشعر بها. وأذكر الآن أن حديثنا قد جرى بهذه الألفاظ نفسها التي أوردها هنا تقريباً. كانت عيناي محتقنتين دماً. وكان الزبد يصعد إلى شفتيّ. أما عن قصة جبل شلانجنبرج، فأقسم بشرفي، حتى هذه اللحظة، لكنت ألقي بنفسي إلى تحت لو أمرتني بذلك؛ ولكنت أفعل حتى ولو طلبته مني مازحة محتقرة باصقة عليّ.

قالت:

– لا، لماذا؟ إنني أصدقك.

ولكنها قالت ذلك بتلك اللهجة التي تجيد وحدها استعمالها، بلهجة تبلغ من الاحتقار والمكر والتعالي ما كان يمكن أن يدفعني إلى قتلها في تلك اللحظة. لقد عرّضت نفسها لمثل هذا فعلاً. ولم أكذب عليها حين قلت لها ذلك.

سألتني فجأة:

– ألست جباناً؟

– لا أدري. قد أكون كذلك. منذ زمن طويل لم أسأل نفسي هذا السؤال.

– هبني قلت لك: «أقتل هذا الرجل»... أفتقتله؟

– من؟

– من أريد.

– الفرنسي؟

– لا تسألني بل أجبني. أتقتل من أسألك أن تقتله؟ أريد أن أعرف هل كنت جاداً فيما كنت تقوله منذ هنيهة.

كانت من شدة الاهتمام ونفاد الصبر في انتظار جوابي أنني دُهشت حقاً. فهتفت أقول:

– هلّا قلت أخيراً ماذا يحدث هنا؟ أتراك خائفة مني؟ إنني أرى جميع التعقيدات التي تضطربون هنا في زوبعتها. أنت قريبة رجل مدمّر مجنون، يخربه هيامه بهذا الشيطان... الآنسة بلانش. ثم هنالك الفرنسي وما له عليك من نفوذ خفي. وها أنت تطرحين عليّ منذ لحظة ذلك السؤال. فلأعلم شيئاً على الأقل. وإلا جننت واندفعت إلى تطرّف لا نعرف ما عسى يكون؟ أم تراك تستحين أن تشرفيني بصراحتك؟ ولكن ليس في الإمكان أن تستحي أمامي.

– ما عن هذا قط أكلمك. لقد ألقيت عليك سؤالاً وأنا أنتظر الجواب.

فانفجرت أقول:

– طبعاً أقتل من تسألينني أن أقتله، ولكن هل يمكن أن... هل يمكن أن تأمريني بشيء من هذا القبيل؟

– لا تقدّر على كل حال أنني سأدخرك! وإنما أنا أصدر إليك أمري، وأبقى بعيدة. أفي وسعك أن تتحمل هذا؟ ما أظن... فلست أهلاً لذلك! ولسوف ترجع إليّ تقتلني لأنني تجرأت فأرسلتك ترتكب جريمة.

شعرت بكلماتها كأنها تصعقني صعقاً. طبعاً، كنت حتى ذلك الحين أحمل كلامها على محمل نصفه المزاح ونصفه التحدي. ولكنها كانت قد تكلمت جادة مفرطة في الجد. لقد أذهلني أنها تكلمت على هذا النحو، فأكدَتْ أن لها عليّ مثل هذا الحق، واعترفت لنفسها بمثل هذه السلطة، وقالت صراحة: «تهلك أنت، وأبقى أنا بعيدة». إن في هذه الأقوال من الاستهتار والصراحة ما يخرج في رأيي عن القصد ويتجاوز الحد. وكيف تراها تتصرف معي بعد أن

أنفّذ أمرها؟ إن هذا يتخطى حدود العبودية والحطة. إن هذه الطريقة في النظر إلى الأمور ترفعني إلى مستواها. ومهما يكن الحديث الذي دار بيننا سخيفاً لا يصدق فقد أحسست بقلبي يتهاوى.

وفجأة، انفجرت ضاحكة. كنا جالسين على مقعد أمام الأطفال الذين كانوا يلعبون؛ تماماً مقابل المكان الذي تتوقف عنده العربات لتنزل الناس في الممر المؤدي إلى الكازينو.

هتفت تقول:

– أترى هذه البارونة الضخمة؟ إنها البارونة فورمو هلم. هي هنا منذ ثلاثة أيام فحسب. أنظر إلى زوجها: هذا البروسي النحيل المتخلع الذي يمسك في يده عصا. هل تذكر كيف تفرسا فينا أول أمس. الحق فوراً بالبارونة، وأظهر لها، وقل لها شيئاً بالفرنسية.

– لماذا؟

– لقد حلفت لي لترمينّ نفسك من أعلى جبل شلانجنبرج إذا أنا أمرتك بذلك؛ وأنت تحلف اليوم أنك مستعد للقتل إذا أنا أمرتك أن تقتل. فبدلاً من هذه الجرائم وهذه المآسي أريد اليوم أن أتسلى قليلاً. أريد أن أرى البارون يضربك بعصاه.

– أتتحدينني؟ أتظنين أنني لن أفعل؟

– نعم أتحداك. هيا اذهب إليها. أريد ذلك.

– طيب. سأذهب: ولكنها نزوة غريبة جداً. يجب أن لا يجلب هذا الأمر بعض المكاره للجنرال، ولا أن يجلب لك أنت بعض المكاره تبعاً لذلك. يميناً ما أنا بالخائف على نفسي، بل عليك... وعلى الجنرال. أية فكرة غريبة هذه: أن أمضي أهين امرأة!

قالت لي باحتقار:

– ما أنت إذن إلا ثرثار كما أرى.. عيناك وحدهما كانتا محتقنتين منذ قليل. ولعل مرد ذلك على كل حال إلى أنك أسرفت في الشراب أثناء الغداء. أنا أعرف أن ما أسألك أن تفعله سخيف ودنيء، وأن الجنرال سيغضب. ولكنني أحب أن أتسلى. هذا كل ما في الأمر. ولن تكون في حاجة إلى إهانة امرأة. لسوف تُخبط قبل أن تفعل.

نهضت ومضيت أنفّذ مهمتي دون أن أنطق بكلمة واحدة. واضح أن الأمر كان سخيفاً. ولم أستطع أن أتملص. ولكنني أذكر أنني، بينما كنت أقترب من البارونة، شبت في نفسي رغبة في أن أقارف عملاً أرعن طائشاً. ثم إنني كنت من شدة اهتياجي كسكران.

الفصل السادس

حدث ذلك منذ يومين. يا له من نهار أحمق! ما أكثر ما ارتفع فيه من صياح، وما قام فيه من ضجة وجلبة، وما جرى فيه من تعليق وتعقيب؛ وأنا السبب في كل هذا الهرج والمرج، في كل هذا السخف، في كل هذه العامية! على أن الأمر مهزلة تبعث على الضحك، في رأيي على الأقل. لا أستطيع أن أفهم ما وقع لي: أأنا في حالة من حماسة وحميا، أم أنا إنسان خرج عن جادة العقل، وراح يقارف السفاهات تلو السفاهات بانتظار أن يحبس؟ يُخيل إليّ في بعض اللحظات أنني بسبيل أن أجن؛ ويخيل إليّ في بعض اللحظات أنني لم أكد أتجاوز عهد الطفولة، لم أكد أخرج من المدرسة فأنا أندفع في أعمال صبيانية فظة مما يندفع فيه التلاميذ.

إن الخطأ خطأ باولين؛ إن كل الذنب ذنبها. لعلني ما كنت أندفع في تلك الأعمال الصبيانية لولا أنها كانت هنالك. ومن يدري على كل حال؟ لعلني فعلت ذلك كله يأساً (رغم أن تفسير الأمر على هذا النحو غباء). ولست أفهم، لا لست أفهم ما تتمتع به من مزايا. إنها جميلة، أو هذا ما أعتقده في أقل تقدير. ولست المجنون الوحيد بها. إنها فارعة القوام، حسنة الخلقة. لكنها نحيلة جداً. يُخيل إليّ أن في وسع المرء أن يربطها عقدة أو أن يثنيها نصفين. أثر قدمها طويل ضيق... معذّب. نعم معذّب... هذه هي الكلمة. في شعرها انعكاسات ضاربة إلى حمرة. عيناها عينا قطة حقًا... وما أكثر ما تستطيع أن تضع فيهما من كبرياء وعجرفة! منذ حوالي أربعة أشهر، وكنت قد دخلت في خدمتهم منذ قليل، شب بينها وبين دي جريو، ذات مساء، حديث طويل، في الصالون. كانا يتكلمان في اندفاع وحرارة. فكانت ترمقه بنظرة تبلغ

من القوة... أنني حين صعدت أنام بعد ذلك تخيلت أنها قد صفعته، أنها قد صفعته منذ لحظة، وأنها الآن واقفة أمامه تنظر إليه... وفي المساء إنما وقعت في هواها.

ولنعد إلى ما وقع.

سرت في مضيق صغير يؤدي إلى الطريق، فتوقفت في وسطه أنتظر وصول البارون والبارونة. فلما صارا مني على مسافة خمس أقدام ظهرت لهما وألقيت عليهما السلام.

أذكر الآن أن البارونة كانت ترتدي ثوباً من حرير أشهب واضح، واسع سعة عظيمة تبعث على الدهشة، مزدان بتخاريم مطرزة، ونسيج من شعر، وذيل سابغ. إنها قصيرة، بدينة جداً، لها ذقن كثيفة متراجعة تختلط بخديها؛ ووجه أحمر، وعينان صغيرتان خبيثتان وقحتان؛ ومشية تفيض طواعية وانقياداً. أما البارون فرجل جاف خشن، طويل القامة، ذو وجه مقلوب تخدده طائفة من غضون صغيرة. وهو يضع على عينيه نظارتين، كعادة الناس في ألمانيا. وهو في الخامسة والأربعين من عمره؛ تكاد ساقاه من طولهما أن تخرجا من صدره رأساً: وتلك علامة نبالة المحتد. إنه مغرور كطاووس. ثقيل قليلاً. وشيء من مظهر الخروف في التعبير ينوب عنده مناب العمق.

لاحظت ذلك كله في بضع ثوان.

لم يكادا يلتفتان في أول الأمر إلى تحيتي التي ألقيتها عليهما حاملاً قبعتي في يدي. واكتفى البارون بأن قطب حاجبيه قليلاً. وأقبلت البارونة عليّ قدماً وهي تسير بخطى جليلة. قلت بصوت مسموع مفهوم، مميّزًا كل مقطع من كلامي:

– سيدتي البارونة، إنه ليشرفني أن أكون عبدك[١٣].

قلت ذلك ثم انحنيت إجلالاً، وأعدت قبعتي إلى رأسي، ومضيت قرب البارون أنظر إليه بابتسامة رقيقة متوددة.

لقد أمرتني باولين أن أظهر لهما. أما التذللات والصبيانيات فهي من عندي أنا. لا يعلم إلا الله ما الذي كان يدفعني إلى ذلك دفعاً. كان يُخيل إليّ أنني أهوي من أعلى جبل.

– هيه!...

كذلك صرخ البارون أو قل كذلك عوى وهو يستدير نحوي بدهشة غاضبة.

فالتفت متجمداً على وضع الاحترام، منتظراً ما سيحدث، مستمراً في النظر إليه بابتسام. كان واضحاً أنه متحير. ثم ها هو ذا يقطب حاجبيه إلى أقصى حد، ويكفهر وجهه شيئاً بعد شيء مزيداً من الاكفهرار. والتفتت البارونة أيضاً إلى جهتي دَهِشة مستاءة. وأخذ مارّة من الناس يراقبوننا. حتى لقد توقف بعضهم يشاهد.

– هيه!..

كذلك عوى البارون مرة أخرى بصوت تضاعف صراخه وتضاعف حنقه.

– «ياقول»[١٤].

---

[١٣] بالألمانية في الأصل.

[١٤] «ياقول»، بالألمانية في الأصل، ومعناها «نعم» مؤكدة.

قلت له ذلك أجرّ الكلمة جراً، وظللت أحدّق في عينيه.

– أأنت مجنون؟[15]

قال ذلك ملوّحاً بعصاه، حتى ليخال المرء حين يراه أنه أخذ يرتجف. لعل ردائي هو الذي أدخل الاضطراب في قلبه؛ وكنت حسن الهندام، بل جيد الأناقة، كرجل ينتسب إلى أرقى طبقة.

– ياقووول...

صحت هكذا بكل ما أملك من قوى، مطيلًا «الواو» كما يفعل سكان برلين الذين يستعملون هذه الكلمة «ياقول» في الحديث كل لحظة مطيلين الواو أو مقصرينها تبعاً لاختلاف ما يريدون التعبير عنه من الفكر أو من العاطفة بعض الاختلاف.

استدار البارون والبارونة فجأة، وابتعدا بما يشبه الركض. لقد خافا خوفاً شديداً. أما المارة الذين تجمهروا فبعضهم أخذوا يتكلمون، وبعضهم راحوا ينظرون إليّ مدهوشين. ولست أذكر جيداً على كل حال.

عدت أدراجي بخطواتي العادية نحو باولين ألكسندروفنا ولكن ما إن صرت على مسافة مائة متر تقريباً من مقعدها حتى رأيتها تنهض وتتجه نحو الفندق مع الأطفال.

وأدركتها أمام درجات سلم المدخل، حتى إذا صرت حذوها قلت لها:

---

[15] «أنت مجنون؟»: بالألمانية في الأصل.

– ها قد نفّذت... تلك السخافة.

فأجابتني بقولها:

– والآن دبّر نفسك.

وصعدت درجات السلم، حتى دون أن تلقي عليّ نظرة.

ظللت السهرة كلها أطوف في الحديقة. ثم اجتزت الحديقة، واستمررت أسير إلى أن بلغت قرية من القرى، فطعمت لدى بعض الفلاحين بيضاً وشربت خمراً، فكلفتني هذه القصة الشعرية تاليراً ونصف تالير.

ولم أعد إلا في الساعة الحادية عشرة من المساء. فما أن وصلت حتى استُدعيت إلى لقاء الجنرال.

إن أصحابنا يحتلون من الفندق شقتين. إنهم يشغلون أربع غرف. فأما الأولى فهي الصالون: غرفة واسعة يزينها بيانو ذو ذيل، وتتصل بغرفة واسعة أخرى هي مكتب الجنرال. هناك كان الجنرال ينتظرني واقفاً في وسط الغرفة، متخذاً وضعاً في غاية الفخامة والجلال. وكان دي جريو متمدداً على الديوان في تكاسل واسترخاء.

بدأ الجنرال كلامه قائلاً:

– هلّا أذنت لي أيها السيد العزيز أن أسألك ماذا فعلت؟

أجبت: جي

– أوثر أن تمضي إلى الأمر رأساً يا سيادة الجنرال. لعلك تريد أن تكلمني في أمر لقاء مع أحد الألمان منذ قليل.

– أحد الألمان؟ إن هذا الألماني هو البارون فورمرهلم. إنه شخصية كبيرة. لقد كنت فظا غليظا معه ومع البارونة.

– أبداً...

– لقد أرعبتهما أيها السيد.

كذلك صاح الجنرال.

– لم أرعبهما قط. لقد كنت في برلين أسمع كلمة «ياقول» هذه في كل حديث، يرددها الناس بعد كل كلمة، ويطيلونها إطالة مزعجة. فلما صادفت البارون في الطريق الذي تحف به الأشجار، استيقظَتْ هذه الكلمة في ذاكرتي فجأة (لا أدري لماذا؟)، فأثارت حفيظتي... زد على هذا أن البارونة قد لقيتني في الطريق ثلاث مرات قبل ذلك، فكانت تسير نحوي قُدماً كما لو كنت دودة من ديدان الأرض يمكن سحقها. ويجب أن تسلّم بأنني إنسان له كرامته. فما كان مني إلا أن نزعت قبعتي وقلت لها في أدب جم (أؤكد أنني كنت جم الأدب): «يشرفني يا سيدتي أن أكون عبدك». فلما التفت البارون صارخاً: «هيه؟»، اشتهيت أن أصرخ أنا أيضاً بقولي «ياقول». ولقد قلت هذه الكلمة مرتين: مرة بطريقة عادية، ومرة أخرى بإطالتها ما وسعتني الإطالة. هذا كل ما حدث.

أعترف أن هذا الشرح قد رقاني وفتنني إلى أقصى حد يليق بفتى وقح. كنت أحترق شوقاً إلى تطريز هذه القصة على أسخف صورة ممكنة. وكنت كلما أمعنت في ذلك، ازددت تلذذاً به.

صاح الجنرال:

– أنت تسخر مني فيما يبدو.

والتفت نحو المركيز فشرح له باللغة الفرنسية أنني كنت أسعى إلى خلق مشكلة حتماً. فابتسم دي جريو ابتسامة احتقار، رافعاً كتفيه.

هتفت أقول:

– لا تصدق هذا... ليس في الأمر شيء من ذلك قط. صحيح أن حركتي كانت مزعجة... أعترف لك بذلك صادقاً مخلصاً. ويمكن أن تُوصَف بأنها سخيفة، بأنها عمل صبياني قليل الحياء غبي... لا أكثر. واعلم، يا جنرال، أنني أشعر بندامة كبيرة على ما بدر مني. غير أن هنالك ظرفاً يكاد يعفيني في رأيي من الندم. إنني في الآونة الأخيرة، منذ خمسة عشر يوماً، وربما منذ ثلاثة أسابيع، أشعر بأنني في حالة صحية سيئة: إنني مريض، عصبي، سريع الاهتياج، كثير الهواجس، حتى لأفقد في بعض المناسبات كل سيطرة على نفسي وكل تحكم بأعمالي. هذا صحيح. من ذلك مثلاً أنني قد شبّت في نفسي عدة مرات رغبة رهيبة في أن أقوم فجأة إلى المركيز دي جريو فـ... ولكن لا فائدة من إكمال كلامي... وإلا فقد يشعر الأمير من ذلك بإهانة فيثور غضبه... المهم أن هذه الأشياء أعراض مرض... لا أدري هل تأخذ البارونة فورمرهلم هذا الظرف بعين الاعتبار، حين سأعتذر إليها (وفي نيتي أن أعتذر إليها).

ولكن أغلب الظن أنها لن تفعل، خاصة وأن الناس، في الآونة الأخيرة، قد أخذوا، فيما أعلم، يسيئون استعمال هذا المبرر في عالم القضاء: فالمحامون، في القضايا الجنائية، أخذوا يبررون جرائم موكليهم زاعمين أن هؤلاء كانوا لحظة ارتكاب الجريمة لا يشعرون بما يفعلون، وأن هذا مرض من الأمراض. يقول هؤلاء المحامون مثلاً: «لقد ضرب، نعم. لكنه لا يتذكر الآن شيئاً». وتصور، يا سيادة الجنرال، أن الطب يؤيدهم... فهو يدعي أن هناك مرضا من هذا النوع، أن هناك جنوناً مؤقتاً إذا استبد بالإنسان لحظة جعله لا يتذكر أو لا يتذكر إلا نصف تذكر. ولكن البارون والبارونة هما من الجيل القديم، ناهيك عن أنهما من النبلاء البروسيين وأنهما من الريف، فهما لمّا يعلما، بعد، بهذا التطور الذي حققه الطب الشرعي، لذلك لن يقبلا شروحي وتعليلاتي. ما رأي الجنرال؟

قال الجنرال بغتة وهو يكظم استياءه:

– كفى أيها السيد كفى!... سوف أحاول أن أجعل نفسي في منجى من أعمالك الصبيانية مرة واحدة إلى الأبد. لن يكون عليك أن تعتذر للبارون والبارونة. إن أي اتصال لك بهما، ولو اقتصر على الاعتذار إليهما، سيبدو لهما ذُلاً ما بعده ذل. وحين علم البارون أنك واحد من منزلنا، حدثني في الأمر بالكازينو وأوشك أن يطالبني بترضية، أعترف لك بذلك. فهل فهمت على ماذا حملتني أنا، أيها السيد العزيز؟ لقد اضطررت أن أعتذر إليه، وأن أعده وعد الشرف أنك منذ هذا اليوم لن تكون واحداً من منزلنا...

– اسمح لي، اسمح لي يا جنرال، أهو الذي طلب أن لا أكون منذ اليوم واحداً من منزلكم، على حد تعبيرك؟

– لا... ولكنني شعرت بأنني مضطر أن أصلح الأمر بهذه الطريقة، وطبيعي أن يظهر البارون ارتياحه لذلك ورضاه به. بقي أن أدفع لك أربعة فردريكات وثلاثة فلورينات. فإليك مالك، وهذا هو الحساب، في وسعك أن تراجعه. والوداع. فنحن بعد الآن غرباء لا يعرف بعضنا بعضاً. إنني لم أجن منك إلا ما يصدع الرأس ويزعج النفس. وسوف أستدعي «الجرسون» الآن فأقول له أنني لن أكون مسؤولاً عن نفقاتك بالفندق ابتداء من غد. الوداع.

تناولت المال والورقة التي سجل عليها الحساب بالقلم الرصاص، ثم حييت الجنرال، وقلت له بلهجة جادة كل الجد:

– إن الأمر لا يمكن أن ينتهي على هذا النحو، يا جنرال. يؤسفني ويؤلمني أن البارون قد أبدى لك ملاحظات مزعجة، ولكن اسمح لي أن أقول أن الخطأ خطؤك. فلماذا توليت أن تكون مسؤولاً أمام البارون نيابة عني؟ وما معنى هذا التعبير: «أنني واحد من منزلكم؟» أنا معلم أولادك لا أكثر. فلا أنا ابنك، ولا أنت وصي عليّ، وما كان لك أن تُسأل عن أعمالي. إن لي شخصيتي القانونية. عمري خمسة وعشرون عاماً. وأنا متخرج من الجامعة. وأنا نبيل. ولست أمتُّ إليك بأية قربى، فأنا غريب عنك كل الغرابة. ثق أن ما أحمله لمزاياك من احترام لا حد له هو الذي يصدني الآن عن أن أطالبك بإصلاح ما بدر منك حين أعطيت نفسك حق أن تكون مسؤولاً عني.

بلغ الجنرال من شدة الانشداه أن تهدلت ذراعاه؛ ثم إذا هو يلتفت نحو الفرنسي فجأة، فيقول له موجزاً أنني أوشكت أن أطلبه لمبارزة. فانفجر الفرنسي ضاحكاً بقهقهة.

واستأنفت كلامي فقلت بهدوء كامل، دون أن أدع لنفسي أبداً أن تستفزها قهقهات مسيو دي جريو:

– على أن حسابي لا يكون بذلك قد صفّي مع البارون، وما دمت قد رضيت اليوم أن تصغي إلى شكاوي البارون، وأن تُعنى بشؤونه هذه العناية، فإنك قد دخلت في هذه القضية بمعنى من المعاني، لذلك يشرفني أن أبلغك يا سيادة الجنرال أنني، غداً لا بعده، سوف أطالب البارون، باسمي أنا، بتفسير قاطع للأسباب التي حملته، رغم أن شأنه كان معي، على أن يتجاهلني وأن يتجه إلى شخص ثالث، كما لو كنت غير قادر على أن أتحمل مسؤولية أفعالي، أو كما لو كنت غير جدير بذلك.

وحدث ما كنت أتوقعه. فها هو ذا الجنرال يأخذه الخوف إذ يسمع هذه السخافة الجديدة. وصاح يقول:

– أتراك تنوي أن تسير بهذه القضية المشؤومة أشواطاً أخرى! ألا إنك لتضعني في أحرج المواقف!... ولكن حذار أيها السيد... حذار ثم حذار... وإلا فإنني أقسم بشرفي... لاحظ أن في هذا البلد سلطات أيضاً... وأنا... أنا... الخلاصة... نظراً لمركزي... ونظراً لمركز البارون أيضاً... الخلاصة... لسوف توقفك الشرطة، ولسوف تطردك من هذه المدينة، منعاً لك من ارتكاب فضيحة... فاجعل هذا ماثلاً في ذهنك... لقد حذرتك...

كان الجنرال خائفاً خوفاً شديداً، رغم أن الغضب كان يخنقه خنقًا.

أجبت قائلاً بهدوء مثير:

– سيادة الجنرال، لا يمكن أن يُعتقل أحد لفضيحة قبل ارتكابه الفضيحة. إنني لم أفاتح البارون بعد، وما زلت تجهل كل الجهل من أي جانب أنوي أن أواجه القضية، وعلى أي أسس أنوي أن أعالجها، إن كل ما أريده هو أن أبدد ذلك الظن الذي يلحق بي إهانة كبيرة، ألا وهو أن هناك وصياً عليّ يملك أن يضغط على حرية إرادتي. فأنت إذن تفزع وتقلق في غير ما حاجة إلى الفزع أو القلق.

بذل الجنرال أوضاعه المتكبرة فجأة فقلبها إلى لهجة توسل وضراعة حتى لقد أمسك بيدي، وقال:

– ناشدتك الله، ناشدتك الله يا ألكسي إيفانوفتش، دعك من هذا المشروع السخيف المستحيل. تصور ما قد ينجم عنه! مزعجات جديدة. لاحظ أن عليّ هنا أن أظهر بمظهر خاص، لا سيما الآن، لا سيما الآن... لعلك لا تعرف الوضع كله. أنا مستعد لاستردادك متى سافرنا من هنا. أما الآن فالقضية قضية شكل... الخلاصة.. إنك تعرف الأسباب التي تدفعني إلى هذا دفعاً... ألكسي إيفانوفتش، ألكسي إيفانوفتش (كذلك صاح يائساً).

فرجوته مرة أخرى، وأنا أنسحب، أن لا يتملكه القلق، ووعدته بأن تجري الأمور مجرى حسناً، وأسرعت أبارح الغرفة.

إن الروس يسرفون في الجبن أحياناً حين يكونون في الخارج. إن بهم خوفا رهيبا مما سيقال عنهم، من نظرة الناس إليهم. إنهم يخشون أن يخلّوا بمظاهر اللباقة، ولا سيما أولئك الذين يطمعون في أن يكون لهم شأن كبير. إنهم يحرصون أشد الحرص على أن يراعوا، مراعاة العبودية، شكلاً معيناً سبق تصوره وسبق تقريره مرة إلى الأبد، سواء في الفنادق أو في

النزهات أو في الاجتماعات أو في الأسفار... ولكن الجنرال قد أفلت من لسانه أن هناك ظروفاً تضطره «إلى الظهور بمظهر خاص». فلذلك شعر فجأة بذلك الخوف كله، وغير اللهجة التي كان يخاطبني بها. وقد لاحظت ذلك ووعيته. إنه أجبن من أن يلجأ إلى السلطات، وعليّ أن أعمل في روية وحذر.

على أنني لم تكن بي أي شهوة إلى إغضاب الجنرال. إن باولين هي من كنت أتمنى الآن لو أحنقه. لقد بلغت من القسوة في معاملتي، ودفعتني في طريق بلغ من السخف أنني أصبحت أرغب في حملها على أن ترجوني هي نفسها أن أتوقف... إن الأعمال الصبيانية التي قد أقوم بها يمكن أن تسيء إلى سمعتها هي أيضاً. ثم إن إحساسات جديدة ورغبات جديدة قد نبتت في نفسي: فلئن تلاشيت أمامها بإرادتي، مثلاً، فإن ذلك لم يكن يعني أبداً أنني إزاء الآخرين كدجاجة مبللة، وليس الأمير حتماً من كان عليه أن يؤدبني «بالعصا». كنت أريد أن أسخر من جميع هؤلاء الناس، وأن أخرج من ذلك بأمجاد الحرب. لسوف يرون. ولا شيء يُخشى منه! وهبها لم تستدعني، فلسوف ترى على كل حال أنني لست بالدجاجة المبللة...

وهذا نبأ مدهش: لقد علمت منذ لحظة من خادمة الأولاد التي صادفتها على السلم أن ماري فيليبوفنا سافرت اليوم وحدها إلى ابنة عمتها بكارلسباد في قطار المساء. ما معنى هذا؟ وقالت الخادم إن ماري فيليبوفنا كان في نيتها أن تسافر منذ زمن طويل. فكيف لم يعلم أحد بشيء من هذا؟ على كل حال، قد أكون الشخص الوحيد الذي كان يجهل الأمر. وقد أفهمتني الخادم أن ماري فيليبوفنا قد قامت بينها وبين الجنرال مشاحنة عنيفة أول أمس. فهمت. لا شك أنها... مدموازيل بلانش. نعم: إن شيئاً حاسماً يهم أن يقع.

الفصل السابع

في هذا الصباح استدعيت خادم الفندق وطلبت إليه أن يجعل حسابي مستقلاً. ولم يكن أجر غرفتي بالأجر الباهظ حتى أخاف فأترك الفندق نهائياً. كان معي ستة عشر فردريكاً... وهناك... هناك... ربما كانت تنتظرني ثروة! شيء غريب: لم أكن قد ربحت بعد، ولكنني أتصرف وأحس وأفكر كما لو كنت رجلاً غنياً، ولم يكن في وسعي أن أرى نفسي غير ذلك.

كنت أنوي، رغم بكرة الصباح، أن أذهب حالاً إلى مستر آستلي الذي كان يقيم في «فندق إنجلترا» القريب من فندقنا كل القرب؛ فإذا أنا أرى دي جريو داخلاً إلى غرفتي على حين فجأة. لم يكن قد حدث هذا قبل اليوم قط، وأكثر من ذلك أن صِلاتي بهذا السيد قد أصبحت في الآونة الأخيرة كلها بعيدة كل البعد متوترة أشد التوتر. حتى لقد أصبح لا يكفيه أن لا يخفي استخفافه بي واحتقاره لي، بل أصبح كذلك يحاول إعلان ذلك جهاراً... أما أنا... فكان لي من الدواعي ما يجعلني لا أحبه؛ حتى ليمكن أن أقول إنني كنت أكرهه كرهاً. لذلك أدهشني مجيئه كثيراً، وسرعان ما أدركت أن شيئاً خاصاً غير مألوف كان يحدث.

كان لطيفاً معي كل اللطف، وأخذ يطري غرفتي؛ فلما رآني أحمل قبعتي بيدي أدهشه أن أخرج للنزهة في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح. فقلت له إنني كنت ذاهباً إلى مستر آستلي لبعض الأعمال، فشرد لحظة، وعبر وجهه عن همّ شديد.

كان دي جريو رجلاً كسائر الفرنسيين، أي إنساناً دمثاً مرحاً متى وجب عليه أن يكون كذلك ومتى كان ينفعه أن يكون كذلك، ولكنه إنسان ممل مضجر إلى حد لا يُطاق متى زالت الضرورة التي كانت تحمله على أن يكون دمثاً مرحاً. إن الفرنسي قلما يكون لطيفاً محبباً من

أول اندفاعة، وإنما هو لطيف محبب على نظام مرسوم، وبحساب مدروس. فإذا رأى مثلاً أن من الضرورة أن يخرج على المألوف، وأن يركب هواه، وأن يشذ عن القاعدة، وأن يتفرد في السلوك، رأيت أشد ألوان الشذوذ إغراقاً في العجب تكتسي لديه أشكالاً مقررة مقبولة من قبل، شائعة مبذولة من زمان بعيد. أما إذا ترك نفسه على سجيتها الطبيعية فهو إنسان وضعي، بورجوازي، تافه، لا طعم له؛ هو على وجه الإجمال أكثر من على وجه الأرض إملالاً وإضجاراً. وفي رأيي أن الأغرار وحدهم، ولا سيما الفتيات الروسيات، هم الذين يمكن أن يفتنهم الفرنسيون. وما من إنسان حصيف إلا ويلاحظ ثم يكره رأساً تلك السلسلة المتكررة من الأشكال الثابتة التي يصطنعها الفرنسيون لطفاً في الصالونات، وطلاوة في الحديث، ومرحاً في الحركة.

بدأ الكلام منطلِق الحركة ولكن على لباقة وأدب:

– إنما جئتك اليوم لعمل. لا أكتمك أنني موفد إليك من الجنرال سفيراً أو وسيطاً. إنني لم أكد أفهم شيئاً من الحديث الذي جرى بينك وبين الجنرال أمس، لأنني أسيء معرفة اللغة الروسية جداً، ولكن الجنرال شرح لي كل شيء تفصيلاً؛ وأنا أعترف...

فقاطعته قائلا:

– اسمع يا سيد دي جريو... ها أنت ذا، في هذه القضية أيضاً، تقوم بدور الوسيط. أنا لست إلا معلماً، ولم أزعم لنفسي يوماً شرف وجود صداقة حميمة بيني وبين هذا البيت، ولا شرف وجود علاقات وثيقة خاصة تربطني به، ولذلك فإن هناك ظروفاً أجهلها. ولكن هلا قلت

لي شيئاً: أأنت قد أصبحت الآن واحداً من الأسرة على وجه التمام؟ ذلك أنني أرى أنك تبلغ من الاهتمام بهذه الأمور جميعها أنك تطرح نفسك وسيطاً في كل شأن...

ساءه سؤالي. إنه سؤال مسرف في الشفافية؛ والرجل لا يريد أن يكشف أمره.

قال في جفاء وخشونة:

– تربطني بالجنرال أعمال من جهة، وظروف خاصة من جهة أخرى. وقد أوفدني إليك الجنرال لأرجوك أن تعدل عما كنت تنويه أمس. إن كل ما تخيلته شيء ظريف طبعاً. ولكن الجنرال يرجوني أن ألفت نظرك إلى أنك لن تصل إلى أية نتيجة. وأكثر من ذلك... أن البارون لن يستقبلك وهو يملك على كل حال جميع الوسائل التي تمكنه من تجنب ما قد يجيئه منك من إزعاجات. اعترف بهذا أنت نفسك. ففيم العناد إذن؟ والجنرال يعدك بأن يستردك متى سمحت الظروف بذلك، ويتعهد بأن يحتفظ لك حتى ذلك الحين بمرتباتك. ألا ترى أن العرض مربح؟

فأجبته بلهجة هادئة كل الهدوء أنه مخطئ قليلاً، وأن البارون قد لا يطردني، بل سيصغي إلى كلامي. ورجوته أن يعترف بأنه إنما جاء إليّ الآن ليعرف ما عساني فاعلاً على وجه الدقة!

قال:

– ما دام الجنرال مهتماً بالأمر هذا الاهتمام فإنه ليسرّه طبعاً أن يعرف ما سأقوم به؛ فذلك أمر طبيعي.

فأخذت أشرح، وأخذ يصغي، مسترخياً على مقعده، مائلاً برأسه قليلاً نحوي، وفي عينيه شعاع من استهزاء لا يخفيه؛ أي كان يعاملني بكثير من الاستعلاء. حاولت ما وسعني ذلك أن أتظاهر بأنني أعد هذه القضية على جانب عظيم من الخطورة. قلت إن البارون، حين شكاني إلى الجنرال كما لو كنت خادم هذا الجنرال، قد خفض من شأني أولاً. وإنه، ثانياً، قد عاملني معاملة شخص لا يمكن أن يكون مسؤولاً عن أفعاله، بل ولا يستحق أن يخاطب. فلقد أُلحقت بي إذن إهانة كبيرة. ومع ذلك، فإنني، نظراً إلى فارق السن والمركز الاجتماعي، إلخ، إلخ (لم أكد أستطيع أن أحبس نفسي عن الضحك حين قلت هذه الجملة الأخيرة)، لن أندفع إلى ارتكاب عمل طائش جديد، أي أنني لن أطالب البارون صراحة، بل ولا أن أعرض عليه أن يصلح ما أفسد. ومهما يكن من أمر فأنا أرى أن من حقي تماماً أن أعتذر إليه (وأن أعتذر إلى البارونة خاصة)، لا سيما وأنني أشعر حقاً في هذه الأيام الأخيرة بأنني مريض مهدم النفس غريب الأطوار إن صح التعبير، إلخ، إلخ. غير أن البارون نفسه، إذ قام بذلك العمل الذي ألحق بي الإهانة، وأصرّ على الجنرال أن يفصلني من عملي، قد وضعني في موقف أصبح يستحيل عليّ معه أن أعتذر إليه وأن أعتذر إلى البارونة، لأنني لو فعلت لظن هو ولظنت البارونة ولظن جميع الناس، بدون أي شك، أنني إنما جئت أعتذر إليه خوفاً وطمعاً في العودة إلى عملي. وينتج عن هذا كله أنني أجد نفسي الآن مضطراً أن أرجو البارون أن يعتذر هو إليّ أولاً، وذلك بعبارات معتدلة إلى أبعد حدود الاعتدال، كأن يقول مثلاً إنه لم يشأ أبداً أن يهينني. فإذا وافق البارون على طلبي هذا، يكون قد أطلق يدي من عقالها، فاعتذرت إليه صادقاً من أعماق القلب.

وختمت كلامي قائلاً: إن كل ما أطلبه هو أن يطلق البارون يدي من عقالها.

– هه... يا لها من حساسية! ويا لها من حذاقات! لماذا تعتذر؟ هيا اعترف، يا مسيو...، يا مسيو... أنك دبرت هذه المكيدة كلها لإزعاج الجنرال... وربما كانت لك أهداف شخصية يا مسيو... يا مسيو... اعذرني لقد نسيت اسمك... مسيو ألكسي، أليس كذلك؟

– ولكن اسمح لي يا عزيز المركيز، فيم يعنيك هذا الأمر؟

– وفيم يضير الجنرال هذا؟ لقد قال لي أمس أنه مضطر أن يظهر بمظهر ما... إنني لم أفهم شيئاً.

– هنا إنما يكمن ظرف خاص...

كذلك أجاب دي جريو بلهجة ضارعة متوسلة تشف شيئاً فشيئاً عن مزيد من الغضب.

– أنت تعرف مدموازيل دي كومانج؟

– تقصد مدموازيل بلانش؟

– نعم، مدموازيل بلانش دي كومانج... والسيدة والدتها... إنك تسلم أنت نفسك أن الجنرال... أعني... أن الجنرال مغرم بها... حتى أن... حتى أن... الزواج قد يتم هنا. فتخيل الفضائح والمشاكل في هذه المناسبة!...

– لست أرى لا فضائح ولا مشاكل فيما يتعلق بهذا الزواج.

– ولكن البارون رجل شديد الغضب سريع التأثر: طبع بروسي، كما تعلم؛ ولسوف يثير الأمر شجاراً كما يثيره ألماني...

– سيكون هذا شأني أنا، لا شأنكم أنتم، لأنني لست بعد الآن واحداً من المنزل (كنت أحاول أن أتغابى إلى أقصى حد ممكن). ولكن اسمح لي: لقد تقرر الأمر على هذا النحو: مدموازيل بلانش تتزوج الجنرال. فماذا ينتظرون إذن؟ أقصد: لماذا يخفون الأمر، لماذا يخفونه عنا على الأقل، نحن أهل البيت؟

– لا أستطيع أن... على كل حال... ليس هناك شيء حاسم بعد... مع ذلك... أنت تعلم أنهم ينتظرون أخباراً من روسيا. يجب أن يرتب الجنرال أموره..

– ها... ها... الجدة العزيزة..

رشقني دي جريو بنظرة كارهة مبغضة، وقال يقاطعني:

– إنني أعتمد اعتماداً قوياً على رهافتك التي فطرت عليها، أعتمد على ذكائك وذوقك... ويقيني أنك ستفعل ذلك في سبيل هذه الأسرة التي استُقبلت فيها استقبال قريب معزز مكرّم...

– اسمح لي... لقد طردوني. إنك تذهب الآن إلى أن المسألة مسألة شكل، ولكن لا بد أن تسلم معي بأنه إذا قال لك أحد الناس: «أنا لا أريد طبعاً أن أشدك من أذنيك، ولكن اسمح لي أن أشدك من أذنيك مراعاة للشكل» لا بد أن تسلم معي بأن الأمرين واحد.

قال بلهجة مستعلية متغطرسة:

– إذا كان الأمر كذلك، إذا كان لا يجدي فيك أي رجاء، فدعني أؤكد لك أن إجراءات ستُتخذ. إن في البلد سلطات مسؤولة، ولسوف تُطرد في هذا اليوم نفسه... أمر عجيب... أفتى غرّ مثلك يريد أن يطلب للنزال شخصية في مثل منزلة البارون؟!... ثم تظن أنهم سيدعونك وشأنك! ثق تمام الثقة أن أحداً لا يخشاك هنا! ولئن قدمت إليك ذلك الرجاء، لقد فعلت هذا من تلقاء نفسي، لأنك أقلقت الجنرال. كيف تستطيع أن تتصور أن البارون لن يطردك بمجرد أمر بسيط يلقيه إلى خادم؟

قلت هادئا كل الهدوء:

– ولكنني لن أذهب إلى البارون بنفسي. أنت مخطئ يا مسيو دي جريو. إن الأمور ستجري على غير هذا النحو الذي تصوره خيالك. سوف أذهب تواً إلى مستر آستلي أرجوه أن يكون وسيطي، أي بإيجاز، أن يكون معاوني. إن هذا الرجل يشعر بمحبة نحوي. فلن يرفض طلبي حتماً. سيمضي إلى البارون، وسيستقبله البارون. لئن كنت أنا معلماً، ولئن ظهرت بمظهر المرؤوس الخاضع لغيره العاجز عن الدفاع عن نفسه، فإن مستر آستلي هو ابن أخ لورد من اللوردات، لورد حقيقي؛ جميع الناس هنا يعرفون ذلك؛ إنه اللورد بيبروك، وهو الموجود هنا الآن. ثق أن البارون سيكون مهذباً مع مستر آستلي، وأنه سيصغي إليه. وإذا لم يصغ إليه، فإن مستر آستلي سيعد ذلك إهانة لحقت بشخصه هو (وأنت تعرف مدى عناد الإنجليز)؛ فيرسل أحد أصدقائه إلى البارون، وإن له لكثيراً من الأصدقاء. هل ترى الآن كيف أن الأمر قد ينحل على غير الصورة التي تخيلتها؟

جزء الفرنسي حقاً. والواقع أن هذا كله كان قريباً من الحقيقة؛ وكان يبدو عليّ إذن أنني قادر فعلاً على أن أقوم بفضيحة.

فعاد يقول بلهجة متوسلة:

– أرجوك... دعك من كل هذا! لكأنه يسرك أن تثير فضيحة! لكأنك لا تنشد إصلاح ما فسد من الأمر، بل تنشد فضيحة. قلت لك إن هذا كله قد يصبح مثار تسلية وتفكه، ولعلك محقق هذا الهدف... ولكن...

هنا لاحظ أنني أنهض وأتناول قبعتي فختم يقول:

– لقد جئت إليك بكلمة من شخص... فاقرأها... وقد رُجيت أن أنتظر الجواب.

قال هذا وسلّ من جيبه ورقة صغيرة مطوية مختومة، فمدها إلي. كانت الورقة من باولين، كتبت فيها بخط يدها ما يلي:

«سمعت أنك تنوي متابعة هذه القصة. أنت زعلان، وقد بدأت تلعب لعب الصبية. غير أن هناك ظروفاً خاصة، قد أشرحها لك يوماً، فرجائي إليك أن تتوقف وأن تعقل. ما أسخف هذا كله! أنا في حاجة إليك، وقد وعدتني بأن تطيعني. هل تتذكر جبل «شلانجنبرج»؟ أطلب إليك أن تكون طيّعاً، بل آمرك أمراً إذا لزم».

المخلصة لك ب

حاشية: «إذا كنت حانقاً عليّ بسبب ما حدث أمس، فسامحني».

رأيت كل شيء يرقص وأنا أقرأ هذه الأسطر. اصفرت شفتاي وأخذت أرتعش. تظاهر الفرنسي الملعون بقلة الانتباه، وحوّل عينيه عني كمن لا يريد أن يرى اضطرابي. كنت أؤثر لو ينفجر ضاحكاً أمام أنفي. قلت:

– حسن. قل للآنسة أن تهدأ وأن تطيب بالًا.

ثم ما لبثت أن أردفت أقول فجأة:

– ولكن اسمح لي... لماذا انتظرت هذا الانتظار كله حتى تعطيني هذه الورقة؟ كان في وسعك أن تبدأ بإعطائي هذه الورقة، بدلاً من قول تلك السخافات كلها، إذا كنت قد جئت للقيام بهذه المهمة.

– كنت أريد... على كل حال... إن هذا الأمر كله يبلغ من الغرابة أن عليك أن تعذر ما رأيته من نفاذ صبري... وهو طبيعي. لقد كنت أريد أن أعرف، بأقصى سرعة، من فمك نفسه، ما كنت تضمر من نيات. وأنا أجهل على كل حال ما تتضمنه هذه الورقة، فقدرت أن في الوقت متسعاً لإعطائك إياها.

– فهمت الآن. كل ما في الأمر أنهم أمروك بأن لا تعطيني الورقة إلا عند الضرورة، وأن لا تستعملها إذا أنت استطعت أن تدبر المسألة بالنصح. أليس كذلك؟ أجبني بصراحة يا مسيو دي جريو!

قال وهو يصطنع أقصى التحفظ، وينظر إليّ نظرة غريبة:

– ربما...

تناولت قبعتي؛ وحياني بحركة من رأسه؛ وخرج. يُخيل إليّ أنني رأيت على شفتيه ابتسامة ساخرة. وكيف يمكن أن لا يكون الأمر كذلك؟

دندنت وأنا أهبط السلم:

– ما يزال بيننا حساب يا أيها المتطرف... ولسوف نعرف من يكون غالباً ومن يكون مغلوباً.

كنت ما أزال عاجزاً عن جمع شتات فكري. كان يتراءى لي أنني كمن تلقى على رأسه ضربة مطرقة. ولكن الهواء النقي الطري أحسن إليّ.

فبعد دقيقتين، منذ أصبحت قادراً على التفكير عرضتْ لذهني فكرتان واضحتان: الأولى أن تسلية صبيانية، وتهديدات خيالية قالها أمس في الهواء فتى غرّ، قد أثارت ذعراً شاملاً، والثانية: ما أعظم ما لهذا الفرنسي إذن من نفوذ على باولين! كلمة واحدة منه تحملها على أن تفعل ما هو في حاجة إليه، فتكتب رسالة، وتمضي إلى حد أن ترجوني. صحيح أن العلاقات بينهما كانت دائماً لغزاً في نظري. ولكنني لاحظت في الأيام الأخيرة أنها أصبحت تنفر منه نفوراً قوياً، بل تحتقره احتقاراً. أما هو فكان لا يلتفت إليها ولا يلقي عليها نظرة، وكل ما في الأمر أنه كان فظاً معها. وكنت أنا ألاحظ ذلك. حتى لقد أقرت لي باولين باشمئزازها منه، وأفلتت من لسانها اعترافات بليغة الدلالة إلى أقصى الحدود... فهو إذن قابض عليها بيده، وهي إذن خاضعة لسيطرته..

الفصل الثامن

في «النزهة»، كما يقال هنا، أي في الطريق الذي تصطف على حافتيه أشجار الكستناء، التقيت بصاحبي الإنجليزي.

صاح إذ لمحني يقول:

– أوه! أوه! أنا ذاهب إليك، وأنت آت إليّ! إذن فقد تركت أصحابك؟

فسألته مدهوشاً:

– قل لي أولاً كيف اطّلعت على هذا كله. أجميع الناس على علم إذن بالأمر؟

– لا... ليس جميع الناس... فالمسألة لا تستحق... وما من أحد يتكلم فيها.

– فكيف تعلم بها إذن؟

– أعلم بها، أو قل لقد أتيح لي أن أعلم بها عرضاً. إلى أين أنت الآن ذاهب؟ إني أحمل لك شعوراً بالصداقة، لذلك كنت ذاهباً إليك.

قلت وقد تملكتني الدهشة من اطّلاعه على المسألة:

– أنت رجل شهم يا مستر آستلي؛ وإذ إنني لما أشرب قهوتي بعد، وإذ إنك لم تتناول في أغلب الظن إفطارك، فهيا بنا إلى الكازينو. وسندخن هناك، فأقصّ عليك كل شيء... وربما رويت لي شيئاً أنت أيضاً...

كان المقهى على مسافة مائة متر... شربنا، وجلسنا جلسة مريحة، وأشعلت أنا سيجارة. وكان مستر آستلي لا يدخن، وها هو ذا يثبت نظره فيّ متهيئاً للإصغاء إلى حديثي. بدأت الكلام بقولي:

– لن أسافر إلى أي مكان. سأبقى هنا.

– كنت موقناً أنك باقٍ.

كذلك قال مستر آستلي بلهجة التحبيذ والتأييد.

حين كنت ذاهباً إلى مستر آستلي لم يكن في نيتي أبداً أن أحدثه عن حبي لباولين. بل لقد كنت أريد أن أتجنب هذا الموضوع. ولم أكن طوال تلك الأيام الأخيرة قد نبست بكلمة واحدة في هذا الشأن. ثم إنه إنسان خجول جداً. وكنت قد لاحظت الأثر القوي الذي تحدثه باولين في نفسه، ولكنه لم ينطق باسمها في يوم من الأيام. شيء غريب عجيب: منذ جلس مستر آستلي وثبت فيّ نظرته الكابية الملحاح، شبت بي، لا أدري لماذا، رغبة عنيفة في أن أروي له كل شيء، أي أن أحدثه عن حبي كله بجميع ما يشتمل عليه من ألوان. فإذا أنا أتكلم نصف ساعة تماماً، وإذا أنا أحس من ذلك بارتياح عظيم: تلك أول مرة أفتح فيها نفسي لأحد في هذا الأمر. وإذ لاحظت أنه كان يضطرب حين أصل من حديثي إلى فقرات حارة، فقد زدت حرارة قصتي عامداً. شيء واحد أندم عليه: لعلني أسرفت في الكلام على الفرنسي.

كان مستر آستلي يصغي إليّ جالساً أمامي، ساكناً لا ينطق بكلمة ولا يتفوّه بحرف، مثبتاً عينيه في عيني، ولكن حين ألمت إلى الفرنسي، استوقفني فجأة وسألني بلهجة قاسية هل يحق لي أن

أذكر هذا الظرف الثانوي. لقد كان لمستر آستلي دائماً طريقة عجيبة جداً في إلقاء الأسئلة. قلت:

– إنك على حق. أخشى أن لا يكون لي هذا الحق.

– عن هذا المركيز وعن الآنسة باولين لا تستطيع أن تقول شيئاً معينا دقيقا إلا على سبيل الافتراض؟

– نعم، لا شيء معيناً دقيقاً... هذا أكيد.

– فإذا كان الأمر كذلك فقد أخطأت، لا حين حدثتني في هذا فحسب، بل حين فكرت فيه أيضاً.

فقاطعته أقول وقد شعرت بدهشة بيني وبين نفسي:

– طيب. طيب. موافق.

ثم قصصت عليه قصة الأمس بحذافيرها: نزوة باولين، مغامرتي مع البارون، طردي من عملي، ما أظهره الجنرال من جبن خارق؛ وحكيت له أخيراً زيارة الفرنسي تفصيلاً، وختمت القصة بإظهاره على الورقة التي أرسلتها إليّ باولين. ثم سألته:

– فماذا تستنتج من ذلك؟ إنما جئت إليك لأسألك رأيك. أما أنا فلا مانع عندي من قتل هذا الفرنسي الصغير المتطرف، ولعلني فاعل ذلك.

قال مستر آستلي:

– وأنا أيضاً. أما عن الآنسة باولين... فأنت تعلم أننا نعقد صِلات حتى بأناس نكرههم، إذا قادتنا الضرورة إلى ذلك. فقد يكون هنالك صلات تجهلها، صلات لها علاقة بظروف ثانوية طارئة. فتستطيع أن تطمئن نفسك من هذه الناحية... بعض الطمأنينة طبعاً... وأما عن نزوتها أمس فهي غريبة واضحة الغرابة، لا لأنها أرادت أن تتخلص منك بإرسالك إلى عصا البارون (وإني لأستغرب حقاً أنه لم يستعمل العصا وقد كانت في يده) بل لأن نزوة كهذه من فتاة مرموقة مثلها... هي نزوة تعوزها الحشمة... وأغلب الظن أنها ما كانت تقدّر أنك تنفّذ هذه الرغبة الخبيثة حرفاً حرفاً...

هتفت فجأة أقول وأنا أتفرس في مستر آستلي:

– هل تعرف؟ أحس أنك قد سمعت هذه القصة كلها. هل تدري ممن؟ من الآنسة باولين نفسها؟!

فنظر إلى مستر آستلي مندهشاً. ثم سرعان ما استرد هدوءه فقال:

– عيناك تلتمعان، وإني لأرى فيهما الاشتباه. وليس لك أن تدع لشبهاتك أن تظهر. إنني لا أعترف لك بهذا الحق، وأرفض رفضاً قاطعاً جازماً أن أجيب عن سؤالك.

– طيب. دعنا من هذا. وما هو بالأمر المفيد على كل حال...

هكذا صحت وقد أخذني اضطراب شديد، ولم أفهم كيف خطر ببالي هذا. ثم متى وأين وكيف كان يمكن أن تكون باولين اختارت مستر آستلي نجياً لها تفضي إليه بأسرارها. ثم أنه في هذه الأيام الأخيرة كان مستر آستلي قد غاب عن عيني تماماً. أما باولين فلقد كانت لغزاً

يحير عقلي دائماً، حتى أنني الآن، مثلاً، حين قررت أن أحكي لمستر آستلي قصة حبي كلها فوجئت لحظة شرعت في رواية القصة بأنني أكاد أعجز عن أن أذكر أي شيء دقيق واضح محدد عن صلاتي بها. بالعكس: كان كل شيء أقرب إلى الخيال، غريباً، مهلهلاً، مفككاً، لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء.

قلت وأنا أكاد ألهث:

– طيب. طيب. لقد خرجت عن الموضوع، وفقدت تسلسل الكلام... هناك أشياء أخرى كثيرة لا أقدر الآن أن أفكر فيها... ومهما يكن من أمر، فأنت إنسان شهم: وسأسألك الآن لا نصحاً، بل رأياً.

وصمتت لحظة ثم أردفت أقول:

– ما السبب الذي جعل الجنرال يخاف ذلك الخوف كله، في نظرك؟ لماذا جعلوا من ذلك العمل الصبياني المضحك الذي عملته مأساة خطيرة، حتى بلغوا من ذلك أن دي جريو نفسه وجد أنه لا بد أن يتدخل في الأمر (وهو لا يتدخل إلا في أخطر الظروف شأناً)، فجاء إليّ (نعم!)، وأخذ يرجوني، ويتضرع إلي، هو، دي جريو!... لاحظ أخيراً أنه جاءني قبيل الساعة التاسعة، وكانت ورقة الآنسة باولين معه. فمتى كتبت تلك الورقة؟ للمرء أن يسأل نفسه هذا السؤال. أتراهم أيقظوا الآنسة باولين من نومها خصيصاً لهذا الغرض؟ إنني، عدا كوني أستنتج من ذلك أن الأنسة باولين مستعبدة له (ما دامت تسألني أنا الصفح والمغفرة)، أتساءل: ما شأنها هي في هذا الأمر كله؟ ما معنى شدة اهتمامها به؟ لماذا خافوا من أول بارون يظهر لهم؟ وما عسى أن يكون لهذا كله من علاقة بزواج الجنرال ومدموازيل بلانش؟ هم

يقولون إن على الجنرال أن يظهر بمظهر خاص، بسبب هذا الظرف؛ ألا إنه لمظهر خاص أكثر مما يجب. ألا توافقني على ذلك؟ ما رأيك أنت؟ إني لأقرأ في عينيك أنك هنا أيضاً تعرف من الأمر أكثر مما أعرف.

ابتسم مستر آستلي وهز رأسه، ثم قال:

– نعم. أعتقد فعلاً أنني، في هذا الموضوع أيضاً، أعرف أكثر كثيراً مما تعرف. إن القضية كلها لا تتعلق إلا بمدموازيل بلانش، وأنا على يقين بأن هذه هي الحقيقة المطلقة.

صحت أقول نافذ الصبر (وقد أمّلت فجأة أن أعرف شيئاً عن الآنسة باولين):

– ما شأن مدموازيل بلانش هنا؟

– أعتقد أن للآنسة بلانش الآن مصلحة خاصة في أن تتحاشى، بأية طريقة، أي لقاء مع البارون أو البارونة، فكيف إذا كان لقاء مزعجاً، وكيف إذا كان لقاء فاضحاً؟

– دعك من هذا...

– إن الآنسة بلانش كانت هنا في رولتنبرج، منذ سنتين، أثناء الموسم. واتفق أن كنت أنا أيضاً هنا. إن اسمها حينذاك لم يكن مدموازيل دي كومنج، ولم يكن لمدام/ أرملة كومنج وجود في ذلك الوقت. ولا كان دي جريو هناك أيضاً. وأنا مقتنع في قرارة نفسي لا بأنهم ليسوا أقرباء فحسب، بل بأنهم لم يتعارفوا إلا منذ وقت قصير. ليس دي جريو مركيزاً إلا من عهد قريب: هناك ظرف معين يجعلني على يقين من هذا؛ حتى ليمكن أن نفترض أنه لا يسمي نفسه دي جريو إلا منذ فترة. أعرف هنا شخصاً قابله باسم آخر.

– ومع ذلك فإن له حلقة متينة من العلاقات.

– أوه... هذا ممكن جداً. وإن مدموازيل بلانش نفسها يمكن أن تكون لها علاقات. ولكن مدموازيل بلانش هذه قد استدعتها الشرطة منذ سنتين، بناء على شكايات من هذه البارونة نفسها، وطلبت إليها مغادرة البلد، فغادرتها.

– كيف هذا؟

– لقد ظهرت أول الأمر هنا في صحبة رجل إيطالي، أمير ذي اسم تاريخي، باربيني... أو شيء من هذا القبيل، رجل تغطيه الخواتم ويغطيه الماس. كانا يتنزهان في عربة رائعة تخلب الألباب. وكانت مدموازيل بلانش تلعب «ثلاثين وأربعين»: ربحت في أول الأمر، ثم دار الحظ على ما أذكر؛ حتى لقد خسرت في ذات مساء مبلغاً خرافياً. ولكن الأنكى من هذا أن أميرها غاب في أحد الأصباح لا يدري أحد أين... وغابت الخيول، وغابت المركبة الفخمة، وغاب كل شيء. وكانت مدينة للفندق بمبالغ ضخمة. فكانت ترى مدموازيل زلما (استحال اسم دي باربيني إلى اسم مدموازيل زلما فجأة) في ذروة الألم واليأس، فهي تنتحب وتملأ الفندق نعاقاً وعياطاً، وتأخذ تمزق ثوبها وهي في سورة الحنق والغيظ. وكان أيامئذ في الفندق كونت بولوني (إن جميع البولونيين كونتات حين يكونون على سفر)، فلما رأى مدموازيل زلما تمزق ثيابها وتخدش وجهها بيديها الجميلتين المعطرتين، كما تفعل قطة، أحدثت في نفسه بعض التأثير، فجرى بينهما حديث، فما جاء موعد العشاء إلا وكانت زلما قد تأست عن حزنها؛ حتى إذا كان المساء ظهرت في الكازينو متأبطة ذراع الكونت البولوني؛ فكانت تضحك ضحكاً عالياً على عادتها، وأصبحت أكثر انطلاقاً على السجية في حركاتها، فسرعان ما أصبحت في

عداد تلك الزمرة من السيدات اللواتي اعتدن لعب الروليت، فإذا أرادت إحداهن أن تشق لنفسها طريقاً إلى مائدة القمار رأيتها تدفع أحد اللاعبين من منكبه لتتخذ لها مكاناً. هذه أناقة خاصة من أناقات السيدات هنا، لا بد أنك لاحظتها.

– نعم لاحظتها.

– والأمر لا يستحق ذلك. إن الناس يحتملوهن هنا على مضض، أو يحتملون على الأقل أولئك اللواتي يبدلن أوراقاً نقدية من ذات الألف فرنك. حتى إذا انقطعن عن تبديل الأوراق النقدية ذات الألف فرنك، أخذوا يرجونهن أن يبتعدن. وقد استمرت مدموازيل زلما تبدل أوراقاً نقدية من ذات الألف فرنك، ولكن حظها في القمار ساء مزيداً من السوء. لاحظ أن أمثال هاته السيدات كثيراً ما يحالفهن الحظ في اللعب، فإنهن يملكن السيطرة على أنفسهن. على أن حكايتي قد انتهت. ففي ذات يوم اختفى الكونت كما اختفى قبله الأمير. فجاءت زلما تقامر في المساء وحيدة، لم يتقدم إليها هذه المرة أحد بذراعه تتأبطها. فما انقضى يومان حتى كانت قد خسرت كل ما كانت تملك، ولما قامرت بآخر ليرة ذهبية فخسرتها، نظرت حولها فرأت البارون فورمرهلم يتأملها بانتباه وقد ظهر في وجهه استياء عميق؛ لكن مدموازيل زلما لم تميز الاستياء، فاتجهت إلى البارون بابتسامة لا لبس فيها، راجية منه أن يضع من أجلها عشرة ليرات ذهبية على الأحمر. وبعد ذلك، على أثر شكاية قدمتها البارونة، طلب من مدموازيل زلما أن لا تظهر بعد ذلك اليوم في الكازينو. فإذا كان يدهشك أنني أعرف جميع هذه التفاصيل التافهة، فاعلم أنني اطلعت عليها من مستر فيدر، وهو قريب من أقربائي اصطحب مدموازيل زلما في ذلك المساء نفسه إلى «سبا» بمركبته. فافهم الموضوع إذن: إذا

كانت مدموازيل بلانش تريد أن تصبح زوجة جنرال فأغلب الظن أنها تريد ذلك حتى لا يطلب إليها بعد الآن طلب كذلك الطلب. لقد أصبحت لا تقامر، ولكن ذلك يرجع إلى أنها تملك الآن، كما تدل على هذا جميع القرائن، رأس مال تقرضه للمقامرين هنا بفائدة. ذلك أقرب إلى العقل وأدنى إلى الحكمة. وفي ظني أن الجنرال المسكين واحد من المدينين لها. ولعل دي جريو يدين لها بمال أيضاً... اللهم إلا أن يكون شريكها. فافهم إذن لماذا لا تتمنى مدموازيل بلانش، على الأقل إلى أن يتم الزواج، أن تلفت إليها انتباه البارون والبارونة. إن الأمر أمر فضيحة يمكن أن تسيء إليها أكثر مما يمكن أن يسيء إليها أي شيء آخر في الظرف الذي هي فيه الآن. إنك ملحق بأسرتهم، ويمكن لأفعالك أن تثير فضيحة، لا سيما وأنها تظهر كل يوم أمام الناس متأبطة ذراع الجنرال أو ذراع الآنسة باولين. فهل فهمت الآن؟

– كلا... لم أفهم...

بهذا صحت وأنا أضرب المنضدة بيدي ضربة قوية جعلت خادم المقهى يهرع مذعوراً.

وأردفت أقول وأنا في سورة شديدة من الغيظ والحنق:

– فإذا كنت، يا مستر آستلي، تعرف حق المعرفة من هي مدموازيل بلانش دي كومانج، فكيف لم تحذرنا، لا أنا، ولا الجنرال، ولا الآنسة باولين خاصة، التي تظهر هنا في الكازينو على مرأى من جميع الناس متأبطة ذراع مدموازيل بلانش؟ أهذا ممكن؟

فأجاب مستر آستلي هادئاً:

– لم يكن في وسعي أن أحذركم، إذ لم يكن في وسعكم أن تفعلوا شيئاً. ثم مما أحذركم؟ لعل الجنرال يعرف من أمر مدموازيل بلانش أكثر مما أعرف، ثم لا يمنعه ذلك من أن يتنزه معها ومع الآنسة باولين. إن الجنرال إنسان سيئ الحظ. لقد رأيت مدموازيل بلانش بالأمس تعدو على حصان رائع في صحبة مسيو دي جريو والأمير الروسي القصير، ورأيت الجنرال يتبعهم على فرس أشهب. كان قد شكا في الصباح من ألم في ساقيه، وها هو ذا الآن يمتطي صهوة الفرس مع ذلك. فخطر ببالي في تلك اللحظة على حين فجأة أن الجنرال رجل ضاع إلى الأبد، أضف إلى ذلك أن هذا الأمر كله لا يعنيني في شيء، وأنا لم أُشرّف بمعرفة الآنسة باولين إلا منذ فترة قصيرة.

صمت مستر آستلي، ولكنه لم يلبث أن أردف يقول فجأة:

– ثم إنني قد سبق أن أعلنت لك أنني لا أخوّلك حق إلقاء بعض الأسئلة عليّ، رغم ما أحمله لك من صداقة مخلصة..

قلت وأنا أنهض:

– يكفيني هذا. إنني أرى الآن رؤية واضحة أن الآنسة باولين تعرف هي أيضاً ما تريد أن تعرفه عن مدموازيل بلانش، لكنها لا تستطيع أن تنفصل عن الفرنسي، وهي من أجل ذلك إنما ترضى أن تتنزه معها. ثق أنه ما من نفوذ آخر كان يمكن أن يجبرها على التنزه مع مدموازيل بلانش، وعلى أن تضرع إليّ في رسالة تكتبها بخط يدها أن لا أمسّ البارون. هنالك إنما تدخَّل هذا النفوذ الذي ينحني أمامه كل شيء! ومع ذلك، فإنها هي نفسها قذفتني نحو البارون! عجيب!... أمور لا يفهم المرء منها شيئاً...

– أنت تنسى أولاً أن هذه المدموازيل دي كومانج هي خطيبة الجنرال، وتنسى ثانياً أن للآنسة باولين، بنت زوجة الجنرال، أخاً وأختاً أصغر منها سناً، هما ولدا هذا الجنرال المجنون، وهما مهملان إهمالاً تاماً، ولا شك أنهما مدمَّرَيْن.

– نعم نعم، هذا صحيح؛ إن ترك هذين الولدين يعني هجرهما هجراً كاملاً؛ أما البقاء ففيه دفاع عن مصالحهما، وقد يكون فيه إنقاذ لبعض فتات من ثروتهما. نعم، نعم، هذا كله صحيح. ولكن مع ذلك... مع ذلك! أوه!. فهمت لماذا يهتمون جميعاً كل هذا الاهتمام بالجدة الآن!

– بمن؟

– بتلك العجوز الخرفة المقيمة بموسكو والتي لم تقرر أن تموت بعد. إنهم ينتظرون البرقية التي تبلغهم نبأ وفاتها.

– طبعاً. الاهتمام كله مُركز عليها. إن كل شيء متوقف على الوصية. فمتى فتحت الوصية تزوج الجنرال، وأصبحت باولين مطلَقة اليدين، واستطاع دي جريو...

– ماذا يستطيع دي جريو؟

– أن يسترد قروضه. ذلك كل ما ينتظره.

– أتعتقد أن هذا هو كل ما ينتظره؟

فأجاب مستر آستلي معتصماً بصمت عنيد:

– لا أعرف شيئاً غير ذلك.

قلت أكرر غاضباً حانقاً:

– أنا أعرف، أنا أعرف... إنه ينتظر الميراث أيضاً، لأن باولين ستحظى بمهر، فمتى حصلت عليه، ارتمت على عنقه. جميع النساء سواء. أكثرهن كبرياء يصبحن أحطهن عبودية! إن باولين لا تستطيع أن تحب إلا حباً قوياً، هذا كل شيء! ذلك هو رأيي! أنظر إليها، خاصة حين تكون جالسة وحدها تفكر: إنها تبدو كمن كتب عليه النحس، وكتبت عليه اللعنة، وكتب عليه أن يقاسي جميع مكاره الحياة والهوى الجامح!... إنها... إنها... ولكن من ذا يناديني (كذلك صحت فجأة)... من ذا يصرخ؟ (لقد سمعت من يصرخ باسمي بالروسية: ألكسي إيفانوفتش. إنه صوت امرأة). إسمع إسمع!

كنا في تلك اللحظة نقترب من فندقنا. لقد تركنا المقهى منذ مدة طويلة، دون أن نلاحظ ذلك تقريباً.

قال مستر آستلي وهو يمد إليّ يده:

– سمع ت صوت امرأة تصيح، ولكنني لا أعرف من كانت تنادي. كانت تتكلم بالروسية. والآن أرى من أين يأتي الصوت: إنها تلك المرأة، الجالسة على مقعد فخم حمله الآن هؤلاء الخدم الكثر إلى الشرفة. وها هم أولاء يحملون وراءها حقائب. إذن لقد وصل القطار.

– ولكن لماذا تناديني؟ ها هي ذي تستأنف المناداة: أنظر! إنها تومئ إلينا.

قال مستر آستلي:

– نعم، أرى.

– «ألكسي إيفانوفتش! ألكسي إيفانوفتش! أوه! رباه ما أغباه!»

كانت هذه الصيحات تصل إلينا من شرفة الفندق.

فركضنا حتى درجات المدخل تقريباً. فما أن اجترت فسحة السلّم حتى تهدلت ذراعاي من شدة الذهول، وحتى تسمّرت قدماي في الأرض لا تتحركان.

الفصل التاسع

على الفسحة العليا من السلّم العريض الذي نقلت إليه قاعدة يحيط بها الخدام والخادمات، ويحف بها ذلك العدد الذي لا يحصى من موظفي الفندق الذين يبالغون في إظهار آيات الاحترام بحضور مدير الفندق نفسه الذي جاء يستقبل هذه الزائرة ذات المكانة الرفيعة والمنزلة العالية، التي تنزل الفندق مع هذه الجلبة كلها ومع ناسها هؤلاء كلهم ومع هذه الأكوام الكبيرة من الحقائب والصناديق... كانت تتربع على عرشها... الجدة! نعم إنها بعينها آنطونين فاسيلفانا تراسفتش، الرهيبة، الثرية، البالغة من العمر خمسة وسبعين عاماً، صاحبة الأملاك، السيدة العظيمة من سيدات موسكو، مدار تلك البرقيات الذاهبة الآيبة، الميتة التي ما تزال حية، تنبجس الآن بيننا بشخصها دون سابق إنذار. لقد فقدت القدرة على استعمال رجليها، فهي تُحمل دائماً على مقعد، منذ خمس سنين، ولكنها ما تزال على عهدي بها نشيطة يقظى حادة اللسان معجبة بنفسها منتصبة الجذع عالية الصوت حين تتكلم، تصيح بلهجة الأمر، وتقرع جميع الناس، أي على عهدي بها تماماً حين شُرِّفت برؤيتها مرتين في الفترة التي عُيّنت فيها معلماً أو مربياً في منزل الجنرال. ولقد كان طبيعياً أن أقف أمامها متجمداً من الدهشة. كانت هي قد لمحتني حينما كانوا يصعدون بها على مقعدها درجات السلم. فعرفتني فنادتني باسمي الصغير ثم باسمي الأبوي، وكانت قد حفظتهما إلى الأبد بما عُرفت به من قوة الذاكرة. مر في خاطري هذا السؤال: «امرأة كهذه يأملون أن يروها في القبر ويعوّلون على ميراثها؟ ألا إنها لسوف تدفننا نحن وجميع من في هذا الفندق! رباه رباه ما عسى يحدث للآخرين الآن، ما عسى يفعل الجنرال! لسوف تقلب البيت فتجعل عاليه سافله!».

وتابعت الجدة تصرخ قائلة:

– هيه يا عزيزي... ما الذي دهاك حتى جمدت في مكانك هذا الجمود محملقا؟ ألا تعرف كيف تحييي؟ ألا تعرف كيف تقول صباح الخير؟ ألا تعرف؟ أم تراك أشد كبرياء وأشد زهواً من أن تفعل؟ أم تراك لم تعرفني؟ هل تسمع يا بوتابتش (كذلك تابعت كلامها وهي تلتفت نحو عجوز قصير أبيض الشعر، يرتدي لباساً رسمياً مع ربطة عنق بيضاء، ورأسه أصلع بلون الورد، إنه رئيس خدمها الذي يصحبها في الأسفار) هل تسمع يا بوتابتش، إنه لم يتعرفني! لقد دفنوني وانتهوا! كانوا يرسلون البرقية تلو البرقية يسألون: «هل ماتت؟ أما ماتت بعد؟». أنا أعرف كل شيء. وها أنت ذا ترى. إن الدم ما يزال يجري في عروقي!

قلت بلهجة مرحة حين ثبت إلى نفسي:

– عفوك يا يا أنطونين فاسيليفنا، فيم عساني أتمنى لك سوءاً... كل ما في الأمر أنني دُهشت... وكيف لا تصيبني الدهشة؟ إن وصولك أمر لا يُتوقع...

– وما الذي يدهشك؟... ركبت القطار وسافرت. وكان القطار مريحاً، فلا اهتزاز ولا ارتجاج. هل كنتَ في نزهة؟

– نعم قمت بجولة في الكازينو.

قالت الجدة وهي تنظر فيما حولها:

– يرتاح المرء هنا. الجو دافئ والأشجار رائعة! هذا ما أحبه! هل جماعتنا هنالك؟ الجنرال؟

– نعم هو في جناحه. إنهم يلتقون جميعاً هناك في هذه الساعة.

– ها... هنا أيضاً... يضبطون المواقيت ويراعون الأصول ويضعون القواعد. قيل لي إن لهم مركبة، هؤلاء السادة الروس! إنهم بعد أن أتلفوا ثروتهم، انسلوا إلى خارج البلاد. هل براسكوفيا معهم أيضاً؟

– نعم، باولين ألكسندروفنا هنا أيضاً؟

– والفرنسي القصير؟ ولكنني سأراهم جميعاً بنفسي. ألكسي إيفانوفتش، قدني إلى الجنرال. وأنت، أأنت هنا بخير؟

– لا بأس... يا أنطونين فاسيليفنا.

– أنت يا بوتابتش، قل لهذا الخادم الثقيل أن ينزلوني شقة مريحة، جميلة، في الطابق الأول؛ وليحملوا إليها متاعي على الفور. ولكن لماذا يسارعون جميعاً ليحملوني؟ ما الذي يدفعهم إلى هذه العجلة؟ يا لها من مذلة...

والتفتت إليّ مرة أخرى فسألتني:

– من هذا الرجل الذي معك؟

قلت:

– إنه مستر آستلي.

– من هو مستر آستلي؟

– مسافر من المسافرين أصبح لي نعمَ الصديق. وهو يعرف الجنرال أيضاً.

– هو إنجليزي. لذلك يتفرس فيّ دون أن يفتح فاه. على كل حال، أنا أحب الإنجليز. طيب انقلوني إلى فوق، قودوني فوراً إلى شقتهم. أين يقيمون؟

أُنهضت الجدة عن الأرض، وتقدمت أنا الموكب أصعد سلم الفندق العريض. كان موكبنا يخطف الأبصار. كان جميع من نصادفهم يتوقفون ويأخذون ينظرون بكل أبصارهم. إن فندقنا يُعدّ أجمل فنادق المدينة، وأغلاها سعراً، وأرفعها أرستقراطية. وأنت تلتقي دائماً على السلم، وفي الأروقة والممرات، بسيدات بارعات الحُسن، وإنجليز من ذوي المهابة والوقار. وقد مضى كثير من هؤلاء يسألون مدير الفندق عن هذه السيدة من تكون، وكان مدير الفندق نفسه مأخوذاً مفتوناً، فكان يجيب السائلين طبعاً بأنها أجنبية مرموقة من الطبقة الراقية، روسية، كونتيسة، سيدة عظيمة الشأن، وبأنها ستحتل الجناح الذي كانت تحتله منذ ثمانية أيام دوقة ن... العظيمة... إن القسمات الصارمة والملامح المسيطرة في الجدة المتربعة على عرشها هي التي كانت تجذب الانتباه خاصة. وكانت كلما صادفنا أحداً تُزنه بنظرته الفاحصة فوراً، ولا تني تلقي عليّ أسئلة عن جميع الناس بصوت عال. كان للجدة مزاج قوي، ورغم أنها لم تبارح كرسيها فإن المرء يحزر متى رآها أنها طويلة القامة. إنها تجلس منتصبة الجذع كحرف الألف لا تستند على الكرسي، وترفع رأسها الواسع عالياً، أبيض الشعر، سميك القسمات بارز الملامح. وهي تنظر إليك نظرة كبرياء بل ونظرة تحدّ. ولكنك تحس أن نظرتها وحركاتها طبيعية تماماً لا اصطناع فيها. ورغم الخمسة والسبعين عاماً، فإن في وجهها شيء من نضارة، وحتى أسنانها لم تكن قد ساءت حالها كثيراً. وكانت ترتدي ثوباً من حرير أسود، وتضع على رأسها قبعة صغيرة بيضاء.

قال لي مستر آستلي مدمدماً وهو يصعد السلم إلى جانبي:

– إنها تشوقني كثيراً...

قلت لنفسي: «إنها على علم بأمر البرقيات، وهي تعرف دي جريو، ولكنها ما تزال تجهل مدموازيل بلانش فيما يظهر». وسرعان ما أفصحت عن هذا لمستر آستلي.

أعترف، على خجل، أنني ما إن ذهبت عني دهشتي الأولى، حتى شعرت بابتهاج شديد واغتباط عظيم للضربة التي كنا ذاهبين نكيلها للجنرال بعد لحظة. وكان لهذا الشعور في نفسي أثر الحافز والدافع، فكنت أغذّ الخطى فرحاً كل الفرح.

كان أصحابنا قد اتخذوا مقرهم في الطابق الثالث. فلما وصلت فتحت الباب على مصراعيه دون إنذار ومن غير أن أطرقه، فدخلت الجدة دخولها المظفر. كانوا جميعاً هنالك، كأنما على عمد، قد التأم شملهم في حجرة الجنرال. وكان الوقت ظهراً، وكانوا ينوون، فيما يظهر، أن يقوموا بنزهة مشتركة، إما في المركبة وإما على ظهور الخيل. وكان هناك ضيوف أيضاً... كان في الحجرة، عدا الجنرال وباولين والأولاد وخادمتهم، دي جريو، ومدموازيل بلانش مرتدية تنورة الفارسات من جديد، وأمها مدام أرملة دي كومنج، والأمير القصير، وعالم ألماني كنت قد رأيته عندهم مرة.

قُدّم كرسي الجدة حتى صار في وسط الحجرة على بعد ثلاث خطوات من الجنرال. اللهم إني لن أنسى الأثر الذي أحدثه دخولنا ما حييت!... حين دخلنا كان الجنرال يحكي شيئا ما، وكان دي جريو يناقشه. يجب أن أذكر أن مدموازيل بلانش ودي جريو قد أصبحا منذ يومين

أو ثلاثة ملتفين حول الأمير القصير يحتفلان به أشد الاحتفال بحضور الجنرال المسكين. وكان الجمع قد اصطنع أسلوباً لعل فيه شيئاً من تكلف ولكنه مرح ودود حميم. فلما رأى الجنرال الجدة جمد فاغراً فاه على النصف من كلمة كان ينطق بها... وأخذ يحدق فيها جاحظ العينين كأن غولاً ظهر له فأذهله وفتنه عن نفسه. وكانت الجدة تتأمله أيضاً دون أن تنطق بكلمة، ولكن ما كان أعجبها نظرة ظافرة متحدية ساخرة! هكذا ظل الاثنان ينظر أحدهما في الآخر مدة عشر ثوان في صمت مطبق. وقد ذهل دي جريو أول الأمر، ولكنه لم يلبث أن ظهر في وجهه قلق شديد إلى أبعد حدود الشدة. أما مدموازيل بلانش فقد رفعت حاجبيها، وفغرت فاها، وراحت تتفرس في الجدة كالبلهاء. وكان الأمير والعالم يتأملان هذا المنظر متحيرين مرتبكين. وفي نظرة باولين كان يقرأ المرء دهشة عظيمة واضطراباً شديداً، ثم لم تلبث أن أصبحت بيضاء كالثلج على حين فجأة؛ وما هي إلا لحظة حتى عاد الدم يزدحم في وجهها فإذا خداها بلون الأرجوان حمرة. نعم لقد كان وصول الجدة كارثة للجميع! وكنت أنا لا أزيد على أن أنقل نظراتي بين الجدة وسائر الحضور. أما مستر آستلي فقد ظل، على عادته، متنحياً وقوراً هادئاً.

وانفجرت الجدة تقطع الصمت أخيراً فتقول:

– نعم... ها أنذا! لقد جئتكم بدل البرقية. ما كنتم تتوقعون مجيئي، أليس كذلك؟

– أنطونين فاسيليفنا... يا عمتي الطيبة... يا لها من مصادفة!

كذلك جمجم الجنرال، ولو قد لزمت الجدة الصمت بضع ثوان أخرى، إذن لكان يمكن أن يصاب بنوبة.

– عن أية مصادفة تتحدث؟ لقد ركبت القطار وجئت. وما فائدة السكك الحديدية إذن؟ كنتم تتصورون أنني سأخرج من منزلي على نعش، تاركة لكم الميراث؟ إنني أعرف أنك أرسلت برقيات. ولا بد أن يكون ذلك قد كلفك نفقات باهظة. إن أجور إرسال البرقيات من هنا ليست بالزهيدة. ولكنني حملت شجاعتي بين يدي وجئتكم بنفسي. هوذا الفرنسي؟ مسيو دي جريو فيما أظن؟..

أجاب دي جريو:

– نعم يا سيدتي، وثقي أنني مبتهج أشد الابتهاج، مغتبط أعظم الاغتباط، لاستردادك عافيتك... إنها لمعجزة أن نراك هنا... إنها لمفاجأة رائعة...

– أما أنها رائعة فنعم. إنني أعرفك أيها الممثل المهرج، ولا أصدق من كلامك مقدار أنملة (قالت ذلك وهي ترفع خنصرها). من هذه؟ (سألت هذا السؤال وهي تشير إلى مدموازيل بلانش).

كان واضحاً أن الفرنسية التي يدل مظهرها على كثرة الحركة والصخب، والتي ترتدي تنورة الفارسات، وتحمل بيدها سوطاً، قد خطفت بصر الجدة.

وأردفت الجدة تقول:

– أهي من هنا؟

قلت:

– هي مدموازيل بلانش دي كومنج وهذه أمها مدام دي كومنج؛ وهما تنزلان هذا الفندق.

سألت السيدة العجوز بغير كلفة ولا حرج:

– أهي متزوجة؟

قلت بأكبر احترام ممكن وأنا أغض طرفي عامداً:

– بل هي آنسة.

– أهي مرحة؟

ولم أفهم السؤال.

– ألا يشعر المرء بالضجر من صحبتها؟ هل تتكلم الروسية؟ لقد كان دي جريو في موسكو يلثلث بضع كلمات.

فشرحت لها أن مدموازيل دي كومنج لم تذهب إلى روسيا يوماً.

قالت الجدة بلهجة مباغتة وهي تتجه بالكلام إلى مدموازيل بلانش بغير توطئة ولا تمهيد:

– صباح الخير.

– صباح الخير يا سيدتي.

كذلك ردت مدموازيل بلانش، مغرقةً في تبجيل مقصود واحتفال مدروس، مظهرةً من تحت ستار هذا التهذيب الشديد، بكل تعبير وجهها وشخصها، دهشتها من سؤال غريب هذه الغرابة، ومن سلوك شاذ هذا الشذوذ.

– أوه... إنها تغض عينيها، وتصطنع الأدب، فيرى المرء فوراً مع أي طير من الطيور يتعامل: ممثلة أو شيء من هذا القبيل. لقد نزلتُ هذا الفندق، وسكنت تحت (قالت هذه الجملة الأخيرة وهي تتجه فجأة نحو الجنرال). سنصبح جيراناً. أيسرك هذا أم لا؟

فأجاب الجنرال:

– أوه... عمتي... ثقي أنني أشعر بأصدق عواطف الابتهاج...

كان الجنرال قد ثاب إلى نفسه بعض الشيء، وإذ كان يعرف عند الضرورة كيف يجد التعابير المناسبة طامعاً في أن تُحدِث أثرها، فقد أخذ يسهب في الكلام ويطنب فيقول فيما يقول: لشد ما آلمنا وهزنا ما كان يصل إلينا من أنباء عن مرضك... لقد كانت تصلنا برقيات تبلغ من شدة إيلامنا أننا... وفجأة..

فقاطعته الجدة فوراً تقول:

– أنت تكذب... أنت تكذب..

فقاطعها الجنرال بدوره، رافعاً لهجته متظاهراً بأنه لم يسمع:

– كيف قررت أن تقومي برحلة كهذه الرحلة؟ لا شك أنك توافقينني على أن قيامك برحلة كهذه، في مثل سنك وفي مثل حالتك الصحية... هو... على الأقل... أمر لا يُتوقع فلا عجب إذا دهشنا... ولكنني سعيد جدا بوصولك إلينا. وسوف نبذل كل ما في وسعنا (هنا أخذ يبتسم معبراً عن فرح حنون) من أجل أن نجعل إقامتك هنا ممتعة إلى أقصى حد ممكن...

– دعك من هذا الكلام... كفى ثرثرات لا فائدة منها ولا جدوى فيها. ما أراك تقول إلا ترهات، على عادتك. لسوف أعرف بنفسي كيف أحسن قضاء الوقت. على أنني غير حانقة عليك، فما أنا بالحقود... تسألني كيف قررت القيام بهذه الرحلة؟ الأمر بسيط غاية البساطة. ما لهم يتعجبون جميعاً؟ صباح الخير يا براسكوفيا. ماذا تفعلين هنا؟

قالت باولين، وهي تقترب:

– صباح الخير يا جدتي. هل طالت رحلتك؟

– هذا سؤال على الأقل، بدلاً من تلك الأوهات والآهـات جميعها... هذا ما حدث: لبثت زماناً طويلاً راقدة في سريري أُعالَج من المرض. وبعدئذ طردت جميع الأطباء، واستدعيت قندلفت كنيسة القديس نيقولا، وكان قد شفى إحدى النساء من هذا المرض نفسه ببعض الأعشاب؛ فخفف هذا الدواء عني، إذ رأيتني في الغداة أنضح عرقاً من كل جسمي، فنهضت، وجاء الألمان فقالوا لي مجمعين، بعد أن وضعوا نظاراتهم على أعينهم، وبعد أن تذاكروا في الأمر: «إذا قمت الآن برحلة إلى الخارج للتداوي بالمياه المعدنية، فإن انسداد الشريان سيزول زوالا كاملا». قلت لنفسي: «لم لا؟». وأخذ أفراد أسرة دور زايجين يصيحون صيحات عالية قائلين: «إنه لجنون أن تذهبي إلى هناك؟». ولكنني لم أكترث. فما انقضت أربع وعشرون ساعة حتى صُرّت أمتعتي. فأخذت خادمة وبوتابتش ثم فيدور الذي عدت فأرجعته من برلين إذ رأيت أنني في غير حاجة إليه قط، وأنه كان في وسعي أن أسافر وحدي... وحجزت في القطار حجرة خاصة. ألا ما أكثر الحمالين في جميع المحطات! تنقدهم عشرين كوبكاً، فينقلونك إلى حيث تشاء.

وختمت الجدة كلامها وهي تنظر حواليها قائلة:

– إن لكم لشقة جميلة. من أين تجيء بالمال يا عزيزي؟ لقد رهنت كل شيء إذا صدق ظني: هذا الفرنسي الصغير وحده له عليك أكوام من مال. أنا أعرف كل شيء... لا تؤاخذني... أعرف كل شيء.

قال الجنرال وقد بلغ ذروة الاضطراب:

– أنا يا عمتي في دهشة... وأحسب أنني أستطيع دون رقابة أحد أن... ثم إن نفقاتي لا تزيد على مواردي، ونحن هنا...

– نفقاتك لا تزيد على مواردك؟ ألا إنك لجريء!... لا بد أنك جردت أولادك من آخر قرش إذن، وأنت الوصي عليهم...

عاد الجنرال يقول:

– بعد هذا، بعد مثل هذا الكلام الذي تقولينه... لا أدري...

– لا تدري ماذا؟ إنني أفرض أنك لا تترك الروليت! فأنت إذن على الحصير!

بلغ الجنرال من الانصعاق أنه كاد يختنق من شدة الانفعال.

– أنا أذهب إلى الروليت؟ أنا؟ أرجل في مثل مركزي يفعل ذلك؟ هدئي روعك يا عمتي... إنك ما شفيت بعد!...

– كل هذا أكاذيب! أراهن على أنه يستحيل انتزاعك من الروليت! أنت تهرف لا أكثر... سأذهب اليوم بنفسي لأرى ما هي هذه الروليت؟ براسكوفيا، اذكري لي ما يستحق أن يُزار هنا. سيقودني ألكسي إيفانوفتش... أنت يا بوتابتش سجّل قائمة بجميع الأماكن التي سنزورها. ما الذي يستحق أن يُرى هنا؟ (كذلك رددت تقول متجهة بالسؤال إلى باولين).

– في الضواحي توجد آثار قصر خرب؛ ثم هنالك شلانجنبرج.

– ما هو شلانجنبرج هذا؟ أهو غابة؟

– بل جبل. وتوجد هنالك قمة.

– ما هي هذه القمة؟...

– هي أعلى موضع في الجبل، قد أحيط بسياج، فليس لجمال المنظر من هنالك ما يضارعه.

– ويجب الصعود إلى هناك في الكرسي. أهذا ممكن؟

قلت:

– جداً. في إمكاننا استئجار حمالين.

وفي لحظة من اللحظات جاءت فيدوسيا، الخادمة، تحيي الجدة، وأتت لها بأولاد الجنرال...

– آ... دعونا من التبويس... أنا لا أحب تقبيل الأطفال. إنهم جميعاً تسيل أنوفهم... كيف تجدين نفسك هنا يا فيدوسيا؟

أجابت فيدوسيا تقول:

– نحن هنا بخير يا سيدتي الطيبة أنطونين فاسيليفنا. وأنت كيف حالك يا سيدتي العزيزة؟ لشد ما أقلقنا أمرك!

– أعرف. أنت وحدك على الأقل إنسانة بسيطة النفس. أجميع هؤلاء الناس ضيوف عليكم؟ (هكذا أضافت الجدة توجه السؤال مرة أخرى إلى باولين). من هذا النحيل ذو النظارتين؟

فأجابت باولين بصوت خافت:

– هو الأمير نلسكي يا جدتي.

– آ... هو إذن روسي؟ وأنا كنت أظن أنه لا يفهم كلامنا... لعله لم يسمع! لقد سبق أن رأيت مستر آستلي! ولكن ها هو ذا مرة أخرى (قالت الجدة ذلك حين لمحته).

وحيته مسرعة بقولها:

– صباح الخير.

فانحنى مستر آستلي دون أن يقول شيئاً.

قالت الجدة:

– هيا... قل لي شيئاً ممتعاً. قل شيئاً ما... ترجمي له كلامي يا باولين.

وترجمت باولين.

– سأقول لك إنني مبتهج برؤيتك ابتهاجاً كبيراً، ويسعدني أن أراك موفورة العافية.

كذلك أجاب مستر آستلي بلهجة جادة، ولكن على لطف كبير.

وتُرجمت هذه الكلمات للجدة، فكان واضحاً أنها أعجبت بها.

قالت الجدة:

– إن لدى هؤلاء الإنجليز جواباً على كل شيء دائماً. لا أدري لماذا أحب الإنجليز! لقد أحببتهم عمري كله. لا وجه للمقارنة بينهم وبين الفرنسيين! أرجو أن تزورني يا مستر آستلي، وسأحاول أن لا أضجرك كثيراً. ترجمي له هذا الكلام، وقولي له إنني أقيم في الطابق الأول. في الطابق الأول، هل فهمت؟ (كررت الجدة هذه الجملة الأخيرة وهي تشير بأصبعها إلى أرض الغرفة).

سُر مستر آستلي لهذه الدعوة سروراً عظيماً.

وألقت السيدة العجوز على باولين نظرة منتبهة راضية لفتها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها. ثم قالت لها بغتة:

– سأحبك كثيراً يا براسكوفيا. أنت فتاة شهمة. أنت خيرهم جميعاً. لكن لك طبعاً من تلك الطباع... وأنا مثلك على كل حال... استديري قليلا: هل شعرك هذا مستعار؟

– لا يا جدتي، هذا شعري أنا!

– الحمد لله... إنني أمقت تلك «الموضة» السخيفة. أنت جميلة جداً. لو كنت شاباً لوقعت في غرامك. لماذا لا تتزوجين؟ ولكن آن لي أن أنصرف. أحب أن أتنزه قليلاً بعد أن قضيت ذلك الوقت كله في عربة القطار...

وأضافت تقول للجنرال:

– هه... أما زلت غضبان؟

قال الجنرال وقد هدأ روعه:

– كفى يا عمتي، أرجوك... إنني أفهم... في مثل سنك..

دمدم دي جريو يقول لي همساً:

– هذه العجوز رجعت إلى الطفولة.

قالت الجدة للجنرال تسأله:

– أريد أن أرى كل شيء هنا؟ هل تستغني لي عن ألكسي إيفانوفتش؟

– المدة التي تريدين. ولكننا جميعاً، أنا وباولين ومسيو دي جريو... سيسعدنا كثيراً أن نصحبك.

قال دي جريو وهو يبتسم ابتسامة مخادعة متملقة:

– ولكن يا سيدتي، إنها لمسرة لنا أن..

فقاطعته قائلة:

– هم... مسرة... أنت تضحكني يا عزيزي. على كل حال لن أعطيك شيئاً من المال (أضافت هذه الجملة الأخيرة متجهة إلى الجنرال). خذوني إلى شقتي: أريد أن ألقي عليها نظرة؛ ومن ثم نمضي نطوف في كل مكان. انقلوني.

حُملت الجدة من جديد، ونزلنا السلم موكباً وراء كرسيها. كان الجنرال يسير كمن أطاشت صوابه ضربة من عصا. وكان دي جريو ممعناً في التفكير. أما مدموازيل بلانش فقد أرادت في أول الأمر أن تمكث في الفندق ولكنها رأت بعد ذلك أن من الأفضل أن تتبعنا، فمشى الأمير وراءها رأساً. فلم يبق في شقة الجنرال إلا الألماني ومدام/ أرملة دي كومنج.

الفصل العاشر

في مدن المياه المعدنية، وربما في أوربا كلها. ترى مديري الفنادق، حين يعينون لأحد النزلاء شقة من الشقق، لا يستوحون اختيارهم من رغبات النزيل أو مطالبه، بل يستوحونه من رأيهم في هذا النزيل. ويجب أن نعترف أنهم قلما يخطئون. ولكنهم خصصوا للجدة، الله يدري لماذا، مسكناً يبلغ من البذخ أنهم في هذه المرة تجاوزوا الحدود: أربع غرف مزدانة بفاخر الأثاث، مع حمام، وحجرات ملحقة للخدم، وغرفة مستقلة للوصيفة، إلخ إلخ. إن دوقة عظيمة قد قضت في هذه الغرف ثمانية أيام فعلاً، وسرعان ما أُبلغ النزلاء الجدد هذه الواقعة طبعاً، بغية أن يُخلع على المسكن مزيد من القدر والقيمة. نقلت العجوز بل قل نقِّلت بين جميع الغرف، فكانت تدقق النظر فيها بانتباه وقسوة، يصحبها المدير نفسه، وهو رجل متقدم في السن قليلاً، ويلاطفها أثناء هذه الجولة التي قامت بها تتفقد الحجرات تفقد مالك.

لا أدري ماذا حسبوا الأميرة. لا شك أنهم عدوها شخصية مرموقة جداً، وثرية جداً بخاصة. حتى لقد أسرعوا يسجلون في سجل النزلاء: السيدة الجنرالة، أميرة ثاراسفشيفا، رغم أن الجدة لم تكن يوماً أميرة. ولا شك أن كثرة الخدم، والجناح المحجوز في القطار، وهذا الجبل من الرزم التي لا لزوم لها، ومن الحقائب، بل ومن الصناديق التي أنزلت مع الأميرة، لا شك أن هذا كله كان بمثابة قاعدة قامت عليها مهابتها في نظرهم؛ ثم إن الكرسي الذي تقعد عليه، واللهجة القاطعة التي تخاطب الناس بها، وصوتها، وأسئلتها الغريبة الشاذة التي تلقيها طلقة بلا تحفظ، ولا تحتمل أي رد عليها، وجملة شخصيتها المنتصبة، العنيفة، المتسلطة، أقول إن هذا كله قد انتهى بأن أكسبها تعظيم جميع الناس وتبجيلهم. كانت السيدة العجوز، أثناء

استعراض شقتها، تأمر بوقف كرسيها فجأة، فتشير إلى قطعة من قطع الأثاث، وتلقي على المدير أسئلة ليست في التوقع أو الحسبان، فيبتسم المدير إجلالاً واحتراماً، ولكنه كان قد أخذ يرتجف ويرتعد. وكانت تلقي عليه أسئلتها بفرنسيتها الرديئة، فكان عليّ في أكثر الأحيان أن أتولى الترجمة. وكانت أكثر أجوبة المدير لا ترضيها، وكانت تبدو لها هذه الأجوبة ناقصة غير كافية. ثم إنها كانت تلقي أسئلة لا معنى لها تمليها عليها النزوة الطارئة والخيال العجيب: كانت تتوقف مثلاً أمام لوحة من اللوحات على حين فجأة، لوحة هي نقل ضعيف عن أصل شهير موضوعه مستمد من الأساطير اليونانية، فتسأل:

– من تصوّر هذه الصورة؟

فيجيب المدير بقوله:

– لعلها تصوّر إحدى الكونتيسات.

– كيف؟ أأنت لا تعلم ذلك علم اليقين؟ أتسكن هنا ثم لا تعلم علم اليقين؟ لماذا وضعت هذه الصورة في هذا المكان؟ ولماذا تنظر المرأة هذه النظرة الحولاء؟

فكان المدير لا يستطيع أن يجيب على هذه الأسئلة كلها إجابات ترضيها، حتى لقد كان يُشده ويذهل.

قالت الجدة باللغة الروسية:

– يا له من غبي!

ونقلت الجدة إلى أبعد من ذلك، فتكرر هذا الأمر نفسه بصدد تمثال صغير من الساكس تأملته العجوز طويلاً، ثم أمرت بإخراجه من هذا المكان، لا يدري أحد لماذا! وأغرقت المدير أخيراً بوابل من الأسئلة: كم كانت أثمان سجادات غرفة النوم، وأين تصنع هذه السجادات، فوعدها المدير بأن يستعلم عن هذه الأمور.

دمدمت تقول:

– يا لهم من حمير!

ثم التفتت بانتباهها كله إلى السرير. وقالت:

– يا لهذه المظلة كأنها مظلة عرش! هيا... فكُّوها!

ففكت مظلة السرير.

– أيضاً أيضاً، انزعوا كل شيء. انزعوا المخدات، والأغطية، واللحاف.

قلب السرير رأساً على عقب. وراحت الجدة تنعم النظر في كل شيء.

– من حسن الحظ أنه لا يوجد بق. خذوا جميع الأغطية. وستضعون في مكانها أغطيتي ومخداتي. على كل حال، هذا كله مسرف في الترف والبذخ. ما حاجتي إلى مثل هذه الشقة وأنا في هذه السن؟ إن المرء يشعر بالملل والضجر وحده! يا إيفان إيفانوفتش لا يفوتنك أن تأتي إليّ كثيراً بعد فراغك من تدريس الأولاد.

قلت:

– لقد أصبحت لا أعمل في خدمة الجنرال منذ أمس.

– لماذا؟

– وصل من برلين منذ مدة ألماني ذو مكانة، تصحبه زوجته. إنه بارون. وأمس، أثناء النزهة، خاطبته بالألمانية دون أن أراعي اللهجة البرلينية.

– وبعد ذلك؟

– عدّ ذلك وقاحة مني، فشكاني إلى الجنرال، فطردني الجنرال من عملي فوراً.

– ولكن ماذا؟ هل أنت شتمت ذلك البارون؟ وهبك فعلت، فليس في هذا ضير كبير!

– بالعكس. إنه هو الذي رفع عصاه عليّ.

فقالت العجوز للجنرال بغتة:

– وأنت يا مخاط، كيف سمحت للبارون أن يعامل مربي أولادك هذه المعاملة؟ ثم تطرده من عمله فوق ذلك كله؟... ما أرى إلا أنكم جميعاً تافهون لا تصلحون لشيء.

أجاب الجنرال بلهجة فيها الألفة والتعالي معاً:

– لا تقلقي يا عمتي. إنني أعرف كيف أدبر شؤوني بنفسي. ثم إن ألكسي إيفانوفتش لم يصور لك الواقع تصويراً صحيحاً.

قالت لي الجدة:

– وكيف احتملت ذلك؟

قلت مصطنعاً أكبر التواضع وأعظم الهدوء:

– أردت أن أدعوه إلى المبارزة، ولكن الجنرال عارض في ذلك.

سألت الجدة:

– لماذا؟

ثم التفتت إلى المدير فقالت له:

– أمض إلى شأنك أنت يا عزيزي، ثم تعود متى ناديناك.

وأضافت:

– إنني لا أطيق رؤية هؤلاء النورنبرجيين الذين تشبه وجوههم وجوه السكارى.

فحيا المدير وانصرف، دون أن يفهم هذا التقريظ طبعاً.

أجاب الجنرال وهو يطلق ضحكة صغيرة:

– عفوك يا عمتي... هل المبارزات ممكنة؟

– ولم لا؟ الرجال جميعاً ديكة. كانا سيقتتلان، وينتهي الأمر. ولكنكم دجاجات مبتلة، هذا واضح. إنكم عاجزون عن الدفاع عن شرف بلدكم. هيا احملوني. بوتابتش! أصدر الأوامر بأن يكون هنالك دائماً شيالان في خدمتي. عينهما وحدد الشروط. يكفي اثنان. لن يكون عليهما أن يحملاني إلا عند صعود السلم. أما على الأرض المستوية، وفي الشارع، فسأجر جرًا. اشرح لهما هذا. وأنقدهما سلفة، فيكونوا أكثر أدباً وتهذيباً. وستظل أنت دائماً قربي. وأنت يا

ألكسي إيفانوفتش، سوف تريني هذا البارون أثناء النزهة: أحب على الأقل أن أرى من هو هذا الـ «فون بارون». هيا بنا! أين هي تلك الروليت؟

فشرحت لها أن موائد الروليت موضوعة في قاعات الكازينو. ثم أخذت أسئلة الجدة تنهمر: «هل هناك كثير من موائد الروليت هذه؟ هل ثمة ناس كثيرون يقامرون؟ هل تستمر المقامرة طول النهار؟ كيف هي مرتبة؟...» فأجبت أخيراً بأن الأفضل أن ترى هذا كله بعينيها، لأن الوصف بهذه الطريقة صعب.

– طيب. احملوني إذن إلى هناك رأساً. تقدمنا أنت يا ألكسي إيفانوفتش!

– كيف هذا يا عمتي؟ هلا نلت قسطاً من الراحة أولًا؟

كذلك سألها الجنرال متلطفاً متوسلاً.

كان الجنرال مضطرباً بعض الاضطراب. على أن الجميع كان يبدو في وجوههم شيء من الارتباك، وكانوا يتبادلون النظرات. ولعل مردّ ذلك إلى أنه كان يزعجهم أو يخجلهم أن يصحبوا الجدة إلى الكازينو، فقد تندفع هنالك في سلوك شاذ، على مرأى من الناس في هذه المرة. ومع ذلك اقترحوا أن يرافقوها.

– وعلام أرتاح؟ لست تعبانة. لقد لبثت خمسة أيام برمتها ساكنة لا أتحرك. وبعد ذلك نمضي إلى ينابيع المياه المعدنية، المياه الحارة... وبعد ينابيع المياه نذهب إلى... كيف سميتها يا براسكوفيا؟... إلى القمّة... أهكذا سميتها؟

– نعم يا جدتي!

– أذهب إلى القمة. وماذا يوجد هنا أيضاً؟

قالت باولين مرتبكة:

– يوجد أشياء كثيرة.

– طيب. أنت لا تعرفين شيئاً. مارتا، تعالي معي أيضاً.

كذلك خاطبت الجدة وصيفتها.

فقال الجنرال قلقاً على حين فجأة:

– لماذا تريدين أن ترافقك يا عمتي؟ هذا مستحيل. وإني لأشك أيضاً في أن يسمح لبوتابتش بالدخول إلى الكازينو.

– سخافات. أندعها إذن خارج الكازينو، لأنها خادم؟ أليست مخلوقاً حياً؟ لقد قضينا ثمانية أيام نقطع الطرق، فهي تحب أيضاً أن ترى شيئاً. مع من يمكن أن تذهب إذا لم تذهب معي أنا؟ إنها لا تجرؤ حتى أن تخطو في الشارع وحدها!

– ولكن يا جدتي...

– لعلك تخجل أن تصحبني. فما عليك إلا أن تبقى حيث أنت، ولست أطلب منك شيئاً. جنرال! شخصية عظيمة! ولكنني جنرالة أنا أيضاً! ثم إنني لست في حاجة إلى أن أجر ورائي كل هذا الموكب، سأرى كل شيء في صحبة ألكسي إيفانوفتش...

ولكن دي جريو أصر على أن يرافقوها جميعاً، وأخذ يتدفق جُمَلاً لطيفة تعبر عن متعة مرافقتها، إلخ. وسار الجميع.

كرر دي جريو يقول للجنرال:

– لقد رجعت إلى الطفولة... فلو تركناها وحدها إذن لارتكبت حماقات...

ولم أسمع ما قاله بعد ذلك. ولكن لا شك أنه كان يبيّت في ذهنه فكرة ما، بل لعله قد عاوده الأمل...

المسافة بيننا وبين الكازينو خمسمائة متر تقريباً. سلكنا طريق أشجار الكستناء حتى وصلنا إلى الدائرة فدرنا حولها ثم دخلنا الكازينو رأساً. كان الجنرال قد اطمأن روعه بعض الاطمئنان، لأن موكبنا كان، على غرابته وشذوذه، لا يخلو من مهابة ووقار. وليس غريباً أن تأتي إلى مدن المياه شخصية مريضة أصابها الضعف والكساح. ولكن كان واضحاً أن الجنرال يخشى الكازينو. فعلام تذهب امرأة كسيحة، هي فوق ذلك عجوز هرمة، علام تذهب امرأة كهذه إلى الروليت؟ وكانت باولين ومدموازيل بلانش تسيران على جانبي الكرسي المتحرك. إن مدموازيل بلانش تضحك، وتظهر شيئاً من مرح متخفّ، وتتبادل والجدة بعض الأمازيح من حين إلى حين، حتى أن الجدة لم يسعها إلا أن تكيل لها آخر الأمر بعض المديح. وكانت باولين، على الجهة الأخرى من الكرسي، مضطرة إلى الإجابة على الأسئلة المستمرة التي تلقيها عليها السيدة العجوز، وهي من نوع الأسئلة التالية: «من هذا الذي صادفناه الآن؟ من هي تلك المرأة الراكبة العربة؟ هل المدينة كبيرة؟ هل الحديقة واسعة ممتدة الأطراف؟ ما هذه الأشجار؟ ما أسماء هذه الجبال؟ هل يوجد هنا نسور؟ ما هذا السطح المضحك؟»...

وتمتم مستر آستلي الذي كان يسير إلى جانبي، تمتم يقول لي: إنني أتوقع من هذا الصباح أشياء كثيرة.

وكان بوتابتش ومارتا يسيران في الخلف وراء الكرسي تماماً: فأما بوتابتش فهو يرتدي لباساً رسمياً مع ربطة عنق بيضاء، ولكنه يضع على رأسه قبعة من نوع «الكاسكيت»، وأما مارتا، وهي في الأربعين من العمر، وذات خدين حمراوين وشعر غزاه الشيب منذ ذلك الحين، فقد كانت تضع على رأسها قبعة من نوع «البونيه»، وتلبس ثوبا من حرير الهند، وتنتعل حذاءين من جلد الماعز يطقطقان. وكانت الجدة تلتفت إليها كثيراً فتكلمها. وقد ظل دي جريو والجنرال وراءنا بعيدين بعض البعد، يدور بينهما الحديث حاميا حاراً. كان الجنرال مصعوقاً خائر القوى. فيما دي جريو يحاول أن يرد إلى رفيقه بعض الشجاعة؛ وكان واضحاً أنه يسدي إليه بعض النصائح. ولكن الجدة كانت قد نطقت بجملتها الحاسمة: «لن أعطيك شيئاً من المال». فلعل دي جريو يعد هذا الكلام بعيداً عن التصديق، ولكن الجنرال يعرف عمته حق المعرفة. وكنت قد لاحظت أن دي جريو ومدموازيل بلانش مستمران في تبادل النظرات المختلسة. ولمحت الأمير والألماني في آخر الطريق: لقد تركا لنا أن نتقدم. ومضيا في اتجاه آخر.

دخلنا الكازينو دخول الظافرين. وقد أظهر السويسري والحجاب من الاحتفال بمقدمنا مثل الذي أظهره خدم الفندق. ومع ذلك كانوا ينظرون إلينا متعجبين. وأصدرت الجدة أمرها أولاً بالقيام بجولة في القاعات. فكانت تكيل المديح والإطراء تارة، وتبقى غير مكترثة ولا مبالية تارة أخرى. ولكنها كانت تسأل عن كل شيء. ووصلنا أخيراً إلى قاعات القمار. فما أن رآنا الحاجب الواقف أمام الباب الموصد، حتى فتح الباب على مصراعيه كمن تملكته دهشة.

وأحدث ظهور الجدة في قاعة الروليت أثراً عميقاً في الناس. كان يتجمهر حول موائد الروليت وفي الطرف الأخر من القاعة، حيث وضعت مائدة «الثلاثين والأربعين»، نحو من مائة وخمسين مقامراً أو مائتين اصطفوا صفوفاً متراصة. إن الذين استطاعوا منهم أن يتسللوا حتى المائدة يحرصون على البقاء في أماكنهم أشد الحرص، وقد جرت العادة أن لا يتنازلوا عنها لأحد قبل أن يخسروا كل ما معهم من مال. ذلك أنه ليس يباح لأحد أن يكون في مكان من تلك الأماكن مشاهداً فحسب، فيحتل بالمجّان مكان لاعب. ورغم أن هناك كراسي مصفوفة حول المائدة، فإن عدداً قليلاً من اللاعبين كان يجلس على الكراسي، خاصة حين يكون الجمهور كثيفاً، لأن الوقوف يشغل حيزاً أضيق من الحيز الذي يشغله الجلوس، كما أن الواقف يسهل عليه أن يضع الرهان حيث يريد أن يضعه أكثر مما يسهل ذلك على القاعد. والناس يتزاحمون في الصف الثاني أو الثالث وراء الواقفين في الصف الأول، ينتظرون دورهم؛ ولكن صبرهم ينفد في بعض الأحيان فتراهم يدسون أيديهم بين اللاعبين ليضعوا رهانهم على المائدة. والواقفون في الصف الثالث يجاهدون على هذه الطريقة نفسها من أجل أن يوصلوا رهانهم إلى المائدة الخضراء. لذلك ما تكاد تنقضي عشرة دقائق أو خمس حتى يسمع المرء أصوات مشاجرة أو مشاحنة عند طرف من أطراف المائدة. على أن شرطة الكازينو منظمون أحسن تنظيم. إنهم لا يستطيعون طبعاً أن يمنعوا الهرج والمرج. حتى ليسرّهم أن يكون الازدحام شديداً، لأنهم يستفيدون من ذلك. غير أن هناك ثمانية موظفين جالسين حول المائدة يراقبون اللعب مراقبة يقظة. إنهم هم الذين يدفعون الأرباح، فإذا نشب خلاف كانوا هم الذين يفصلون في الخلاف. ولا تستدعى الشرطة إلا في الحالات القصوى، فيُسوَّى الأمر عندئذ على الفور. ورجال الشرطة في القاعة يرتدون اللباس المدني، ويقفون

بين المشاهدين، فلا يستطيع المرء أن يعرفهم. وهم يراقبون خاصة صغار اللصوص والمحترفين، وما أكثرهم في الروليت، وما أسهل ممارستهم صناعتهم في قاعتها! ذلك أن السرقة في غير هذا المكان تحتاج إلى نبش جيوب أو كسر أقفال، وقد تجلب للسارق في حالة الإخفاق متاعب كثيرة. أما هنا فحسب اللص أن يقترب من الروليت، وأن يأخذ يقامر، ثم إذا هو فجأة، على رؤوس الأشهاد ومن غير تخف ولا مداورة، يمد يده إلى ربح غيره فيستولي عليه ويضعه في جيبه. فإذا حدث اعتراض راح اللص يصيح بصوت عال مفهوم أن الربح ربحه. فإذا كان قد أحكم الضربة حاذقاً، وتردد الشهود، استطاع اللص في كثير من الأحيان أن يحتفظ بالمال، هذا إذا لم يكن المبلغ ضخماً بطبيعة الحال، وإلا فإن القيّمين يكونون قد لاحظوه، أو يكون لاعب آخر قد لاحظه. أما إذا لم يكن المبلغ ذا بال، فإن الرابح الحقيقي يكف من تلقاء نفسه عن مواصلة الشجار في بعض الأحيان وينسحب من اللعب مخافة الفضيحة. ولكن إذا أمكن كشف القناع عن وجه اللص، طرد من اللعب فوراً بغير مراعاة ولا مداراة.

تأملت الجدة هذا كله، من بعيد، باستطلاع شره. ولشد ما كانت تُسَرّ حين يُطرد لص من اللصوص. ولم تفتنها كثيراً لعبة «الثلاثين والأربعين» وإنما أعجبتها الروليت وأسرتها، وخاصة حين كانت تدور الكرة. وأرادت أخيراً أن تشاهد اللعب عن كثب. فإذا بالخدم وأفراد أُخَر (أغلبهم بولونيون دمرهم القمار، فهم يفرضون خدماتهم على المقامرين الموفّقين وعلى جميع الأجانب) يسارعون فيؤمّنون لها مكاناً قريباً من وسط المائدة قرب القيّم الرئيسي، ويجرون كرسيها إليه رغم الزحام الشديد. وها هي ذي جمهرة كبيرة من الزوار الذين لا

يقامرون بل يشاهدون (وأكثرهم من الإنجليز مع أسرهم) تتزاحم فوراً نحو المائدة تريد أن ترى الجدة من فوق أكتاف المقامرين. وعقد القيمون على الجدة آمالًا كبارًا: إن مقامِرة غريبة هذه الغرابة، شاذة هذا الشذوذ، لتعدِ حقاً بأشياء خارقة. امرأة في السبعين من عمرها، كسيحة، تريد أن تقامر... ذلك ظرف نادر قل أن يواتي... واندسست أنا أيضاً حتى وصلت إلى المائدة فوقفت قرب الجدة. أما بوتابتش ومارتا فقد ظلا بعيدين وسط الجمهور. وانضم الجنرال وباولين ودي جريو إلى صفوف المشاهدين كذلك.

أخذت الجدة في أول الأمر تلاحظ اللاعبين الذين يحيطون بها، فتسألني بصوت خافت أسئلة سريعة: «من هذا الرجل؟» «من تلك المرأة؟». وقد اهتمت اهتماماً شديداً بشاب صغير كان على طرف المائدة يقامر بمبالغ ضخمة، فهو يضع الفرنكات آلافاً، وكان قد ربح، فيما كان يدمدم به الجيران، حوالي أربعين ألف فرنك كانت قابعة أمامه كومة من الليرات الذهبية والأوراق النقدية. كان الفتى ممتقع اللون، وكانت عيناه تقدحان شرراً، ويداه ترتجفان. كان يضع المال من غير أن يعده، فإنما هو يتناوله قبضات قبضات، وما ينفك مع ذلك يربح، وما ينفك المال يتكدس أمامه، وكان الخدم يتحركون من حوله، فهذا يحمل إليه كرسياً، وذاك يوسّع من حوله المكان، حتى تزداد حركته طلاقة، وحتى لا يزحمه الناس... كل ذلك أملاً في مكافأة طيبة. إن بعض المقامرين الموفّقين يعطونهم أحياناً بلا عد، يخرجون المال من جيوبهم قبضات ملأى يمدونها إليهم عطايا. وإلى جانب الفتى كان قد جلس بولوني لا يستقر في مكانه، ويوشوشه في كل لحظة باحترام، ليسدي إليه النصح وليوجهه في اللعب من غير شك، أملاً في مكافأة بطبيعة الحال. ولكن الفتى المقامر لا يكاد ينتبه إليه، وإنما هو يراهن

ذات اليمين وذات الشمال خبط عشواء، وما ينفك يكدس ثم يكدس. كان واضحاً أنه فقد صوابه.

لاحظته الجدة فلكزتني بكوعها وقالت لي:

– قال له أن يكف، قل له أن يلم ماله بأقصى سرعة وأن يفر. سوف يخسر، سوف يخسر كل شيء في لحظة واحدة.

قالت ذلك وهي تكاد تلهث من فرط الانفعال. ثم أضافت:

– أين بوتابتش؟ أرسلوا إليه بوتابتش. لماذا لا تقول له؟ قل له أن يرحل (قالت لي ذلك وهي تنكعني). ولكن أين بوتابتش؟ أخرج، أخرج (هكذا أخذت تصيح لتهيب بالفتى أن يخرج).

فملت عليها وقلت بصوت خافت ولهجة حاسمة أنه لا يُسمح بالصراخ في هذا المكان على هذا النحو، بل ويحظر الكلام إلا بصوت منخفض... لأن ذلك يعرقل إجراء الحسابات، ولسوف يخرجوننا من القاعة...

– خسارة! إن هذا الرجل ضائع لا محالة. لا شك أنه يريد ذلك... لا أستطيع أن أنظر إليه. لقد حولت بصري عنه... يا له من غبي!

قالت الجدة ذلك، والتفتت إلى جهة أخرى على الفور.

وهناك، على الشمال، كانت تُرى بين اللاعبين سيدة شابة يصحبها رجل يشبه أن يكون قزماً من الأقزام. من هو هذا القزم؟ لا أدري... أهو قريب من أقربائها، أم أنها جاءت به لتحدث أثراً، وتلفت نظراً؟ كنت قد لاحظت هذه السيدة قبل ذلك. إنها تجيء إلى الكازينو كل يوم،

في الساعة الواحدة بعد الظهر، وتنصرف في الساعة الثانية تماما. كانت تلعب إذن ساعة في كل يوم. والناس يعرفونها، وسرعان ما قُدّم لها كرسي قعدت عليه. فأخرجت من جيبها بضعة دنانير ذهبية وبضع أوراق نقدية من ذات الألف فرنك، وأخذت تراهن برصانة وبرود، وتسجل الأرقام على ورقة، محاولة أن تكتشف نظام تجمع الاحتمالات في لحظة من اللحظات. كانت تخاطر بمبالغ كبيرة. وتربح في كل يوم ألف فرنك، أو ألفين، أو ثلاثة آلاف، لا أكثر من ذلك، ثم ما تلبث أن تنسحب. راقبتها الجدة برهة طويلة.

– هذه لن تخسر... هذه لن تخسر. من هي هذه السيدة؟ هل تعرف؟

فدمدمت أقول:

– هي فرنسية، لعلها من أولئك النسوة...

– من طيرانه يُعرف الطير. واضح أن لها مخالب حادة... اشرح لي الآن ماذا تعني كل دورة، وكيف تجب المراهنة.

فشرحت للجدة، ما أمكنني الشرح، مزاوجات اللعب التي لا حصر لعددها: أحمر وأسود، مزدوج ومفرد، إلخ؛ وشرحت لها بعد ذلك بعض الأمور المتصلة بنظام الأعداد. فكانت السيدة العجوز تصغي إلى كلامي منتبهة أشد الانتباه، وتحفظ ما أقول، وتلقي أسئلة جديدة وتستزيد من التعلم والفهم. وكان من السهل أن أضرب لها مثالاً مباشراً على كل نظام من نظم المراهنة، فكان ذلك ييسر لها حفظ الدرس. وسرت الجدة من ذلك كله سرورا عظيما.

– وماذا يعني صفر؟ إن القيّم الرئيسي، هناك، ذا الشعر الأجعد، قد صاح يقول الآن: صفر. ولماذا لَمّ كل ما كان على المائدة؟ هل أخذ تلك الكومة كلها لنفسه؟ ما معنى هذا؟

قلت:

– الصفر، يا جدة، يعني أن الرابح هو البنك. فإذا وقفت الكرة على الصفر كان كل ما على المائدة للبنك بغير تمييز. الواقع أنهم يديرون دورة أخرى تبرئة للذمة، ولكن البنك لا يدفع شيئاً.

– غريب... ولا آخذ شيئاً!

– إذا كنت قد راهنت على الصفر سلفاً، فإنهم يدفعون لك المبلغ الذي وضعته مضاعفا خمسا وثلاثين مرة.

– خمساً وثلاثين مرة؟ وهل يخرج الصفر كثيراً؟ فلماذا لا يضعون عليه، هؤلاء الأغبياء؟

– لأن هناك ستة وثلاثين احتمالاً مخالفاً، يا جدة!

– يا له من سخف! بوتابتش! انتظر. إن معي بعض المال. خذه (أخرجت من جيبها كيساً منتفخاً فتناولت منه فردريكاً). خذ هذا، وضعه على الصفر فوراً.

– ولكن الصفر قد خرج الآن، ولن يخرج مرة أخرى إلا بعد زمن طويل. إنك تجازفين كثيراً: تريّثي بعض التريث.

– لن أنتظر. كلامك سخيف. ضع هذا.

– اسمحي لي. قد لا يخرج مرة أخرى قبل المساء، ولو وضعت عليه ألف مرة. هذا شيء معروف.

– سخافات، سخافات. لا يذهب إلى الغابة من يخاف الذئب. ماذا؟ خسرت؟ ضع مرة ثانية.

وخسرنا مرة ثانية. ووضعنا مرة ثالثة. إن الجدة لا تكاد تستقر في مكانها. إنها تحضن بعينيها البراقتين الكرة التي تتواثب بين حجرات الصفيحة الدائرة. لقد خرجت الجدة عن طورها. أصبحت لا تستطيع المحافظة على هدوئها، حتى لقد ضربت المائدة بقبضة يدها حين نادى الموظف قائلاً: ست وثلاثون، بدلاً من أن يعلن خروج الصفر المرتقب.

قالت الجدة زعلانة:

– هيا... لا بأس... إن هذا الصفر اللعين سيخرج قريباً! أفضّل أن أضيع على أن لا أبقى إلى أن يخرج الصفر! الذنب ذنب ذلك القيم الخبيث الأجعد الشعر، إن الصفر لا يخرج معه أبداً. ألكسي إيفانوفتش ضع دينارين مرة واحدة! إن ما تضعه قليل، فلو خرج الصفر لما ربحنا شيئاً.

– جدة!...

– ضع، ضع، ليس المال مالك!

ووضعت فردريكين. وتدحرجت الكرة برهة طويلة على الصفيحة، ثم أخذت تتواثب فوق الحجرات. تهالكت الجدة وشدت على ذراعي. وفجأة... تك..

– صفر.

كذلك أعلن القيم.

قالت الجدة وهي تلتفت نحوي بحماسة:

– رأيت؟ رأيت؟ قلت لك إن الصفر سيخرج... قلت لك... الرب نفسه هو الذي ألهمني أن أضع دينارين ذهبيين. كم أقبض الآن؟ لماذا لا يدفعون؟ بوتابتش، مارتا! أين هي إذن؟ وجماعتنا كلهم، أين ذهبوا؟ بوتابتش، بوتابتش!

فدمدمت أقول لها:

– حالاً يا جدة. بوتابتش على الباب. لن يأذنوا له بالدخول إلى هنا. أنظري يا جدة... ها هم يدفعون لك المال. خذيه.

وألقيت إلى الجدة لفة ثقيلة تضم ٥٠ فردريكاً مغلفة بورق أزرق قاتم، وعُدّ لها عدا ذلك عشرون فردريكاً بغير ألف. وقُرّب المبلغ كله بمجرفة إلى أمام الجدة.

– العبوا أيها السادة! العبوا أيها السادة! هل انتهى كل شيء؟

كذلك صاح القيم يدعو اللاعبين إلى الحط، ويتهيأ لقذف الكرة.

– رباه! تأخرنا في الحط. سيبدأون فوراً. حط. حط. أسرع. لا تضيع الوقت.

هكذا أخذت تقول الجدة، وقد خرجت عن طورها وأخذت تلكزني بكوعها.

– ولكن أين أحط يا جدة؟

– على الصفر! على الصفر! أيضاً على الصفر! حط أكبر مبلغ ممكن. كما يبلغ كل ما معنا؟ سبعين فردريكا؟ لا فائدة من التباخل. حط عشرينا دفعة واحدة!

– تعقلي يا جدة! قد لا يخرج الصفر بعد مائتي دورة! كذلك هو في بعض الأحيان. أحلف لك. لسوف تخسرين كل ما معك من مال.

– كفى سخافات، كفى سخافات. حط بسرعة. هذه هي المطرقة تدق! أنا أعرف ما أفعل.

هذا ما قالته الجدة التي كانت ترتجف من توتر أعصابها.

قلت:

– النظام يحظر أن يحط اللاعب أكثر من اثني عشر فردريكاً على الصفر، ها قد حططتها.

وكان القيم على يسارها يهم أن يقذف الكرة، فلكزته الجدة بكوعها تسأله بفرنسية لا تفهم:

– كيف هذا؟ أصحيح هذا يا مسيو؟ أصحيح هذا يا مسيو؟ كم على الصفر؟ اثنا عشر؟ اثنا عشر؟

فأسرعت أشرح السؤال بالفرنسية. فأجابها القيم في أدب:

– نعم يا سيدتي، كما لا يجوز أن تتجاوز حطة كل فرد أربعة آلاف فلورين.

وأضاف معللاً ذلك:

– بهذا يقضي النظام.

– طيب. لا حيلة لنا إذن. حط اثني عشر فردريكا.

صاح القيّم:

– تم اللعب.

ودارت الدائرة، فخرج الرقم «ثلاثة عشر». لقد خسرنا.

صاحت الجدة تقول لي:

– حط أيضاً، حط أيضاً.

لم أعترض في هذه المرة، لم أظهر أية مقاومة، بل أسرعت أحط اثني عشر فردريكاً وأنا أرفع كتفي. ودارت الدائرة زمناً طويلاً. فكانت الجدة ترتجف وهي تلاحقها. قلت لنفسي وأنا أنظر إليها مندهشاً: «أهي تعتقد حقاً أن الصفر سيربح أيضاً». وكان يلتمع في وجهها إيمان مطلق بأنها ستربح، وأمل راسخ في أنها ستسمع القيّم يصيح بعد قليل: صفر. ووثبت الكرة إلى إحدى الحجرات: فهتف القيم:

– صفر.

قالت الجدة ملتفتة نحوي وقد بدا في وجهها معنى الانتصار وروح التهجم:

– أرأيت؟

لقد كنت مقامراً. أحسست بذلك في تلك اللحظة عينها. كانت ذراعاي وساقاي ترتجف. لقد كان نادراً بطبيعة الحال أن يخرج الصفر ثلاث مرات خلال عشر ضربات. ولكن لم يكن في هذا ما يبعث على دهشة خاصة. فلقد رأيت الصفر بنفسي، أول البارحة، يخرج ثلاث مرات متتالية؛ وقال أحد اللاعبين في تلك المناسبة، وكان قد سجل الضربات على ورقة

تسجيلا دقيقا، قال بصوت عال إن الصفر، في اليوم السابق نفسه، لم يخرج إلا مرة واحدة خلال أربع وعشرين ساعة.

أعطيت الجدة ربحها مقروناً بالاحترام والانتباه الخاصين اللذين يستحقهما كل من حقق ربحاً ضخماً. لقد تقاضت أربعمائة وعشرين فردريكاً على التمام والكمال، أي أربعة آلاف فلورين وعشرين فردريكاً. عُدت لها الفردريكات نقوداً ذهبية، وأُعطيت الفلورينات أوراقاً مالية.

ولكن الجدة لم تناد بوتابتش في هذه المرة. لقد كان في رأسها شيء آخر يشغلها عن ذلك! أصبحت الآن لا تضطرب ولا ترتعش في الظاهر، ولكنها كانت في داخل نفسها ترتعش إن صح هذا التعبير. كان انتباهها كله مركّزاً على نقطة كأنها تسدد إلى هدف؛ وقررت أخيراً فقالت لي:

– ألكسي إيفانوفتش، لقد قال القيم إن اللاعب لا يجوز له أن يحط أكثر من أربعة آلاف فلورين في آن واحد؛ أليس كذلك؟ إليك إذن هذه الأربعة آلاف؛ حطها على الأحمر.

كان من العبث أن يحاول المرء صرفها عن تصميمها. ودارت الدائرة. وإذا بالقيّم يصيح:

– احمر.

ربح جديد قدره أربعة آلاف فلورين. أصبح المجموع ثمانية آلاف.

أمرتني الجدة بقولها:

– دع لي أربعة آلاف، وحط الأربعة الأخرى على الأحمر مرة ثانية.

فجازفت بالآلاف الأربعة مرة أخرى. ثم إذا بالقيّم يعود فيصيح:

– أحمر.

– المجموع اثنا عشر ألفاً. أعطني كل شيء. ضع الذهب في الكيس، ولم الأوراق المالية. كفانا هذا الآن. لنعد إلى المنزل. دحرجوا كرسيي.

الفصل الحادي عشر

دُحرج الكرسي نحو الباب في الطرف الآخر من القاعة. كانت الجدة مشرقة. وأسرع جماعتنا كلهم يحيطون بها مهنئين. فمهما يكن سلوك الجدة غريباً شاذاً، فإن انتصارها يغطي أشياء كثيرة؛ لقد أصبح الجنرال لا يخشى على سمعته ومهابته بين الناس من قرابته بامرأة غريبة الأطوار هذه الغرابة كلها؛ حتى لقد أخذ يطري الجدة وهو يبتسم ابتسامة متلطفة، ويظهر مرحاً ودوداً، كما يفعل المرء مع طفل يريد أن يسليه. وكان واضحاً من جهة أخرى أنه كان مأخوذاً كسائر المشاهدين، الذين يعلقون على الحادث ويشيرون إلى الجدة. حتى أن كثيراً منهم كانوا يمرون قربها ليروها عن كثب. وكان مستر آستلي يتحدث عنها بعيداً مع اثنين من أصدقائه الإنجليز. وهذه سيدات مرموقات وقورات يتأملنها في دهشة فخمة كنظرتهن إلى ظاهرة عجيبة. وكان دي جريو يتدفق تهاني وبسمات. قال:

– نصر عظيم!

وأضافت مدموازيل بلانش وهي تبتسم ابتسامة مداهنة متملقة:

– ولكن، يا سيدتي، لقد كنت كمن يطلق النار!

فقالت الجدة:

– نعم، بدون أن أعد واحداً أو اثنين، ربحت اثني عشر ألف فلورين. ماذا أقول؟ اثني عشر ألف؟ هذا عدا الدنانير الذهبية. فيكون المجموع ثلاثة عشر ألفاً على وجه التقريب. كما يساوي هذا المبلغ بالروبلات؟ حوالي ستة آلاف؟

فأوضحت لها أن المبلغ يساوي أكثر من سبعة آلاف روبل، وقد يصل إلى ثمانية آلاف بالسعر الراهن.

– ثمانية آلاف... ليس هذا بمزحة! ما لكما تجمدان هنالك ككلاب من خزف؟ هل رأيتما يا بوتابتش ويا مارتا؟

صاحت مارتا مفرطة في الإطراء:

– ولكن كيف فعلت يا سيدتي؟ ثمانية آلاف روبل...

– خذا، هذه خمسة دنانير ذهبية لكل منكما، خذا...

فأسرع بوتابتش ومارتا يقبّلان يدها.

– وليوهب فردريك واحد لكل حمال. أعط كلاً منهم ديناراً ذهبياً يا ألكسي إيفانوفتش. ما لذلك الخادم ينحني تلك الانحناءات؟ وذاك الآخر أيضًا؟ تهنئةً لي؟ هب لكل كمهما دينارًا أيضًا.

– سيدتي الأميرة... فقير منفي من وطنه... شقاء متصل.. الأمراء الروس كرام جداً.

كذلك أخذ يقول مستجدياً مستعطياً شخص ذو شاربين وقف قرب الكرسي بمعطفه المهترئ وصديرته المبرقشة، رافعاً قبعته، مبتسماً ابتسامة التذلل والخضوع.

– أعطه ديناراً أيضاً، بل أعطه دينارين. والآن كفى! وإلا لما كان لهذا نهاية... احملوني، انقلوني! براسكوفيا! (قالت هذا لباولين ألكسندروفنا) سأشتري لك ثوباً في الغد، وكذلك

مدموازيل... ما اسمها؟ مدموازيل بلانش، أليس كذلك؟ سأعطيها ما تشتري به ثوباً. ترجمي لها هذا الكلام يا براسكوفيا!

– شكراً يا سيدتي.

كذلك قالت مدموازيل بلانش وهي تنحني إجلالاً للجدة، وترسم على شفتيها ابتسامة ساخرة تتجه بها إلى دي جريو والجنرال. وكان الجنرال منزعجاً بعض الانزعاج، فلم يخفف من ضيقه وبرمه إلا حين بلغنا الطريق الذي تصطف على حافتيه أشجار الكستناء.

قالت الجدة وهي تتذكر خادمة الأطفال:

– وفيدوسيا، وفيدوسيا! لن تصدق أذنيها حين تسمع النبأ. يجب أن أعطيها أيضاً ما تصنع به لنفسها ثوباً. هيه! ألكسي إيفانوفتش، ألكسي إيفانوفتش أعط هذا الشحاذ شيئاً.

كان يمر في الطريق رجل مقوس الظهر يرتدي أسمالاً بالية، وينظر إلينا.

قلت:

– قد لا يكون هذا الرجل شحاذاً بل وغد من الأوغاد!

– أعطه! أعطه! أعطه فلوريناً!

فاقتربت من الرجل ومددت إليه قطعة النقد، فنظر إليّ مشدوهاً، ولكنه تناول الدرهم دون أن ينبس بكلمة. وكانت رائحة الخمرة تفوح منه.

– وأنت يا ألكسي إيفانوفتش، ألم تجرب حظك بعد؟

– لا لم أفعل بعد.

– كانت عيناك تلتمعان؛ لاحظت أنا ذلك.

– سأحاول حتماً، يا جدة، ولكن في المستقبل.

– وحُط على الصفر دون تردد. وسوف ترى! كم معك من مال؟

– عشرون فردريكاً يا جدة.

– ليس هذا بالكثير. سأقرضك خمسين فردريكاً إذا شئت. خذ، خذ هذه اللفة. أما أنت يا عزيزي (قالت هذه الجملة متجهة بها إلى الجنرال على حين فجأة) فلا تراودنك الأوهام والأحلام: لن أعطيك شيئاً.

فاضطرب الجنرال ولكنه لم يقل شيئاً؛ وقطب دي جريو حاجبيه؛ ثم التفت إلى الجنرال يدمدم من بين أسنانه قائلاً:

– امرأة فظيعة.

صاحت الجدة:

– شحاذ، شحاذ، شحاذ آخر! يا ألكسي إيفانوفتش، أعط هذا الرجل فلوريناً أيضاً.

كان يُقبِل علينا في هذه المرة شيخ عجوز أبيض الشعر، يسير على ساق من خشب، ويرتدي نوعاً من معطف طويل كحلي اللون، ويحمل بيده عصا يتوكأ عليها. إنه يشبه أن يكون واحداً

من قدماء المحاربين. فما أن مددت إليه الفلورين حتى ارتد خطوة إلى وراء، وهو يحدق إليّ مهدداً، ويقول بالألمانية:

– ما هذا؟

ثم يضيف إلى سؤال التعجب هذا سيلاً من الشتائم.

قالت الجدة وهي تومئ بيدها إيماءة احتقار:

– يا له من غبي! أمضوا بي. أكاد أموت جوعاً. سوف أتناول غدائي فوراً، ثم أرتاح قليلاً، لأعود بعد ذلك إلى هناك.

– أتريدين أن تقامري أيضاً يا جدة؟

– ماذا تظن إذن؟ أتحسب أن عليّ، إذا أنت لبثت تتعفن هناك، أن أكتفي بالنظر إلى محياك؟

قال دي جريو وهو يقترب:

– ولكن الحظوظ يا سيدتي يمكن أن تنقلب. ورب حظ سيئ واحد يفقدك كل شيء، وخاصة إذا لعبت على طريقتك الرهيبة تلك!

وزأزأت مدموازيل بلانش تقول:

– لسوف تخسرين حتماً!

– وما شأنك أنت؟ إن ما سأخسره ليس مالك بل مالي! ولكن أين هو ذلك المستر آستلي؟ (ألقت هذا السؤال عليّ).

– بقي في الكازينو يا جدة.

– خسارة! إنه لفتى شهم حقاً!

لما وصلنا إلى المنزل، صادفت الجدة رئيس الخدم على السلم، نادته وأخذت تتباهى بما حققته من ربح. ثم استدعت فيدوسيا فأعطتها ثلاثة فردريكات، وأمرتها بإعداد الغداء. وفي أثناء تناول الطعام كانت فيدوسيا ومارتا تتدفقان عبارات تعجب.

قالت مارتا:

– كنت أنظر إليك يا عزيزتي، فأقول لبوتابتش: «ماذا تريد سيدتنا أن تفعل؟». ثم تكدّس المال وتكدّس. يا قديسي السماء! لم أر في حياتي مالا بهذا المقدار! وليس من حولك إلا رجال، ليس من حولك إلا رجالا «من أين يأتي جميع هؤلاء السادة يا بوتابتش؟» كذلك كنت أسأل بوتابتش. ثم أقول: «فلتساعدها العذراء أم الرب!» كنت أدعو لك يا سيدتي الطيبة. وكان قلبي يكاد يبارحني؛ لقد توقف عن الخفقان. وكنت أرتعش ارتعاش ورقة. «كن في عونها يا رب» كذلك كنت أضرع إلى الله. وقد حماك الله ورعاك. وما زلت أرتعش من ذلك حتى الآن، ما زلت أرتعش من قمة رأسي إلى أخمص قدمي.

– ألكسي إيفانوفتش! هيئ نفسك بعد الغداء. سنعود إلى هناك في نحو الساعة الرابعة. فإلى ذلك الحين أودعك الآن. ولا تنس أن تبعث إليّ بواحد من أولئك الأطباء التافهين. يجب عليّ أن أعالج بالمياه المعدنية أيضاً. أتراك تنسى أن تفعل؟

خرجت من عند الجدة كمن طاش صوابه. كنت أحاول أن أتصور ما سيحدث لأفراد جماعتنا كلهم، وأن أتخيل المجرى الذي ستجري فيه الأمور. كنت أرى رؤية واضحة أنهم لم يفيقوا بعد من الصدمة الأولى (وخاصة الجنرال). إن وصول الجدة بدلاً من البرقية التي كان يُرتقب وصولها من ساعة إلى ساعة منبئةً بموتها (ومنبئة تبعاً لذلك بفضّ الوصية) قد دمر جميع ما بنوه من مشاريع وخرّب ما اتخذوه من قرارات، حتى أصبحوا يتابعون باضطراب شديد وبنوع من الانشداه ما ستقوم به السيدة العجوز من مغامرات في الروليت. ومع ذلك فلعل هذا الأمر الثاني أن يكون أخطر شأناً من الأمر الأول، ذلك أن تصريح الجدة مرتين بأنها لن تعطي الجنرال شيئاً من المال، يجب أن لا يفقدهم مع ذلك كل أمل. لا شك أن دي جريو، المشارك في جميع شؤون الجنرال، لم ييأس. وأغلب الظن أن مدموازيل بلانش التي تهتم بالأمر اهتماماً كبيراً (أو التي لا بد أن تهتم به اهتماماً كبيراً على الأقل: زواج من الجنرال، وميراث عريض) لن تتثبط عزيمتها كذلك، وأنها سوف تعمد إلى جميع ما تملكه من وسائل الإغراء والفتنة والغنج للتأثير في الجدة، خلافاً لباولين المتغطرسة المتعجرفة التي لم تكن تجيد الخضوع ولا تحاول أن تجامل سعياً إلى الإرضاء. أما الآن، الآن وقد قامت الجدة بتلك المغامرات الطائشة في الروليت، الآن وقد تأكدت شخصيتها أمام أعينهم واضحة هذا الوضوح كله (عجوزاً عنيدة مستبدة متقهقرة إلى عهد الطفولة)، أما الآن فلعل كل شيء قد ضاع. لقد كانت سعيدة سعادة تلميذ تحرر من الحَجْر عليه، فلا بد أنه سيندفع في اللعب إلى أن ينتف ريشه نتفاً. قلت لنفسي (وأنا أشعر بفرح خبيث أسأل الله أن يغفره لي): يا رب، يا رب! إن كل دينار جازفت به الجدة منذ قليل، كان يطعن قلب الجنرال طعناً، وكان يخنق دي جريو خنقاً شديداً، وكان يثير غضب مدموازيل كومنج التي تمر الملعقة تحت أنفها! شيء

آخر: حتى حين راحت الجدة، وهي في فرحة الربح، توزع المال على جميع الناس، وتعد كل عابر شحاذاً، حتى حينذاك لم تستطع الجدة أن تمنع نفسها أن تقول للجنرال: «أما أنت فلن أعطيك شيئاً». هذا معناه أن العجوز قد استقرت على هذه الفكرة، وأنها مصرة عليها، وأنها آلت على نفسها أن تفعل. فالأمر إذن خطر خطر!

هذه الخواطر كلها كانت تضطرب في رأسي بينما كنت أصعد من عند الجدة على سلم الشرف إلى غرفتي الصغيرة في الطابق الأخير. كان ذلك كله يهمني كثيراً. ورغم أنني استطعت أن أستشف. الخيوط المتينة التي تشد هؤلاء الممثلين بعضهم إلى بعض أمام بصري، فلقد كنت أجهل دوافع هذه التمثيلية وأسرارها. إن باولين لم تمحضني ثقة كاملة في يوم من الأيام. صحيح أنها كانت قد فتحت لي قلبها أحياناً كالمكرهة على ذلك، ولكنني كنت قد لاحظت أنها في كثير من الأحوال، بل في جميع الأحوال تقريباً، ما تكاد تفضي إليّ ببعض الأسرار حتى تحيل إلى مزاح كل ما سبق أن قالته، أو حتى تبادر إلى «لخبطة» كل شيء فتعمّي الأمور عامدة. نعم... لقد كانت تخفي عني أشياء كثيرة. ومهما يكن من أمر، فقد كنت أحسّ أن هذا الوضع السرّي العجيب المتوتر يقترب من خاتمته. فما هي إلا ضربة واحدة حتى ينتهي كل شيء، ويزول كل قناع. أما مصيري أنا، وهو مرتبط بهذا كله أيضاً، فكنت لا أكاد أحفل به.

ما أغرب هذه الحالة النفسية التي أنا فيها: ليس في جيبي إلا عشرون فردريكاً، وأنا بعيد عن وطني، بلا مركز، بلا موارد، بلا أمل، بلا مشاريع، إلخ... ثم لا يقلقني ذلك! ولولا أن باولين ماثلة في ذهني، إذن لاستسلمت استسلاما تاما لهذا الاهتمام بالخاتمة القريبة التي ستختتم بها هذه المهزلة، ولضحكت ملء صدري. ولكن باولين تبث في نفسي الاضطراب.

إنني أحس أن مصيرها سيتقرر قريباً. ومع هذا فأنا أعترف أن ذلك ليس ما يشغل بالي. لعلني أتمنى أن أنفذ إلى أسرارها، أن تجيء إليّ فتقول «أنت تعلم أنني أحبك»، وإلا فما الذي أرغب فيه، إذا لم تكن هذه الفكرة الجنونية ممكنة التحقيق؟ هل أعرف ما الذي أرغب فيه؟ إنني كالذي فقد صوابه. إن كل ما أريده هو أن أبقى قريباً منها، في الهالة التي تحيط بها، في الإشعاع الذي يصدر عنها، إلى الأبد، مدى الحياة. لا أعرف أكثر من هذا... هل أطيق أن أبتعد عنها؟

لما بلغت الطابق الثالث شعرت، في دهليزهم، بما يشبه الصدمة؛ فالتفتّ فإذا أنا ألمح باولين على مسافة عشرين خطوة خارجة إلى الممر. لكأنها كانت تتربص بي، وتتجسس علي، وسرعان ما أومأت إليّ أن أقترب.

هتفت:

– باولين ألكسندروفنا...

فأمرتني بقولها:

– أخفض صوتك.

فقلت بصوت خافت:

– تصوري أنني أحسست في هذه اللحظة بما يشبه ضربة في جنبي، فالتفتت فإذا أنا أراك! لكأن شعاعاً يخرج منك.

قالت باولين وقد بان في وجهها التجّهم والهمّ (وأغلب الظن أنها لم تسمع كلامي):

– خذ هذه الرسالة فاعطها مستر آستلي حالا. فوراً. أرجوك. ولن يعطيك جواباً؛ إنه...

ولم تتم باولين جملتها.

قلت مدهوشا:

– أعطي الرسالة إلى مستر آستلي؟

ولكن باولين كانت قد اختفت.

– هكذا إذن. إن بينهما مراسلة...

وهرعتُ طبعاً أبحث عن مستر آستلي: ذهبت أولاً إلى الفندق فلم أجده، ثم مضيت إلى الكازينو فطفت في جميع قاعاته فلم أجده؛ وفيما كنت أعود إلى المنزل حانقاً غاضباً يائساً، رأيته مصادفة مع موكب من الإنجليز، رجال ونساء على ظهور الجياد. فأشرت إليه، فوقف، فناولته الرسالة. ولم يتسع الوقت لأن نتبادل كلمة واحدة. وأظن أن مستر آستلي قد تعمد ذلك، فهو ما إن تناول الرسالة حتى لكز حصانه يستحث خطاه!

هل كانت الغيرة تعذبني؟ لقد كنت منهاراً انهياراً كاملاً. لم أشأ حتى أن أستطلع موضوع المراسلة. هو موضع سرها ومحل ثقتها إذن! أما أنه صديقها فذلك واضح (منذ متى؟)، ولكن هل بينهما حب؟ همس لي عقلي قائلاً: «حتماً لا». ولكن العقل وحده ليس له كبير وزن في مثل هذه الحوادث. وكيف كان الحال، يجب عليّ أن أخرج هذا أيضاً إلى النور. كانت الأمور تتعقد تعقداً مزعجاً.

ما كدت أدخل الفندق حتى هرع إليّ البواب ورئيس الخدم يبلغاني أن الجماعة طلبتني، وأنها تسأل عني، وأنها أرسلت ثلاث مرات حتى الآن تستطلع عن المكان الذي ذهبت إليه، وأنها

ترجوني أن أمضي إلى منزل الجنرال بأقصى سرعة. كنت معتكر المزاج مضطرب النفس. وجدت الجنرال في حجرته ومعه دي جريو، ومدموازيل بلانش، وحدها دون أمها؛ لا شك أن هذه الأم كانت تمثل دور من له شأن، وهي في حقيقة الأمر لا شأن لها البتة. فمتى كان هناك «قضية» حقاً، رأيت مدموازيل بلانش تصرِّف الأمور وحدها؛ بل إنني لأشك في أن تكون هذه المرأة على علم بشؤون ابنتها المزعومة.

كانوا يتناقشون في كثير من الحرارة والاندفاع، حتى أن باب الغرفة كان مقفلاً بالمفتاح، وذلك أمر لم يسبق أن حدث يوماً. سمعت، حين اقتربت من الباب، صيحات متدفقة: سمعت لهجة دي جريو الوقحة الساخرة المستهزئة، وسمعت الشتائم الحانقة البذيئة تطلقها مدموازيل بلانش، وسمعت الصوت المتباكي، صوت الجنرال الذي كان واضحاً أنه يحاول أن يبرئ نفسه. فلما دخلت عليهم ثابوا إلى أنفسهم، وأصلحوا وضعهم. فها هو ذا دي جريو يعدل شعره ويصنع لنفسه وجهاً باسماً: يا لهذه البسمة الفرنسية، المتظرفة، الرسمية، كم أمقتها! وهذا هو الجنرال، المرهق، الطائش اللب، ينتصب، ولكن بحركة تشبه أن تكون آلية. إن مدموازيل بلانش وحدها لم تكد تغير هيئة الغضب والحنق في وجهها، فصمتت وهي تحدق إليّ بنظرة نافدة الصبر. يجب أن أذكر هنا أنها كانت إلى ذلك الحين تعاملني معاملة فيها من قلة الاكتراث ما لا يصدقه عقل، فهي ترفض حتى أن ترد على تحياتي وتتجاهل وجودي تجاهلاً كاملاً.

ابتدرني الجنرال يقول لي بلهجة عتب ودود:

– ألكسي إيفانوفتش! اسمح لي أن ألفت نظرك إلى أنه من الغريب، من الغريب كل الغرابة... أقول باختصار إن سلوكك نحوي ونحو أسرتي... أقول بإيجاز إن هذا السلوك عجيب، غريب إلى أقصى حدود الغرابة.

– ليس هذا هو الموضوع...

هكذا قاطعه دي جريو بحنق يمازجه احتقار (كان لا بد أن يتدخل في كل أمر...)؛ وأردف يقول:

– يا سيدي العزيز، يا سيدي العزيز، إن الجنرال يخطئ حين يتخذ هذه اللهجة (تابعتُ كلامه بالروسية). إنه يريد أن يقول لك، أعني أن ينبهك، أو قل أن يرجوك مُلحّاً أن لا تضيعه، نعم أن لا تضيعه! وأنا أستعمل هذا التعبير صراحة...

فقاطعته قائلاً:

– ولكن كيف؟ كيف؟

قال دي جريو مرتبكاً:

– اسمح لي، لقد جعلت من نفسك اليوم دليلاً (أو ماذا أقول؟) نعم، جعلت من نفسك دليلا لهذه السيدة العجوز، لهذه العجوز الرهيبة. ولكنها ستخسر، ستخسر آخر قرش تملكه! لقد رأيت بنفسك كيف تلعب، لقد شهدت ذلك بنفسك. فإذا أخذت تخسر، فلن تترك مائدة القمار بعد ذلك قط، عناداً وإصراراً أو خنقاً وغيظاً، وستقامر بكل شيء، ستقامر بكل شيء! إن المرء في مثل هذه الحالة لا يشوب إلى رشده، وعندئذ، عندئذ...

قال الجنرال مؤيداً:

– وعندئذ ستضيع الأسرة كلها... إننا، أنا وأسرتي، وَرَثَتها، فليس هناك من هو أقرب إليها منا. وإني لأقول لك بصراحة: إن أموري مضطربة، مضطربة أشد الاضطراب. ولعلك تعرف طرفاً من ذلك... فإذا خسرت مبلغاً ضخماً أو إذا خسرت ثروتها كلها وهذا ممكن (يا رب!)، فما عسى أن يصير إليه أولادي (قال الجنرال ذلك وهو يلقي نظرة على دي جريو)، وما عسى أن أصير إليه أنا (قال هذا ونظر إلى مدموازيل بلانش التي أشاحت وجهها باحتقار). أنقذنا يا ألكسي إيفانوفتش!

قلت:

– ولكن كيف يا جنرال، قل لي كيف أستطيع أن... أية سلطة لي عليها؟

قال:

– أرفض، أرفض، أتركها!...

فصحت أقول:

– سيوجد شخص آخر...

فقال دي جريو مقاطعاً مرة أخرى:

– ليس هذا هو الموضوع! ليس هذا هو الموضوع! لا لا تتركها، ولكن عظها، انصحها، أصرفها عن القمار... أو لا تدع لها أن تخسر كثيراً، سلّها بطريقة من الطرق.

فقلت مصطنعا السذاجة:

– ولكن كيف أفعل؟ ليتك تتولى هذا الأمر بنفسك يا مسيو دي جريو!

فما أن قلت هذا الكلام حتى رأيت نظرة سريعة، محرقة، متسائلة، تلقيها مدموازيل بلانش على دي جريو. فإذا بوجه دي جريو يتخذ، في مدى لمحة طرف، تعبيراً خاصاً صادقاً لم يستطع إخفاءه.

– المصيبة أنها لن تقبل هذا في أغلب الظن!

كذلك هتف دي جريو وهو يحرك يده بإشارة عجز. أما إذا... فيما بعد...

ثم ألقى دي جريو نظرة ذات دلالة على مدموازيل بلانش. فإذا بمدموازيل بلانش نفسها تجيء إليّ وهي تبتسم ابتسامة فاتنة، فتتناول كلتا يدي، وتشد عليها، وتقول لي:

– عزيزي السيد ألكسي، كن طيباً، كن شهماً.

إن هذا الوجه الشيطاني يعرف كيف يتحول على الفور! إن وجهها يعبر الآن عن ضراعة كبيرة، ولطف عظيم، إلى ابتسامة كابتسامة الأطفال، ومكر كمكر الأطفال. حتى لقد توجّهت إلي، في ختام عبارتها، بغمزة عابثة مختلسة؛ أتراها تريد أن تغزوني؟ إنها تعرف كيف تفعل ذلك، ولكن الأسلوب كان هنا مفضوحاً!

وانبجس الجنرال وراءها (نعم «انبجس)، هذه هي الكلمة)، فأخذ يقول لي متوسلاً:

– ألكسي إيفانوفتش، اغفر لي الطريقة التي استعملتها في التعبير منذ هنيهة؛ ليس ذلك ما كنت أريد أن أقوله تماماً. فإنما أنا أرجوك، بل أضرع إليك، وأنحني لك حتى الحزام على

الطريقة الروسية. أنت وحدك، وحدك تستطيع أن تنقذنا! أنا ومدموازيل دي كومنج نتوسل إليك، نبتهل إليك. أنت فاهم، أنت فاهم، أليس كذلك؟

قال هذه العبارة الأخيرة وهو يدلني بنظرته على مدموازيل بلانش. كان يُرثى لحاله حقاً، كان يبعث على الشفقة.

وفي هذه اللحظة نُقر الباب ثلاث نقرات خفيفة مهذبة. فلما فتح للطارق، ظهر خادم الطابق، وظهر وراءه، على مسافة بضع خطوات، بوتابتش واقفاً. لقد أرسلتهما الجدة، وأمرتهما أن يبحثا عني، وأن يجيئوها بي حالاً.

قال بوتابتش:

– إنها غاضبة.

قلت:

– ولكن الساعة لم تتجاوز الثالثة والنصف.

– لم تستطع أن تنام، لم تزد على أن التفتت، ثم إذا هي تنتصب فجأة، فتطلب كرسيها، وترسل تستدعيك. هي الآن على باب الفندق.

صاح دي جريو يقول:

– امرأة فظيعة.

ووجدت الجدة فعلاً عند فسحة المدخل، حانقة من غيابي. لم تطق الانتظار حتى الساعة الرابعة.

صاحت حين رأتني:

– هيا. قدني إلى هناك!

وعدنا إلى الروليت.

الفصل الثاني عشر

كانت الجدة مهتاجة اهتياجاً شديداً. وكان واضحاً أن الروليت تحاصر فكرها. إنها لا تنتبه الآن إلى شيء آخر غير الروليت، وتبدو ذاهلة ذهولاً قوياً على وجه العموم. من ذلك مثلاً أنها لم تلق عليّ أسئلة أثناء الطريق كما فعلت في الصباح. وحين لمحت عربة فخمة تتبختر أمامنا، حركت يدها قليلاً تسألني عن صاحب العربة، ولكنها لم تسمع جوابي في أغلب الظن. وكان يقطع استرسالها في الأحلام حركات متقطعة تنبئ عن نفاد الصبر، هيجانات مفاجئة ليست في الحسبان. حتى إذا اقتربنا من الكازينو، فرأيت البارون والبارونة فورمرهلم، فأشرت إليهما وسميتهما، نظرت إليهما نظرة ذاهلة تدل على أنها لا تكترث للأمر أقل اكتراث، ولم تزد على أن قالت: «هه!» وهي تلتفت بحركة قوية نحو بوتابتش ومارتا اللذين كانا يتبعانها، فتقول لهما:

– ما لكما تلازماني؟ لن أصحبكما في كل مرة! عودا...

وأضافت تقول لي حين انصرف الآخران بعد أن ودّعاها بتحية سريعة:

– أنت تكفيني.

كانت الجدة تُنتظر في الكازينو. وسرعان ما حُجز لها المكان نفسه، قرب القيّم. يُخيل إليّ أن هؤلاء القيميّين الذين يظهرون بمظهر الموظفين المتجردين الذين يكاد يستوي عندهم أن تربح الخزنة أو أن تخسر، ليسوا في حقيقة الأمر غير مبالين بالخزنة. فلا شك أنهم مزوّدون بتعليمات لاجتذاب المقامرين، والحرص على مصالح الضرائب، ولا شك أن هذا يعود

عليهم بمكافآت وهِبات. إن أقل ما يقال هو أنهم كانوا ينظرون منذ الآن إلى الجدة نظرتهم إلى ضحية.

ووقع ما كان يتوقعه جماعتنا. وإليكم كيف جرت الأمور:

اختارت الجدة الصفر رأساً، وأمرتني أن أحط اثني عشر فردريكاً دفعة واحدة. فحططنا مرة أولى، فمرة ثانية، فمرة ثالثة... ولكن الصفر لم يظهر. فكانت الجدة ما تنفك تلكزني بكوعها نافذة الصبر قائلة: «استمر، استمر». فكنت أطيع الأوامر.

وسألتني أخيراً وهي تصر بأسنانها من شدة الغيظ والحنق:

– كم مرة لعبنا؟ هم

– اثنتي عشرة مرة. وقد خسرنا مائة وأربعة وأربعين فردريكاً. أعود فأقول لك، قد يجيء المساء قبل أن...

فقاطعتني تقول:

– أسكت. حط على الصفر، وحط ألف فلورين أيضاً على الأحمر. هاك ورقة نقدية.

فخرج الأحمر، ولكن الصفر امتنع عن الخروج في هذه المرة أيضاً. ولمحت الألف فلورين.

قالت الجدة بصوت خافت:

– أرأيت؟ أرأيت؟ ها نحن استرجعنا كل ما خسرناه. حط أيضاً على الصفر. وسننصرف بعد عشر دورات.

ولكن العجوز استغنت عن الصفر بعد خمس دورات.

قالت لي آمرة:

– دعك من هذا الصفر المنحوس. خذ. حط أربعة آلاف فلورين على الأحمر.

فتضرعت إليها قائلاً:

– هذا كثير يا جدة!... ماذا إذا لم يخرج الأحمر؟

ولكنها أوشكت أن تضربني (هذا إلى أن لكزات كوعها كانت لطمات حقاً)، وكان لا بد من الامتثال لأمرها، فوضعت على الأحمر الأربعة آلاف فلورين التي ربحناها في الصباح. وأخذت الدائرة تدور. كانت الجدة هادئة، منتصبة القامة، معتزة، واثقة من أنها ستربح.

صاح القيّم:

ـ صفر.

فلم تفهم الجدة في أول الأمر؛ ولكنها حين رأت القيم يلم ألوفها الأربعة من الفلورينات مع كل ما كان موجوداً على المائدة، فأدركت أن الصفر الذي ظل مختفياً طوال تلك المدة والذي حططنا عليه ما يقرب من مائتي فردريك، قد ظهر الأن، كأنما عن عمد وقصد، بُعَيد أن أهانته وهجرته، صرخت صرخة تعجب، وصفقت كفاً بكف صفقاً مدوياً. فأخذ الناس من حولها يضحكون.

صرخت الجدة بصوت حاد تقول:

– يا قديسي الجنة! ها هو ذا يخرج الآن، هذا الجرو! الذنب ذنبك. هذا كله ذنبك (قالت ذلك وهي تهجم عليّ حانقة وتأخذ تنكعني). أنت ثنيتني عن الصفر.

– يا جدة، أنا حاولت أن أردك إلى التعقل، ولست مسؤولا عن جميع الحظوظ.

فجمجمت تقول بلهجة التهديد:

– لسوف أعطيك حظوظاً. هيا انصرف!

قلت وأنا أتحول عنها كمن يريد أن ينصرف:

– وداعاً يا جدة.

– ألكسي إيفانوفتش، ألكسي إيفانوفتش! ابق معي. إلى أين أنت ذاهب؟ ابق، ابق قليلاً أيضاً. أنا الحمقاء. أنا الغبية. قل لي الآن ما يجب أن نفعل.

– لن أنصحك بشيء بعد الآن يا جدة، حتى لا تلوميني. العبي بنفسك. أنت تأمرين، وأنا أحط.

– طيب طيب: حط أيضاً أربعة آلاف فلورين على الأحمر. إليك محفظتي (قالت ذلك وهي تخرج محفظتها من جيبها وتمدها إليّ). أسرع. فيها عشرون ألف روبل.

تمتمت أقول:

– يا جدة! هذه مبالغ...

– أوثر أن أشنق على أن لا أسترد. حط.

فحططنا وخسرنا.

– حط أيضاً. حط أيضاً. حط ثمانية آلاف دفعة واحدة.

– هذا محظور يا جدة. الحد الأقصى الذي يجوز حطه هو أربعة آلاف.

– حط إذن أربعة آلاف.

فربحنا في هذه المرة. فاستردت الجدة شجاعتها.

قالت لي وهي تلكزني بكوعها:

– أرأيت؟ أرأيت؟ حط أربعة آلاف أخرى.

فحططنا، فخسرنا، ثم حططنا ثم خسرنا...

قلت لها مبلّغاً:

– ضاعت الاثنا عشر ألف فلورين يا جدة.

فأجابتني بنوع من الحنق الهادئ إن صح التعبير:

– أعرف أنها ضاعت.

ثم أضافت مدمدمة، وهي جامدة النظر كأنها تفكر:

– أعرف أنها ضاعت يا عزيزي، أعرف. هيه! سوف أخسر هنا جلدي نفسه. ولكن لا ضير... حط أربعة آلاف فلورين أخرى.

– لم يبق معنا نقود يا جدة. لم يبق في محفظتك إلا صكوك روسية بفائدة خمسة في المائة، وبضعة سندات؛ أما المال فلا مال.

– وفي كيسي؟

– نقود صغيرة يا جدة.

فقالت الجدة بلهجة قاطعة:

– ألا يوجد هنا صرافون؟ لقد قيل لي إن في وسعنا أن نبدّل جميع ما معنا من سندات وصكوك.

– تستطيعين تبديل كل ما تريدين تبديله. ولكنك ستخسرين في عملية التبديل... ألا أن يهودياً ليرتعش من هذا.

– سخافات! أريد أن أسترد مالي. قدني إلى الصرافين. استدع هؤلاء الأوغاد.

فدحرجت الكرسي، وهرع الحمالون يدركوننا، وخرجنا من الكازينو.

قالت الجدة آمرة:

– مزيداً من السرعة، مزيداً من السرعة! أرنى الطريق يا ألكسي إيفانوفتش... خذنا إلى أقرب صراف... أهو بعيد؟

– على مسافة خطوتين يا جدة.

ولكن، عند المنعطف، حين اجتزنا الساحة وسلكنا طريق أشجار الكستناء، صادفنا جماعتنا كلها: الجنرال ودي جريو ومدموازيل بلانش وأمها، ولم تكن باولين ألكسندروفنا معهم، ولا مستر آستلي.

– هيا بنا، هيا بنا. لن نتوقف. ماذا تريدون؟ ليس في وقتي متسع لكم!

كذلك صاحت الجدة.

وكنت أسير في الخلف، فلحق بي دي جريو، فقلت له بصوت خافت على عجل:

– خسرت كل ما ربحته في الصباح، واثني عشر ألفاً زيادة. ونحن ذاهبون نبدل سندات فائدتها خمسة في المائة.

فضرب دي جريو الأرض برجله، وهرع ينبئ الجنرال بالخبر. وكنا ما نزال ندفع كرسي الجدة.

فتمتم الجنرال يقول لي وقد جن جنونه غضباً:

– امنعها، امنعها.

فأجبته:

– حاول ذلك أنت!

فقال الجنرال وهو يقترب:

– يا عمتي، يا عمتي الطيبة... نحن ذاهبون... نحن ذاهبون (كان صوته يرتجف ثم تكسّر) نستأجر جياداً لنقوم بجولة في البرية... منظر رائع... القمة... كنا آتين لندعوك أن تصحبينا.

فقالت الجدة بحركة من نفد صبره لتدفعه عنها:

– اذهب أنت وقمتك إلى الشيطان!

فاستأنف الجنرال يقول وقد فقد الأمل في هذه المرة:

– يوجد هنالك قرية... نحتسي فيها الشاي...

وأضاف دي جريو بلهجة تنم عن عداوة كاسرة:

– وسنشرب لبناً على العشب الطري الأخضر.

لبن، عشب طري أخضر، ذلك أقصى ما يتخيله بورجوازي باريسي من متعة شعرية؛ ذلك هو، كما تعرفون، كل تصوره للطبيعة والحقيقة.

قالت الجدة:

– لا يهمني لبنك. اذهب فاشرب منه وحدك. أما أنا فاللبن يؤذي معدتي. لماذا تلح؟ قلت إن وقتي لا يتسع!

صحت أقول للجدة:

– وصلنا يا جدة!

ودفعنا كرسيها نحو المكان الذي يوجد فيه مكتب الصراف. ومضيت أنا أتولى تبديل السندات، ولبثت الجدة تنتظرني عند المدخل. وظل دي جريو والجنرال وبلانش بعيدين لا يعرفون ماذا عساهم صانعين. ورشقتهم الجدة بنظرة غضبى، فساروا في الطريق إلى الكازينو.

عرض عليّ الصراف سعراً بخساً جداً، فترددت وعدت أسأل الجدة ما تأمر به.

فصاحت الجدة وهي تصفق يداً بيد:

–آ... يا لهم من لصوص! ولكن اقبل مع ذلك.

ثم قالت لي متداركة:

– انتظر. ادع لي صاحب المصرف.

– بل أحد الموظفين يا جدة!

– سيان. أدع أحد الموظفين. آه... يا للصوص!

ورضي الموظف أن يخرج حين علم أن التي تستدعيه كونتيسة عجوز ضعيفة عاجزة. فألقت عليه العجوز خطاباً طويلا، وصفته فيه بأنه نشال، وبأنه مختلس، وبأنه... وكان خطابها مزيجاً من روسية وإنجليزية وألمانية، فكنت مضطراً أن أترجمه له. فكان الموظف، القاسي الوجه، ينظر إلينا كلينا هازاً رأسه دون أن ينبس بكلمة؛ حتى لقد كان يتفرس في الجدة باستطلاع ملحاح يقارب قلة الأدب. ثم أخذ يبتسم.

صرخت الجدة تقول:

– طيب طيب... هيا... إن شاء الله يخنقك مالي. بدّل عنده يا ألكسي إيفانوفتش، ليس لدينا متسع من الوقت، فإن لم نبدل عنده كان علينا أن نمضي إلى غيره...

– هو يدّعي أن غيره يعطي سعراً أبخس من سعره.

لا أتذكر الآن كما كانت «العمولة» على وجه الضبط، ولكنها كانت رزية. قبضت اثني عشر ألف فلورين، دنانير ذهبية وأوراقاً نقدية، وأخذت فاتورة الحساب، ومضيت بها إلى الجدة.

قالت الجدة وهي تحرك يدها:

– طيب طيب. لا داعي للعَدّ. أسرع. أسرع.

حتى إذا صرنا قرب الكازينو دمدمت قائلة:

– لن أحط شيئاً بعد الآن قط لا على الصفر المنحوس، ولا على الأحمر.

وحاولت في هذه المرة، بكل ما أوتيت من قوة، أن أقنعها بأن لا نحط إلا مبالغ ضئيلة في أول الأمر، حتى إذا رأينا الحظ يواتينا أخذنا نحط مبالغ ضخمة. ولكنها كانت نافدة الصبر، فرغم أنها استجابت لحججي في البداية، لم تستطع أن تملك زمام نفسها أثناء اللعب. وما أن أخذت تربح عشر فرديكات أو عشرين حتى راحت تلكزني بكوعها قائلة:

– أرأيت؟ أرأيت؟ لقد رحنا، فلو قد حططنا أربعة آلاف فلورين بدلاً من عشر، إذن لربحنا أربعة آلاف. أما الآن... إن الذنب في ذلك كله ذنبك.

فقررت أخيراً أن أصمت وأن أعدل عن إسداء النصح لها بتاتاً، رغم ما كنت أشعر به من غيظ حين أراها تقامر بهذه الطريقة.

وها هو ذا دي جريو ينبجس على حين فجأة. لقد كانوا هم الثلاثة في أطراف القاعة. لاحظت أن مدموازيل بلانش كانت منتحية جانباً مع أمها في صحبة الأمير القصير تلاطفه وتتودد إليه. وكان واضحاً أن الجنرال منبوذ، حتى ليكاد يكون منفياً. إن مدموازيل بلانش ترفض حتى أن تنظر إليه، رغم تقربه منها واحتفاله بها. مسكين هذا الجنرال! لقد كان يصفرّ ويحمرّ ويرتعش، منصرفاً حتى عن مراقبة مقامرات الجدة. وخرجت بلانش أخيراً مع الأمير، فهرع الجنرال يعدو في أثرهما.

قال دي جريو مُوَشْوِشاً الجدة بصوت متلطف متظرف:

– مدام، مدام... هذا اللعب لن يربح... مستحيل.

قال ذلك بلغة روسية رديئة.

فسألته الجدة:

– فماذا أفعل إذن؟ قل لي ما ترى أن أفعله!

فأخذ دي جريو يتكلم بالفرنسية متدفقاً، ويسدي النصائح تلو النصائح، ويقول إنه كان عليها أن تنتظر موافاة الحظ، حتى لقد أخذ يجري بعض الحسابات. لم تفهم الجدة شيئا. وكان دي جريو يلتفت إليّ في كل لحظة من أجل أن أترجم. وكان يسدد إصبعه نحو المائدة يُظهر الجدة على ما يريد إظهارها عليه، وتناول آخر الأمر قلماً فألقى على الورق بعض الأرقام. فنفذ صبر الجدة، فقالت له:

– امض، امض! ما أراك قائلاً إلا خزعبلات: «مدام، مدام». وأنت لا تفقه شيئاً! هيا اذهب.

فتمتم دي جريو يقول مستأنفاً التوضيح والشرح، وكان جلياً أنه كالملسوع:

– ولكن يا مدام.

فأمرتني الجدة قائلة:

– طيب... حط مرة كما يقول: فقد ينجح نصحه.

كان كل ما يريده دي جريو أن يمنعها من حط مبالغ، ضخمة: فاقترح عليها أن تحط على الأرقام منفصلة متسلسلة. فاتبعت رأيه، فحطت فردريكا على سلسلة من الأعداد الشفعية في الاثني عشر الأولى، وحطت خمسة فرديكات على مجموعات من الأرقام من اثني عشر إلى ثمانية عشر ومن ثمانية عشر إلى أربع وعشرين: وبذلك حططنا مبلغاً مقداره ستة عشر فردريكا. وأخذت الدائرة تدور.

– صفر.

بهذا صاح القيم. فخسرنا كل ما حططناه.

هتفت الجدة ملتفتة نحو دي جريو تقول:

– ما هذا القوق الذي جاءنا! ما هذا الفرنسي السخيف؛ انظر إلى هذا الطِرْح يسدي إلينا بنصائحه! هيا امض، امض. لا يفقه شيئاً ثم يحشر أنفه في كل شيء!

فاستاء دي جريو استياء فظيعاً، فرفع كتفيه استخفافاً، وألقى على الجدة نظرة احتقار، ثم انسحب. لقد شعر بالعار من تدخله في شأنها وتعريض نفسه للمهانة منها، ولكنه لم يطق أن يمنع نفسه عن ذلك.

وما انقضت ساعة واحدة، إلا وقد خسرنا كل شيء، رغم جميع الجهود المستميتة.

صرخت الجدة قائلة:

– لنعد إلى المنزل.

فخرجنا. ولم تنبس الجدة بكلمة واحدة طوال مسيرتنا حتى بلغنا طريق أشجار الكستناء. وهناك، في هذا الطريق، حين أوشكنا أن نصل إلى الفندق، أفلتت من لسانها عبارات كهذه:

– يا لي من بلهاء! يا لي من حمقاء! ما أنا إلا عجوز غبية..

حتى إذا صرنا في مسكنها صاحت تقول:

– إليّ بشيء من الشاي. ولنتهيأ للسفر رأساً بعد ذلك. سوف نسافر.

قالت مارتا مجازفة:

– إلى أين تريدين أن تذهبي يا سيدتي الطيبة؟

فأجابتها الجدة:

– أهذا شأنك؟ اهتمي بأمورك أنت. يا بوتابتش، هيئ جميع الأمتعة. نحن عائدون إلى موسكو. لقد خسرت خمسة عشر ألف روبل فضة.

– خمسة عشر ألفاً، يا سيدتي العزيزة؟ رباه رباه!

هكذا صاح بوتابتش، وهو يضرب كفاً بكف، مظهراً الإشفاق والحزن، لاعتقاده أن هذا يرضي سيدته.

– هيا هيا أيها الغبي! ها هو ذا قد أخذ يتباكى! أسكت. وامض هيئ السفر. وليأتوني بفاتورة الحساب بأقصى سرعة.

قلت من أجل أن أهدئ روعها:

– يسافر القطار التالي في الساعة التاسعة والنصف، يا جدة.

– وكم الساعة الآن؟

– السابعة والنصف.

– شيء مضجر! لا بأس! ألكسي إيفانوفتش، لم يبق معي قرش واحد. إليك بهاتين الورقتين النقديتين، فأسرع إلى هناك لتبديلهما، وإلا لم يكن معي ما أسافر به.

فخرجت ممتثلاً لأمرها. حتى إذا رجعت بعد نصف ساعة وجدت جميع أصدقائنا عند الجدة. كانوا كمن أذهلهم نبأ رحيلها المفاجئ إلى موسكو. أكثر ما أذهلهم نبأ الخسارة التي منيت بها في الروليت. ما عسى أن يصير إليه الجنرال بعد رحيلها، مع التسليم بأن رحيلها هذا ينقذ ثروتها من الضياع؟ من ذا الذي سيرد إلى دي جريو ديونه؟ إن مدموازيل بونش لن تنتظر موت الجدة، ولا شك أنها ستنسلّ مع الأمير الصغير أو مع شخص آخر. لقد كانوا جميعًا هنالك، أمام الجدة، يحاولون أن يواسوها وأن يردوها إلى الصواب. وكانت باولين غائبة في هذه المرة أيضاً. وكانت الجدة تصليهم ناراً من السب المقذع والشتم القاسي.

– ابعدوا عن طريقي أيها الجن! لماذا تتدخلون في شئوني؟ فيم تأتي لحية التيس هذا فتتحكك بي؟ (بهذا كانت الجدة تصيح في وجه دي جريو). وأنت يا ببغاء، ماذا تريدين؟ (بهذا قذفت مدموازيل بلانش) مالك تتهززين؟

كانت عينا مدموازيل بلانش تقدح شررًا من شدة الغضب، فما لبثت أن دمدمت تقول:

– يا للشيطان!...

ولكنها انفجرت تقهقه على حين فجأة، ثم مضت تخرج من الغرفة. حتى إذا صارت على الباب صرخت تقول للجنرال:

– لسوف تعيش مائة عام.

فصاحت الجدة بصوت حاد تقول للجنرال:

– إذن فأنت تعوّل على موتي! هيا أغرب عن وجهي. يا ألكسي إيفانوفتش، اطردهم جميعاً! ما شأنكم أنتم؟ لقد خسرت مالي أنا لا مالكم أنتم!

فرفع الجنرال كتفيه، وحنى ظهره، وخرج، وتبعه دي جريو.

قالت الجدة تأمر مارتا:

– ناد براسكوفيا.

فما هي إلا خمس دقائق حتى عادت مارتا مصطحبة باولين. لقد ظلت باولين طوال تلك الفترة في غرفتها مع الأطفال (لا شك أنها قررت عامدة أن لا تخرج في ذلك النهار). وكان وجهها ينم عن حزن وهَمْ.

بادرتها الجدة بقولها:

– أصحيح يا براسكوفيا ما علمته منذ قليل على نحو غير مباشر من أن زوج أمك يريد أن يتزوج تلك المرأة المذبذبة، تلك «الفرنسية» التي لا أدري أهي ممثلة أم هي شر من ذلك أيضاً؟ قولي أصحيح هذا؟

فأجابت باولين:

– لا أعلم شيئًا علم اليقين يا جدة، ولكنني أستنتج من أقوال مدموازيل بلانش التي لا ترى أن من المفيد أن تخفي الأمر، أستنتج أن...

فقاطعتها الجدة قائلة بلهجة قوية:

– كفى. فهمت كل شيء! ولقد كانت دائماً أقدّر أنه سينتهي إلى هذه النهاية، وكانت دائماً أعدّه أفرغ رجل وأطيش رجل على وجه الأرض. إنه يتباهى برتبة الجنرال التي يحملها (وقد أخذها حين أُحيل على التقاعد وهو في رتبة كولونيل)، ويتخذ أوضاع الأبهة والعظمة. ولكنني أعرف كل شيء يا عزيزتي؛ أعرف أنكم أرسلتم البرقية تلو البرقية إلى موسكو تسألون: «هل ماتت الجدة العجوز؟ هل هي مشرفة على الموت؟». هذا هو معنى تلك البرقيات. كنتم تنتظرون أن ترثوني. ولولا هذا المال لما كان لهذه المخلوقة (ما اسمها؟ دي

كومنج فيما أظن!) أن ترضاه خادماً لها بأسنانه المصنوعة هذه! يقال إنها تملك مالًا كثيراً، وأنها تقرض بالربا، وأنها كوّنت لنفسها كنزاً. لست أتهمك يا براسكوفيا، فما أنت التي أرسلت البرقيات، ولا أريد أن أعود إلى الماضي. أنا أعلم أن لك طبعاً سيئاً.. أنا أعلم أنك... زنبور... إذا لسبع أوجع وأورم! ولكنني أشعر بالشفقة عليك، لأنني كنت أحب والدتك المرحومة كاترين، فاسمعي ما سأقوله لك: دعي كل هذا، وتعالي معي. ليس هناك مكان تذهبين إليه، وليس يليق بك أن تبقي معهم الآن. انتظري، (قالت الجدة ذلك لباولين حين همت باولين أن تجيبها) لم أتم كلامي بعد. لن أطلب منك شيئاً. أنت تعرفين منزلي بموسكو: إنه قصر. لسوف تحتلين طابقاً بأسره إذا شئت؛ وفي وسعك أن تمكثي أسابيع بكاملها دون أن تجيئي إليّ إذا كان طبعي لا يرضيك. أتقبلين أم لا؟

– اسمحي لي أن ألقي عليك أولًا هذا السؤال: أنت تنوين حقاً أن ترحلي على الفور؟

– هل يظهر في وجهي أنني أمزح، يا صغيرتي؟ قلت إنني سأسافر، فسأسافر. خسرته اليوم خمسة عشر ألف روبل فضة، في هذه الروليت المنحوسة الملعونة.

لقد نذرت منذ خمس سنين أن أعيد بناء الكنيسة المبنية بخشب، والموجودة في أراضيّ حوالي موسكو، نذرت أن أعيد بناءها بحجر؛ فبدلاً من أن أحقق النذر، رحت أدمر نفسي اليوم في القمار. وإنني أسافر الآن يا عزيزتي لأنفذ النذر فأعيد بناء كنيستي.

– والمياه المعدنية يا جدتي؟ لقد جئت إلى هنا للاستشفاء بالمياه المعدنية.

– دعيني من مياهك المعدنية! لا تغضبيني يا براسكوفيا! أأنت تفعلين هذا عامدة؟ قولي: أتجيئين معي أم لا تجيئين؟

فبادرت باولين تقول بانفعال وتأثر:

– أنا يا جدتي ممتنة أشد الامتنان لما تعرضينه عليّ من إيوائي في منزلك. لقد حزرت بعض الوضع الذي أنا فيه. فأنا أشكر لك ذلك أجزل الشكر، بل أبلغ من هذا الشعور بالجميل الذي تقدمينه لي أنني قد ألحق بك قريباً، صدقيني. أما الآن فهناك أسباب... هامة... فلا أستطيع أن أعزم أمري وأتّخذ قراري على الفور. ولكن إذا مكثت هنا ولو خمسة عشر يوماً...

– إذن أنت لا تريدين؟

– لا أستطيع. يضاف إلى ذلك أنني لا أقدر على ترك أخي وأختي... إذ يمكن أن يبقيا وحيدين... فإذا كنت توافقين على ضم الطفلين يا جدتي، فلا شك في أنني سأجيئ إليك؛ وثقي أنني سأكون جديرة بهذا (أضافت باولين هذه العبارة الأخيرة بحرارة وحماسة). أما بدون الأطفال، فلا أستطيع يا جدتي...

– طيب طيب... دعيك من التباكي (والحق أن باولين لم يخطر ببالها أن تتباكى، ثم إنها لم تذرف في حياتها دمعة) سنجد مكاناً للأفراخ: العش واسع سعة كافية. ثم إنه قد آن للطفلين أن يذهبا إلى المدرسة. إذن لن تسافري الآن. حذار يا براسكوفيا! إنني أريد لك الخير، وأعلم لماذا تريدين أن تسافري... إنني أعرف كل شيء يا براسكوفيا! لا تتوقعي خيراً من هذا الفرنسي الصغير الحقير.

احمرت باولين احمراراً شديداً. وارتعشت أنا (كانوا جمعياً يعلمون.. وكنت أنا الجاهل الوحيد).

– لا أريد أن أفيض في هذا الموضوع. ولكن حذار أن تقع كارثة.. هل تفهمين ما أريد أن أقول؟ أنت فتاة ذكية، ولسوف يحزُّ في نفسي أن يصيبك سوء. حسبي هذا الآن. ولا تريني وجهك بعد اليوم! هيا اذهبي. وداعا.

قالت باولين:

– سأصحبك يا جدتي..

– لا فائدة، لسوف تزعجينني... وقد غمرتني بالمزعجات حتى قمة الرأس.

قبّلت باولين يد الجدة، ولكن الجدة سحبت يدها وقبّلت الفتاة على خدها.

وحين مرت باولين أمامي ألقت عليّ نظرة سريعة، ثم أشاحت ببصرها عني على الفور.

– أودّعك أنت أيضاً يا ألكسي إيفانوفتش! لم يبق لسفر القطار إلا ساعة واحدة. وما أحسب إلا أنك قد تعبت مني. خذ هذه الخمسين فردريك.

قلت:

– أشكر لك هذا أجزل الشكر يا جدة ولكنني لا أجرؤ أن...

فصاحت الجدة تقول بصوت بلغ من العنف والتهديد أنني لم أتجاسر أن أرفض، فتناولت المال.

وأضافت قولها:

– إذا وُجدت يوماً في موسكو بغير وظيفة، فتعال إليّ لأوصي بك. والآن هيا انصرف..

مضيت إلى غرفتي وتمددت على سريري. لبثت مستلقياً على ظهري، طاوياً ذراعي تحت رأسي، قرابة نصف ساعة. لقد انفجرت الكارثة، وثمة ما يوجب التفكير. وقررت أن أحدّث باولين في الغداة جاداً. هه! الفرنسي الصغير. الأمر إذن صحيح؛ ولكن ما الذي عساه حدث؟ باولين ودي جريو؟ يا رب يا رب! أي تقارب هذا التقارب؟

حقاً إن هذا أمر لا يصدقه العقل. ورأيتني أنهض فجأة وقد خرجت عن طوري، لأمضي باحثاً عن مستر آستلي على الفور، ولأحمله على الكلام مهما كلف الأمر. لا شك عندي في أنه يعرف عن هذا الأمر أكثر مما أعرف. مستر آستلي؟ ألا إنه لغز هو أيضاً!. ولكنني ما لبثت أن سمعت طرقاً على باب غرفتي، ففتحت لأرى من عسى يكون الطارق، فوجدتني أمام بوتابتش.

– يا سيدي الطيب ألكسي إيفانوفتش، إن سيدتي تطلب أن تجيء إليها.

– ماذا جرى؟ هل عدلت عن الرحيل؟ لم يبق لسفر القطار إلا عشرون دقيقة؟.

– إنها مضطربة أشد الاضطراب يا عزيزي، لا تكاد تستطيع الاستقرار في مكانها. «أسرع، أسرع!» إنها تطلبك أنت، ناشدتك الله لا تتأخر!

فنزلت حالاً. فوجدت العجوز قد نقلت إلى الدهليز، وفي يدها محفظة نقودها. فما أن رأتني حتى قالت:

– ألكسي إيفانوفتش، سر أمامنا، إننا ذاهبون إلى هناك.

– إلى أين يا جدة؟.

– لسوف أسترد مالي ولو كان عليّ أن أهلك! هيا، امش. لا تلقِ عليّ أي سؤال. اللعب يستمر إلى منتصف الليل، أليس كذلك؟..

جمدت في مكاني مطرقاً أفكر. ولكنني ما لبثت أن اتخذت قراراً.

– لك ما تشائين يا أنطونين فاسيلفنا. ولكنني لن أصحبك.

– لماذا؟ ما الذي جرى؟ أية ذبابة لسعتكم جميعاً؟

– لك ما تشائين يا جدة. ولكنني لا أريد أن أندم في المستقبل، لا أريد. لن أكون لا شاهداً ولا مشاركاً. اعفيني من هذا يا أنطونين فاسيليفنا! إليك الخمسين فردريكا التي أعطيتنيها، والوداع!

قلت هذا ووضعت لفة الدنانير الذهبية على منضدة صغيرة كانت موجودة إلى جنب كرسي الجدة، ثم حييت وانصرفت.

صاحت الجدة تقول:

– ما هذه البلاهة! طيب، لا تجيء، سأعرف الطريق بنفسي. تعال معي يا بوتابتش. هيا جروني!

لم أعثر على مستر آستلي، فعدت إلى الفندق. وفي وقت متأخر من الليل، في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، عرفت من بوتابتش كيف انتهى يوم الجدة. لقد خسرت كل ما كنت قد بدّلته لها، أي عشرة آلاف روبل أخرى. إن البولوني الذي سبق أن أهدت إليه دينارين، قد تعلق بأذيالها، ووجّه لعبها طوال الوقت. اعتمدت في أول الأمر على بوتابتش، ولكنها لم تلبث أن طردته. وفي تلك اللحظة إنما ظهر البولوني. ومن المصادفات التي تشبه أن تكون مقصودة أن هذا البولوني كان يفهم اللغة الروسية، وكان يرطن بعض الرطن بخليط من ثلاث لغات، فأمكن أن يتفاهما. وكانت الجدة تقسو عليه قسوة شديدة وتغلظ له القول رغم أنه «يزحف بين قدميها زحفا».

وأضاف بوتابتش يحكي القصة قائلاً:

– لا وجه للمقارنة بينك وبينه يا ألكسي إيفانوفتش. لقد كانت تعاملك أنت معاملتها سيداً من السادة. أما الآخر (رأيته بأم عيني، وليصعقني الله صعقاً إن كنت كاذباً) فقد كان يسرق مالها على مرأى منها؛ حتى لقد ضبطته متلبساً بالجرم مرة أو مرتين، فشتمته، ووصفته بجميع الأوصاف، بل لقد شدت شعره. صحيح لست أكذب. وقد ضحك الناس من ذلك. خسرت كل شيء يا سيدي الطيب: خسرت كل ما كان معها، كل ما بدّلته لها. ورجعنا بها إلى هنا، السيدة العزيزة. فما زادت على أن طلبت كأساً من ماء، ثم رسمت إشارة الصليب، ومضت إلى فراشها على الفور. أسأل الله أن يبعث إليها بأحلام ملائكية!

وختم بوتاي تش قصته قائلا:

– آه آه من البلاد الأجنبية! لقد قلت إن هذه الرحلة إلى الخارج لن تأتي بخير. فلنعد بسرعة إلى مدينتنا العزيزة موسكو. ماذا كان ينقصنا هنالك؟... حديقة جميلة، وأزهار لا نرى لها هنا مثيلاً، وهواء نقي، وأشجار غضة، ومكان فسيح.. لا يجب أن نسافر إلى الخارج. آه آه..

الفصل الثالث عشر

منذ شهر تقريباً لم ألمس هذه المذكرات التي بدأت كتابتها وأنا نهب مشاعر مضطربة مشوشة لكنها قوية عنيفة. إن الكارثة التي كنت أحس اقترابها قد وقعت، ولكنها جاءت أقوى وأسرع مما كنت أتصور، مائة مرة. كان كل شيء عجيباً فاضحاً، بل فاجعاً، فيما يتصل بي أنا على الأقل. لقد وقعت لي أمور تشبه أن تكون معجزات؛ أو هذا ما أراه فيها حتى الآن، رغم أنها لا تكاد تستحق أن توصف إلا بأنها استثنائية بعض الشيء، إذا نحن نظرنا إليها من زاوية أخرى. ولكن المعجزة، بالنسبة إلي، هي ذلك السلوك الذي سلكته وسط تلك الأحداث... إنني ما زلت عاجزاً عن الفهم! ولقد وقع ذلك كله كأنه حلم... وحتى هيامي بباولين يصدق عليه هذا الوصف. ولقد كان حبي قويا صادقا مخلصا مع ذلك. ولكن ماذا أصبح الآن؟ إنه ليخطر ببالي هذا السؤال فجأة في بعض الأحيان: «ترى ألم أكن مجنوناً حينذاك؟ ألم أقض ذلك الوقت كله في مستشفى من مستشفيات المجانين؟ ألا يمكن أن أكون في مستشفى من مستشفيات المجانين حتى الآن؟ ألا يمكن أن يكون كل ما وقع أشباحاً ظهرت لي وما تزال؟..».

ومن يدري؟ لعلني ما جمعت هذه المذكرات وأعدت قراءتها إلا لأقنع بأنني لم أكتبها في مستشفى من مستشفيات المجانين! أنا الآن وحيد في هذا العالم. لقد جاء الخريف، واصفرّت أوراق الأشجار. إنني أقيم في هذه البلدة الصغيرة الكالحة (آه ما أشد ما يمكن أن تكون المدن الألمانية الصغيرة حزينة كئيبة!)، وبدلاً من أن أفكر في المستقبل، أراني أحيا تحت تأثير ذكريات حديثة، تحت تأثير كل تلك العاصفة التي ما تزال قريبة، تلك العاصفة التي حملتني

زوبعتها زماناً ثم ألقتني على الأرض. وما زلت أحس في بعض اللحظات أن الزوبعة ستأخذ بي، أن الصاعقة ستنطلق، فيطبق جناحها عليّ أثناء عبورها، وأنني وقد فقدت التوازن وطاش صوابي، سآخذ أدور، وأدور، وأدور...

على أنني قد أثبت وأكفّ عن الدوران، إذا أنا أوجزت كل ما وقع خلال هذا الشهر إيجازاً دقيقاً صحيحاً. إن بي حاجة إلى الإمساك بالقلم من جديد. ثم إنني في بعض الأحيان لا أجد ما أعمله إطلاقاً إذا جاء المساء. ومن عجب أنني، من أجل أن أشغل نفسي، أستعير من القاعة الحقيرة المخصصة للمطالعة في هذه البلدة روايات للمؤلف بول دوكوك (مترجمة إلى الألمانية)، وهي روايات لا تطاق ولا تحتمل، ولكنني أقرؤها، وأستغرب أنا نفسي لماذا أقرؤها: لكأنني أخشى إذا أنا قرأت كتباً ذات شأن أو شغلت نفسي بأمر ذي بال، أن أنفصل عن عالم السحر والافتتان الذي تبدد منذ حين؛ لكأن هذا الحلم المضطرب المشوّش الذي عشت فيه وجميع تلك المشاعر التي خلفها في نفسي، عزيزة عندي إلى حد أخشى معه كل اتصال جديد، مخافة أن تتبدد دخاناً! أفأكون إذن حريصاً على هذا كله هذا الحرص الشديد كله؟ نعم، لا شك في ذلك. ولعلني سأظل أتذكره أربعين سنة..

ها أنا ذا أمسك بالقلم إذن. وعلى كل حال فإن جميع الأمور يمكن أن تسرد الآن سرداً موجزاً سريعاً: ذلك أن أحاسيسي ليست الآن كما كانت من قبل.

ولنبدأ أولاً بالكلام على الجدة فنفرغ منها. لقد خسرت في الغداة كل شيء. وكان لا بد أن يحدث ذلك: فإن من يسير مثلها في هذه الطريق ينحدر بسرعة ما تنفك تزداد، كأنه يتدحرج

على زلاقة من قمة جبل تغطيه الثلوج. لقد ظلت تقامر طوال النهار حتى الساعة الثامنة من المساء. ولم أشهد أنا ذلك، وإنما رُوِيَ لي.

كان بوتابتش يصحبها خفيراً لها في الكازينو من أول النهار إلى آخره. والبولونيان اللذان كانا يوجّهانها قد حل كل منهما محل الآخر عدة مرات. لقد بدأت بطرد البولوني الذي وجهها في الليلة البارحة والذي شدت شعره؛ طردته وأحلت محله بولونياً آخر. ولكن البولوني الثاني كان أسوأ من صاحبه، فما لبثت أن طردته، واستعادت الأول الذي لم يبارح المكان، بل ظل يحوم وراء كرسيها بعد فقدانه حظوتها، ماداً رأسه في كل لحظة من فوق كتفها. وأصبحت الجدة آخر الأمر في حالة انهيار كامل. والبولوني الثاني لم يشأ هو أيضاً أن يغادر المكان: فاستقرّ أحد الرجلين على يمين الجدة، واستقر الثاني على يسارها. وكانا لا ينفكان يتشاجران ويتشاتمان لاختلافهما في الرأي حول المبالغ التي يجب حطها والمواضع التي يجب حطها فيها، وحول مجرى اللعب على وجه الإجمال، فهما يتراشقان السباب، وينعت كل منهما صاحبه بأنه وغد حقير، ويصفه بصفات جميلة أخرى مما تجري به ألسنة البولونيين؛ ثم يتصالحان، ويرميان المال ذات اليمين وذات الشمال على كل حال. وكانا إذا اختصما حط كل واحد منهما مبلغا في موضع، فهذا يحط على الأحمر مثلاً، وذاك يحط على الأسود. وقد بلغا من إخسار الجدة أنها توسلت إلى قيّم عجوز، والدموع تكاد تترقرق في عينيها، أن يحميها من هذين الرجلين فيطردهما. وذلك ما تم فوراً، رغم صراخهما ورغم احتجاجهما، فقد أخذا كلاهما يرغيان ويزبدان معاً مدعيين أن الجدة مدينة لهما بمال، وأنها خدعتهما وغشتهما، وأنها لم تعاملهما معاملة شريفة. قص عليّ بوتابتش هذا كله في ذلك المساء نفسه وهو يبكي بدموع

غزار، قائلاً إنهما قد ملآ جيوبهما، وأنه رآهما بعينه يختلسان المال جهاراً بغير حياء فيحشوان به جيوبهما. وكان من أعمالهما مثلاً أن يطلب أحدهما من الجدة خمسة فردريكات أجراً له، ثم يحط هذا المبلغ مع المبلغ الذي يحطه للجدة على موضع ما من المائدة، فإذا ربحت الحطة صاح يقول إنه هو الذي ربح، وإنما هي التي خسرت. فلما ضاقت ذرعا بهما فتم طردهما تدخل بوتابتش قائلاً إن جيوبهما ملأى ذهباً. فأسرعت الجدة تطلب إلى القيم أن يتخذ الإجراءات اللازمة، وما هي إلا لحظة إذا بالشرطة تظهر، فتفرغ جيوبهما على الفور رغم عياطهما وشياطهما، وترد المال إلى الجدة. إن الجدة تتمتع بمهابة واحترام لدى القيمين ولدى إدارة الكازينو، ما بقي معها مال. وقد ذاع صيتها في المدينة كلها شيئا بعد شيء. وصار الناس الذين يستحمون في المياه المعدنية من جميع البلاد، أبسطهم وأشهرهم على السواء، يهرعون إلى الكازينو ليروا «تلك الكونتيسة الروسية العجوز التي تقهقرت إلى الطفولة»، وخسرت على مائدة الروليت «عدة ملايين».

ولكن الجدة لم يُجْدِها تخلصها من البولونيين إلا قليلاً جداً جداً. فما أن طُرد البولونيان حتى ظهر ثالث يعرض عليها خدماته. وكان هذا الثالث يجيد الكلام باللغة الروسية إجادة تامة، ويرتدي من الملابس ما يرتديه سُراة القوم، رغم أنه أشبه بخادم. كان هو أيضاً يقبِّل «آثار خطوات» السيدة «ويزحف على قدميها»، ولكنه يعامل سائر من حوله في غطرسة، ويأمر كما يأمر طاغية مستبد؛ أي كان يصطنع لا وضع الخادم للجدة بل وضع الوصي عليها. وكان يلتفت إليها، عند كل ضربة، فيحلف لها بأغلظ الإيمان أنه «سيد» محترم وأنه لن يأخذ منها قرشاً واحداً. وبلغ من تكرار هذه الأيمان أن الجدة أصبحت تخشاه حقاً. ولكن لما كان هذا

«السيد» قد بدا في أول الأمر أنه يصحح اللعب، ولما كان قد أخذ يربح، فإن الجدة نفسها لم تعزم أمرها على التخلص منه، وبعد ساعة واحدة عاد البولونيان اللذان طردا من الكازينو، فظهرا وراء كرسي الجدة، يعرضان عليها خدماتهما من جديد، بل ويعرضان عليها أن يشتريا لها ما تريد شراءه. وقد حلف لي بوتابتش أن هذا «السيد المحترم» قد تبادل معهما غمزات، بل وأنه أعطاهما بعض المال خلسة. وإذ كانت الجدة جائعة لم تتناول عشاءها ولم تكد تبارح كرسيها، فقد استطاع أحد البولونيين أن يفيدها فعلاً. فها هو ذا يهرع إلى «بوفيه» الكازينو فيأتيها بفنجان من المرق أولا، وبشيء من الشاي بعد ذلك. والحق أن البولونيين كليهما كانا يسعيان في هذا. ولكن في آخر النهار، حين استطاع الناس أن يدركوا أنها تخسر آخر ورقة مالية تملكها، كان ستة بولونيين يقفون وراء كرسيها، لم يسبق أن رآهم أحد قبل ذلك قط. فلما خسرت الجدة آخر نقودها أصبحوا لا يصغون إليها، بل أصبحوا لا ينتبهون إليها البتة، فهم يميلون على مائدة القمار من فوق كتفيها، يلمون المال، ويصدرون الأوامر، ويحطون المبالغ، ويتشاجرون، ويخاطبون «السيد المحترم» بلا كلفة. أما هذا «السيد المحترم» فقد نسي حتى وجود الجدة. وحين أفلست الجدة إفلاساً كاملاً، فأعيدت إلى الفندق في نحو الساعة الثامنة من المساء، كان هناك ثلاثة أو أربعة بولونيين لم يستطيعوا أن يقرروا تركها، فهم يتراكضون حول كرسيها صائحين منادين، يرددون جهاراً أن الجدة قد خدعتهم، وأنها مدينة لهم بمال. على هذا النحو وصلت الجدة إلى الفندق، وهناك في الفندق طُرد البولونيون ركلا بالأرجل.

لقد خسرت الجدة في ذلك اليوم، إذا صدقت حسابات بوتابتش، حوالي ستة وثمانين ألف روبل، عدا ما خسرته في الليلة البارحة. لقد أبدلت جميع ما كانت تملكه من سندات على الدولة بفائدة خمسة في المائة، وباعت كل ما كان معها من أسهم واحداً بعد آخر. أدهشني أن الجدة استطاعت أن تظل خلال هذه الساعات السبع أو الثماني، قابعة في كرسيها لا تكاد تترك مائدة القمار لحظة، ولكن بوتابتش روى لي أنها قد أخذت فعلاً، خلال مرتين أو ثلاث مرات، تجني أرباحاً ضخمة، فقوى ذلك عزيمتها وشحذ آمالها، فلم تملك أن تنصرف. على أن المقامرين يعرفون أن في إمكان المقامر أن يمكث في مكانه أربعاً وعشرين ساعة، حاملاً أوراق اللعب بيديه، لا يلتفت بصره يُسرة ولا يَمنة.

وفي أثناء ذلك اليوم، كانت تقع أحداث حاسمة في فندقنا. ففي الصباح، قبل الساعة الحادية عشرة، بينما كانت الجدة ما تزال في مسكنها، اتفقت كلمة أصحابنا على أن يقوموا بمسعى أخير يحسم الأمر (ذلك كان رأي الجنرال ودي جريو). لقد علموا أن الجدة عدلت عن السفر، وعادت إلى الكازينو، فجاؤوا إليها جماعة (باستثناء باولين) يحدّثونها في الأمر حديثاً جازماً بل و«مخلصاً صادقاً». وكان الجنرال يرتجف وينهار حين يتصور العواقب الرهيبة التي ستصيبه هو من جراء سلوك الجدة هذا، فلم يملك أن يمتنع عن أن يعنف لها القول: فبعد أن ظل مدة نصف ساعة يقدم لها الرجاء تلو الرجاء، والضراعة تلو الضراعة، بل وبعد أن اعترف لها بهيامه بمدموازيل بلانش (كان قد طاش صوابه تماماً) لم يلبث أن اتخذ لهجة التهديد والوعيد على حين فجأة، بل طفق يصيح ويصرخ ويضرب الأرض بقدمه، ويصيح قائلاً إن الجدة تلطخ شرف الأسرة كلها، وإنها أصبحت فضيحة في المدينة بأسرها، ثم إنها

أخيراً... «توسّخ اسم الروس». وهتف يقول خاتما كلامه «يا سيدتي، إن لهذا الأمر شرطة تمنعه». فما كان من الجدة إلا أن رفعت عصاها فضربت بها الجنرال تطرده من عندها طرداً.

وقد تباحث الجنرال ودي جريو مرة أخرى أو مرتين أخريين في ذلك الضحى نفسه، فكانا يتساءلان خاصة: ألا يستطيعان أن يستنجدا بالشرطة فعلاً؛ ألا يستطيعان أن يقولا للشرطة إن هناك امرأة مسكينة، لكنها سيدة عجوز محترمة، قد تقهقرت إلى الطفولة، فهي بسبيل تبديد ثروتها في القمار، إلخ، فهلا يمكن أن تُرْدَع أو أن تُمنع بطريقة من الطرق؟ ولكن دي جريو لم يلبث أن رفع كتفيه هازئاً، وانفجر ضاحكاً أمام أنف الجنرال، فأخذ الجنرال وقد نفدت حججه وأسقط في يده، يذرع حجرته جيئة وذهاباً. وأخيراً حرك دي جريو يده بحركة احتقار، ثم لم يظهر بعد ذلك قط. وعُلم في المساء أنه قد غادر الفندق إلى غير رجعة بعد حديث حاسم سري جرى بينه وبين مدموازيل بلانش. أما مدموازيل بلانش فقد اتخذت إجراءات قاطعة منذ الصباح: فطردت الجنرال طردة أخيرة، وأصبحت لا تطيق حتى أن يوجد حيث توجد عَرَضاً. وحين جرى الجنرال وراءها إلى الكازينو، فصادفها متأبطة ذراع الأمير الصغير، لم تعرفه لا هي ولا السيدة أرملة دي كومنج؛ ولا حيَّاه الأمير القصير. قضت مدموازيل بلانش النهار كله تسبر غور الأمير وتجس نبضه وتداوره بشتى الوسائل بغية أن يصرّح لها آخر الأمر بشيء جازم! ولكن حساباتها كانت خاطئة خطأ صاعقاً واأسفاه! وقد وقعت هذه الكارثة الصغيرة عند المساء، حين اكتشفت فجأة أن الأمير فقير فقر أيوب، حتى أنه كان يعوّل على أن يقترض منها مبلغاً آخر ليقامر في الروليت. فطردته بلانش مستاءة حانقة، وحبست نفسها في غرفتها لا تبارحها.

وفي صباح ذلك اليوم نفسه ذهبتُ إلى مستر آستلي، أو قل إنني ظللت أبحث عنه طول الصباح دون أن أعثر له على أثر. لم يكن في منزله، ولا في الكازينو، ولا في الحديقة. ولا تناول طعام الغداء في الفندق هذه المرة. وفى الساعة الخامسة بعد الظهر لمحته على حين فجأة عائداً من محطة القطار إلى فندق انجلترة. وكان يحث الخطى ويبدو مهموماً، رغم أن من الصعب على المرء أن يرى في وجهه شيئاً مما يشغل باله أو أي نوع من الاضطراب. مدّ إليّ يده مصافحاً في مودة، مطلقاً صيحته المألوفة «ها!»، ولكنه لم يتوقف بل تابع سيره بخطى سريعة. فلحقت به، ولكنه عرف كيف يجيبني بما لا يدع مجالاً لأي سؤال ألقيه عليه. يضاف إلى ذلك أني كنت أشعر بحرج رهيب من أن أدير الحديث على باولين؛ ولم يهتم هو بهذا الأمر كذلك. حكيت له ما وقع للجدة، فكان يصغي إلى كلامي في جد وانتباه، ثم لم يلبث أن هز كتفيه.

قلت:

– ستخسر كل شيء.

فأجاب:

– أوه، طبعاً. حين سافرتُ أنا كانت قد ذهبت إلى الكازينو لتقامر وكنت على يقين من أنها ستخسر. ولسوف أمضي إلى الكازينو إذا اتسع وقتي، لأرى الأمور بنفسي، فإن هذا لطريف شائق...

– إلى أين سافرت؟

كذلك هتفت مدهوشاً من أنني لما أطرح عليه ذلك السؤال بعد. فقال:

– إلى فرانكفورت.

– ألأعمال؟

– نعم.

عمَّ كنت أستطيع أن أساله زيادة على ذلك؟ ثم إنني كنت أحاذيه في السير، فإذا هو يتجه فجأة نحو فندق «الفصول الأربعة» الذي كان في الطريق، فحياني مودعاً بحركة من رأسه، واختفى. وفيما كنت عائداً إلى مسكني وصلت شيئاً فشيئاً إلى يقين كامل بأنني لو لبثت أكلمه ساعتين لما استطعت أن أعرف منه شيئاً البتة. لأنني لم أكن أملك سؤالاً ألقيه عليه! نعم، كذلك كان الأمر حتماً. فإنني ما كنت لأستطيع أن أصوغ سؤالي.

وقد ظلت باولين تتنزه في الحديقة طول النهار مع الأطفال والخادمة، أو تمكث في منزلها وحيدة، كانت قد أخذت منذ فترة طويلة تتهرب من لقاء الجنرال، ولا تكاد تكلمه، أو لا تكاد تكلمه في أمور جدية على أقل تقدير. كنت قد لاحظت ذلك منذ مدة.

لكنني، وقد عرفت كيف كان وضع الجنرال في ذلك اليوم، قدّرت أنه لم يستطع إلا أن يَلْقى الفتاة، أي لا بد أن يكون قد قام بينهما حديث تناول أموراً عائلية هامة. ومع ذلك فإنني حين عدت إلى الفندق بعد المحادثة التي جرت بيني وبين مستر آستلي، التقيت باولين والأطفال، فرأيت في وجهها معاني الهدوء ورباطة الجأش، كأن تلك الزوابع العائلية كلها لم توفر أحداً سواها. حتى إذا حييتها ردت التحية بحركة من رأسها. وصعدتُ إلى غرفتي مهتاجاً أشد الاهتياج.

كنت أتحاشى أن أكلمها طبعاً، ولم ألتق بها مرة واحدة منذ حادثتي مع فورمرهلم. كنت أعد القضية قضية شَرف. ولكن الحنق كان يزداد غليانا في نفسي بمرور الزمن: هبها لا تحبني البتة، إن هذا لا يجيز لها أن تدوس عواطفي على هذا النحو، ولا أن تقابل اعترافاتي بمثل هذا الاحتقار. لقد كانت تعلم أنني أحبها حقاً؛ وتسامحت فأذنت لي أن أكلمها على هذه الصورة. صحيح أن الأمر بدأ بيننا بداية غريبة؛ كنت قد لاحظت منذ زمن (زمن أصبح منذ الآن بعيداً، فقد انقضى عليه شهران) أنها تريد أن تتخذني صديقاً، وأن تجعلني نجيّها وموضع سرّها. حتى لقد قامت بمحاولات في هذا السبيل. ولكن الأمر لم ينجح، فاحتفظنا بهذه الصلات الغريبة العجيبة. وبسبب هذا إنما بدأت أكلمها على هذه الصورة ولكن إذا كان حبي قد ساءها، فلماذا لم تمنعني من أن أكلمها فيه منعاً باتاً؟

إنها لم تفعل شيئاً من ذلك، حتى لقد كانت في بعض الأحيان تحضني على الكلام... لتسخر مني طبعاً. أنا واثق من هذا. لقد شعرت به: كان يمتعها ويحلو لها، بعد أن تصغي إليّ وتستثيرني إلى حد العذاب، أن تبلبلني فجأة بعلامة صارخة تنبئ عن احتقار أو تدل على قلة الاكتراث وعدم المبالاة. وهي تعلم مع ذلك أنني لا أستطيع أن أحيا بدونها. ها قد انقضت إذن أيام ثلاثة على حادثتي مع البارون، وها أنا ذا أصبحت منذ الآن لا أستطيع احتمال «فراقنا». وحين صادفتها منذ هنيهة قرب الكازينو، بلغ قلبي من شدة الخفقان أن وجهي امتقع لونه. وهي أيضاً لا تستطيع أن تعيش بدوني! إنها في حاجة إليّ... فهل يمكن أن تكون حاجتها إليّ كحاجتها إلى مهرج مثل بالاكيريف فحسب[١٦]؟

---

[١٦] جان بالاكيريف: مهرج الإمبراطورة آنا (١٧٣٠ – ١٧٤٠).

إن لها سرا... هذا واضح. إن حديثها مع الجدة قد طعن قلبي طعناً. ذلك أنني طلبت إليها ألف مرة أن تكون صريحة صادقة معي، وهي تعلم أنني مستعد فعلاً لأن أضحّي بحياتي في سبيلها. ولكنها أبعدتني دائماً باحتقار وازدراء، أو طلبت إلي، بدلا من التضحية بحياتي في سبيلها، أن أقوم بأعمال شاذة، كما فعلت ذلك يوم سألتني أن أتحرش بالبارون. أليس هذا أمراً مثيراً؟ هل يمكن أن يكون ذلك الفرنسي كل شيء عندها؟ ومستر آستلي؟ هنا تستعصي القضية على الفهم، ما في ذلك ريب... ومع ذلك فما أشد ما كنت أقاسي من عذاب يا رب!

حين وصلت إلى غرفتي رأيتني وقد استبد بي الحنق والغيظ أمسك بالقلم وأخط لها هذه الأسطر:

«باولين ألكسندروفنا! إنني أرى اقتراب الخاتمة. وواضح أنها ستتناولك أنت أيضاً. لذلك أعود فأكرر لك مرة أخرى هذا السؤال: أأنت في حاجة إلى حياتي؟ إذا كان في وسعي أن أكون مفيداً لك في أي أمر من الأمور، فتصرفي بي كما تشائين. أنا الآن في غرفتي، أمكث فيها أكثر الأوقات على الأقل، ولا أبارحها إلى أي مكان. فإذا احتجت إليّ، اكتبي لي أو استدعيني».

غلفت الرسالة، وأمرت خادم الطابق أن يمضي بها إلى باولين، فيسلمها إياها يداً بيد. ولم أكن أتوقع جواباً، ولكن الخادم جاءني بعد ثلاث دقائق يقول إنها تبعث إليّ بتحياتها.

وفي نحو الساعة السابعة من المساء، استدعاني الجنرال.

كان الجنرال في حجرته مرتدياً ملابسه كمن يتهيأ للخروج. وكانت قبعته وعصاه على الديوان. فلما دخلت عليه بدا لي واقفا في وسط الغرفة مباعداً ما بين ساقيه، خافضاً راسه، يكلم نفسه. فما أن رآني حتى ارتمى نحوي وهو يوشك أن يصرخ، فإذا أنا أتراجع خطوة إلى وراء، على غير إرادة مني، وأهم أن أولي هارباً، ولكنه أمسكني بكلتا يديه، وجذبني نحو الكنبة، فقعد عليها وأقعدني على كرسي أمامه، وراح يقول لي بصوت متوسل متضرع، دون أن تطلق يداه سراحي، وقد أخذت شفتاه ترتجفان، بينما الدموع تتلألأ في عينيه:

– ألكسي إيفانوفتش، أنقذني، أنقذني، ارحمني.

لبثت برهة طويلة لا أستطيع أن أفهم شيئاً. كان يتكلم بلا توقف، ويكرر في كل لحظة قوله: «ارحمني، ارحمني». وقدّرت أخيراً أنه يطلب مني شيئاً يشبه أن يكون نصحاً، أو قل إنه وقد هجره الجميع وداهمه الغم واستبد به اليأس، تذكرني فاستدعاني لا لشيء إلا أن يتكلم، ويتكلم، ويتكلم...

ولكنه كان قد فقد عقله، أو طاش صوابه تماماً في أقل تقدير. فها هو ذا يضم يديه إحديهما إلى الأخرى متضرعاً، ويوشك أن يرتمي على ركبتي راجياً (هل في وسعكم أن تحزروا ما عسى أن يكون رجاؤه؟) أن أمضي فوراً إلى مدموازيل بلانش، فأبتهل إليها وأحضها على أن تعود إليه فتتزوجه.

هتفت أقول:

– اسمح لي يا جنرال! لعل مدموازيل بلانش لمّا تلاحظ وجودي بعد. فماذا أستطيع أن أفعل؟

كان عبثاً أن أحتج وأن أتعلّل. فإنه لم يكن يفهم شيئاً مما يقال له. وطفق يفيض في الكلام على الجدة أيضاً، فيقول عبارات مفككة غير منسجمة، ولا يعدل عن فكرة اللجوء إلى الشرطة.

أخذ يقول وهو يغلي حنقاً على حين فجأة:

– في بلادنا... في بلادنا... أقصد... في بلادنا... في دولة منظمة لها سلطات مسؤولة، توضع أمثال هذه العجائز تحت الوصاية على الفور.

وأضاف بغتة بلهجة فخمة وهو ينهض من مكانه على حين فجأة ويأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ويخاطب شخصاً خيالياً في ركن من الأركان:

– نعم أيها السيد العزيز... إنك لم تكن تعرف هذا... فاعلم إذن أن الأمر كذلك... نعم... في بلادنا يُحْجَر على العجائز اللواتي من هذا النوع، يحجر عليهن. نعم أيها السيد. آه... يا لشقائي...

وارتمى على الديوان من جديد؛ وبعد لحظة، أخذ يقص عليّ مسرعاً لاهثاً يكاد يختنق، وكأنه في حلم، كيف أن مدموازيل بلانش لا تريد أن تتزوجه لأن الجدة هي التي وصلت بدلا من البرقية، ولأنه أصبح واضحاً الآن أنه لن يرث. كان الجنرال يظن أنني لمّا أطلع على شيء من ذلك بعد. فأردت أن أتكلم عن دي جريو، ولكنه أوقفني عن الكلام بإشارة منه قائلا:

– سافر! وقد رهنت جميع أملاكي لديه، فأنا الآن عريان عرى دودة. إن ذلك المال الذي جئتني به... ذلك المال... ولا أدري كم كان المبلغ على كل حال... أظن أنه كان سبعمائة فرنك... هو كل ما بقي لي، كل ما بقي لي. والآن لا أدري، لا أدري...

أصبح ستا مذعوراً:

– ومن أين ستدفع أجور الفندق؟ ثم... بعد ذلك؟

فنظر إليّ نظرة شاردة، ولكن كان واضحاً أنه لم يفهم شيئاً، بل ولا سمع شيئاً. وحاولت أن أجيل الكلام حول باولين ألكسندروفنا وحول الصغار، فأسرع يقول «نعم نعم»، ولكنه لم يلبث أن طفق يتحدث عن الأمير الذي سيسافر مع مدموازيل بلانش... وعندئذ... عندئذ..

قال وهو يلتفت فجأة نحوي:

– وعندئذ ما الذي سأصير إليه يا ألكسي إيفانوفتش؟ ما الذي سأصير إليه؟ يا رب يا رب... قل لي يا ألكسي إيفانوفتش: هذا عقوق، هذا عقوق؟ ألا ترى أن هذا عقوق؟

وطفق يبكي آخر الأمر بدموع سخية.

لم يكن ثمة ما يصنعه المرء لرجل في مثل حاله. ثم أن تركه وحيدا لا يخلو من خطر كذلك: فقد يقع له شيء ما. وعلى كل حال فقد تخلصت منه بطريقة من الطرق، لكنني قلت للخادمة أن عدا ذلك، وهو فتى ذكي جداً، فوعدني أن يكون يقظاً هو أيضاً.

ما كدت أترك الجنرال حتى جاءني بوتابتش يرجوني أن أوافي الجدة. كانت الساعة قد بلغت الثامنة، وكانت الجدة قد عادت من الكازينو منذ برهة قصيرة، بعد أن خسرت فيه آخر قرش. نزلت إلى الجدة. كانت السيدة العجوز قاعدة في كرسيها مهدودة القوى مرهقة، وكان واضحاً أنها مريضة. ناولتها مارتا قدحاً من الشاي حملتها على احتسائه بما يشبه القسر. وكان صوت الجدة ولهجتها قد تغيرا تغيراً واضحاً.

قالت لي ببطء وهي تحني رأسها بجد ووقار:

– نعمت يوماً يا ألكسي إيفانوفتش، يا عزيزي. اغفر لي إزعاجي إياك مرة أخرى، وما أحسب إلا أنك مسامح امرأة عجوزاً تقدمت بها السن. لقد خلفت كل شيء هنالك يا صديقي، لقد خسرت قرابة مائة ألف روبل. كنت على حق حين رفضت أن تصحبني أمس. والآن ليس معي شيء البتة، ليس معي قرش. ولا أحب أن ألبث هنا لحظة واحدة. يجب أن أسافر في الساعة التاسعة والنصف. لذلك استدعيت صاحبك الإنجليزي: اسمه مستر آستلي فيما أظن. أريد أن أقترض منه ثلاثة آلاف فرنك أردها إليه بعد ثمانية أيام. فقال له أن لا يظن بي سوءاً، وأن لا يرفض إقراضي هذا المبلغ. ما زلت حتى الآن على جانب من الغنى يا عزيزي. إني أملك ثلاث قرى ودارين، وما يزال عندي مال، فإنني لم أحمل إلى هنا كل ما أملك من مال. أقول لك ذلك حتى يطمئن صاحبك ولا يقلق... ها... ها هو ذا قد وصل. واضح أنه رجل شهم.

لقد هرع مستر آستلي يلبي نداء الجدة. ولم يلبث أن نقدها ثلاثة آلاف فرنك بغير تردد وبغير كلام نافل؛ ووقّعت له الجدة سنداً بالمبلغ فأخذه. ثم حيا وانصرف.

– والآن دعني يا ألكسي إيفانوفتش. لم يبقَ لي من الوقت إلا ساعة وبعض ساعة. سأستلقي على فراشي لحظة، فإن عظامي تؤلمني. لا تؤاخذني، فما أنا إلا عجوز بلهاء.. لن أتهم الشبان بعد اليوم بالخفة. بل إنني لأتحرّج الآن من لوم صاحبك الجنرال المسكين. ولكني لن أعطِهِ شيئاً من مال. وما ينبغي أن يسوءه هذا، فهو في رأيي حيوان كبير... أما أنا فدجاجة عجوز

لا أملك من الذكاء أكثر مما يملك هو. إن الله يقتص من المفترين عاجلاً أو آجلاً. هيا، وداعاً. أنهضيني يا مارتا.

وكنت أنوي أن أصحب الجدة. غير أنني كنت في الوقت نفسه أتوقع حدوث شيء ما. كان يُخيّل إليّ أن هناك أمراً سيقع بين لحظة وأخرى. لم أستطع أن أمكث في غرفتي. فخرجت إلى الدهليز أريد أن أمضي إلى طريق أشجار الكستناء متنزهاً بعض الوقت. لقد كانت رسالتي إلى باولين واضحة قاطعة، وكانت الكارثة الراهنة حاسمة من غير شك. لقد سمعت في الفندق أن دي جريو سافر. الخلاصة: إذا كانت باولين ترفضني صديقاً، فقد تقبلني خادماً، لأنها في حاجة إلي، ولو لأشتري لها ما تريد شراءه. نعم هي في حاجة إلي، ذلك واضح!

حين أزفت لحظة رحيل الجدة هرعتُ إلى المحطة، فأركبتها القطار؛ وكانوا جميعهم قد اتخذوا أماكنهم في حجرة محجوزة. قالت لي الجدة وهي تودعني:

– أشكر لك مسايرتك البريئة المنزّهة عن الغرض يا صديقي؛ كرر لبراسكوفيا ما قلته لها أمس. لسوف أنتظرها.

وعدتُ أدراجي قاصداً غرفتي. فلما مررت قرب شقة الجنرال التقيت بالخادمة، فسألتها عن حال سيدها. فأجابتني حزينة:

– لا بأس يا سيدي الطيب.

ودخلت مع ذلك. ولكنني لم ألبث أن تسمّرت عند باب حجرته مذهولا. كان الجنرال ومدموازيل بلانش يضحكان مقهقهين. وكانت السيدة أرملة دي كومنج موجودة معهما،

جالسة على الأريكة. كان واضحاً أن الجنرال قد جن عقله فرحاً، فهو يتدفق في الكلام سخافات وترهات من كل نوع، وهو يصاب بنوبات من المرح العصبي والضحك المتواصل تخدّد وجهه بغضون صغيرة، وتخفي عينيه.

علمت، فيما بعد، أن مدموازيل بلانش نفسها، بعد أن طردت الأمير وعلمت بما آلت إليه حالة الجنرال من حزن وقنوط، أرادت أن تعزيه فجاءت تزوره زيارة قصيرة. ولكن الجنرال المسكين كان يجهل إلى تلك اللحظة أن مصيره قد تقرر، وأن مدموازيل بلانش كانت قد أخذت تعد حقائبها وتحزم أمتعتها، لتسافر في الغداة إلى باريس على قطار الصباح الأول.

لبثت لحظة عند عتبة حجرة الجنرال، ثم عدلت عن الدخول، فانصرفت منسلاً لم يلمحني أحد. وصعدت إلى غرفتي. لما فتحت الباب لمحت في ظلمة الغرفة قامة جالسة عل كرسي في ركن قرب النافذة، فما أن رأتني داخلاً حتى نهضت، فأسرعت أقترب، ونظرت... فانقطعت أنفاسي: إنها باولين.

الفصل الرابع عشر

أفلتت مني صرخة.

فسألتني بصوت غريب:

– ما بك؟ ماذا دهاك؟

وكانت شاحبة اللون، وتبدو قاتمة المزاج.

– ما بي؟ ماذا دهاني؟ أأنت... أنت... هنا... عندي؟

– أنا إذا جئت جئت كلي. تلك عادتي. ولسوف ترى ذلك تواً. أشعل شمعة.

امتثلتُ فنهضت واقتربت من المنضدة تضع أمامي رسالة مفضوضة، وتأمرني أن أقرأها:

– اقرأ.

صمتّ وأنا أتناول الرسالة:

– هذا خط دي جريو.

كانت يداي ترتجفان، وكانت الأسطر تتراقص أمام عيني. لقد نسيت الآن نص الرسالة، ولكن ها هي ذي الرسالة معنى معنى إن لم تكن كلمة كلمة:

"آنستي، إن ظروفاً مؤلمة تضطرني إلى السفر بغير إبطاء. ولقد لاحظت، ولا شك، أنني تحاشيت عامداً أن نتصارح تصارحاً حاسماً قبل أن يتضح كل شيء. إن وصول السيدة العجوز بدلاً من وصول البرقية، وكذلك سلوكها الأحمق قد أنهيا كل تردد. إن اضطراب

شؤوني الخاصة يمنعني قطعاً من الاستمرار في عقد تلك الآمال العذبة الحلوة التي أذنتُ لنفسي أن أمني بها نفسي زمناً. إنني آسف لما وقع، ولكنني أرجو أن لا تجدي في سلوكي ما يشين رجلاً راقياً أو إنساناً شريفاً. إني وقد أضعت مالي كله سداداً لديون زوج أمك، أجدني مضطراً إلى الحفاظ على ما بقي لي تصريفاً لشؤوني. وقد أبلغت أصدقائي ببطرسبرج أن يبادروا دون إبطاء إلى بيع الأملاك المرهونة لدي. لكنني لعلمي بأن زوج أمك قد أتلف ثروتك كلها، قررت أن أعفيه من خمسين ألف فرنك، فرددت إليه ما يساوي هذا المبلغ جزئاً من صكوك الرهن. وبذلك يكون في وسعك أن تستردي كل ما فقدت باللجوء إلى القضاء الذي سيحكم برد أملاكك إليك. أرجو، يا آنستي، أن تكون هذه البادرة مني مفيدة لك في الظروف التي تلابس أحوالك الآن؛ كما أرجو أن يكون بهذه البادرة قد قمت بالواجبات التي تجب على رجل شريف. وثقي أن ذكراك ستظل منقوشة في قلبي إلى الأبد».

قلت ملتفتاً نحو باولين:

– الأمر واضح.

ثم أردفت أقول حانقاً مغتاظاً:

– أكنت تتوقعين غير هذا حقا؟

فأجابتني بهدوء ظاهر، على نوع من الارتجاف في صوتها:

– لم أكن أتوقع شيئاً. لقد رأيت فيه رأيي منذ زمن طويل: كنت أقرأ أفكاره. ظن أنني أسعى إلى... ظن أنني قد ألح على...

قالت ذلك ثم توقفت فعضت على شفتها في وسط الجملة وصمتت.

وتابعت بعد لحظة تقول:

– لقد تعمّدت أن أضاعف احتقاري نحوه. وكنت أنتظر ما عساه يفعل. ولو قد وصلت البرقية، إذن لقذفته على رأسه بالمال الذي يدين له به هذا الأبله (زوج أمي)، ولطردته بعدئذ شرّ طردة. لقد أصبحت منذ زمن طويل لا أطيق أن أراه! آه... كان من قبل رجلاً آخر، رجلاً آخر تماماً... أما الآن فما أشد ما سأشعر به من فرح عظيم لو أتيح لي أن أرمي له هذه الخمسين ألف فرنك، وأن أبصق في وجهه.

– ولكن هذا الصك الذي يرد الخمسين ألفاً هو الآن بين يدي الجنرال، فما عليك إلا أن تأخذيه وأن ترديه إلى دي جريو!

– أوه... ليس الأمران سواء! ليس الأمران سواء!

قلت:

– صحيح صحيح. وما حال الجنرال الآن؟ لأي شيء يصلح هو الآن؟

ثم رأيتني أهتف على حين فجأة:

– والجدة؟

فنظرت إليّ باولين ذاهلة نافذة الصبر. ثم قالت معتكرة المزاج:

– لماذا تسألني عن الجدة؟ إنني لا أستطيع أن أذهب إليها...

ثم أضافت بصوت يفيض حنقاً:

– ولن أطلب من أحد غفراناً.

هتفت أقول:

– وما العمل؟ ولكن قولي لي: كيف، كيف أمكنك أن تحبي دي جريو؟ هذا وغد حقير، هذا وغد حقير. هل تريدين أن أقتله بمبارزة؟ أين هو الآن؟

– في فرانكفورت، وسيمكث هنالك ثلاثة أيام.

قلت متحمسًا تحمسًا أهوج:

– قولي كلمة واحدة فأذهب إليه غداً على أول قطار.

فأخذت تضحك ثم قالت:

– لعله سيقول لك: «ردوا إليّ الخمسين ألفاً أولاً!» ولماذا تُراه يرضى أن يبارز؟ ما هذا الغباء!...

فكررت أقول وأنا أصرّ بأسناني، كأن من الممكن فجأة أن نلم هذا المبلغ من الأرض:

– ولكن من أين إذن نأخذ هذه الخمسين ألف فرنك، من أين؟

وراودتني فكرة غريبة فأردفت أسألها:

– اسمعي! ومستر آستلي؟

فأخذت عيناها تلتمعان، ثم قالت وهي تحدق إليّ بنظرة ثابتة مع ابتسامة مرة:

– أتريد إذن أن أتركك أنت من أجل هذا الإنجليزي؟

وكانت هذه أول مرة تخاطبني فيها بصيغة المفرد.

ولا شك أن دواراً ألم بها في تلك اللحظة، من شدة الانفعال، فإنها لم تلبث أن تهالكت على السرير، وكان واضحاً أنها مهدودة القوى منهكة.

وشعرت أنا بغشاوة كأن برقاً بَهَرَ بصري. فتسمّرت في مكاني واقفاً، لا أصدق عيني ولا أصدق أذني. هي إذن تحبّني. لقد جاءت إليّ أنا، ولم تذهب إلى مستر آستلي! هي الفتاة العذراء تجيء إلى غرفتي بالفندق وحيدة على مرأى من جميع الناس! ولبثت متسمراً في مكاني أمامها لا أفهم!...

ولمعت في خاطري فكرة مجنونة!

قلت:

– باولين، أمهليني ساعة واحدة! انتظري هنا ساعة واحدة فقط... أعود بعدها إليك. لا بد من هذا... لا بد منه. لسوف ترين. امكثي هنا، امكثي هنا!

وخرجت من الغرفة راكضاً دون أن أجيب على نظرتها المستفهمة. وصاحت تقول لي شيئاً، ولكني لم أرجع.

نعم، رب خاطر هو أقرب الخواطر إلى الجنون، وأدناها إلى الاستحالة، يبلغ من قوة رسوخه في الفكر أن المرء يخاله ممكن التحقيق، حتى إذا كان هذا الخاطر مرتبطا برغبة قوية ملتهبة جامحة اعتقد المرء أخيراً أنه أمر حتمي، ضروري، فرضه القدر منذ الأزل، أمر لا يمكن إلا

أن يكون، ولا يمكن إلا أن يحدث! وبما كان ههنا شيء أكثر من ذلك: ربما كان ههنا مزيج من نبوءات يحسنها المرء، ومن جهد خارق تبذله الإرادة، ومن خيال سمم المرء به نفسه بنفسه، ومن أشياء أخرى أيضاً... لست أدري... ولكنني في ذلك المساء (في ذلك المساء الذي لن أنساه ما حييت) وقعت لي مغامرة معجزة. ولئن كانت المعجزة تفسّر بالحساب، فإنها تظل في نظري معجزة. ولماذا، لماذا كان هذا اليقين قد بلغ ذلك المبلغ من العمق والرسوخ في نفسي، منذ أمد طويل؟ لقد كنت أفكر فيه (أعود فأكرر ذلك) لا تفكيري في احتمال جائز (ومن ثم غير مؤكد)، بل كنت أفكر فيه تفكيري في شيء لا يمكن إلا أن يحدث.

كانت الساعة هي العاشرة إلا ربعاً. دخلت إلى الكازينو ممتلئاً بأمل قوي، وطافحاً بانفعال قوي لا عهد لي بمثله من قبل. كان لا يزال في قاعات القمار ناس، وإن يكن عددهم نصف عددهم في الصباح.

وليس يبقى حول الموائد في الساعة الحادية عشرة إلا المقامرون حقاً، المقامرون المدمنون الذين لا يوجد في مدن المياه المعدنية في نظرهم إلا الروليت. إنهم لم يجيئوا إلا من أجلها، ولا يكادون يلاحظون شيئاً مما يجري حولهم، ولا يعنون بشيء غيرها طوال الفصل. ليس لهم عمل إلا أن يقامروا من الصباح إلى المساء، ولا شك أنهم مستعدون لأن يستمروا في المقامرة الليل كله حتى مطلع الفجر لو كان ذلك في الإمكان. وهم لا يتفرقون إلا على مضض وحسرة، حين يقفل الكازينو أبوابه عند منتصف الليل. فإذا صاح أعرق القيمين يعلن، قبيل إغلاق الكازينو، أي قبيل منتصف الليل، أنه «لم يبق إلا ثلاث ضربات أيها السادة»، رأيتهم مستعدين في بعض الأحيان أن يحطوا في هذه الضربات الثلاث الأخيرة كل ما في جيوبهم؛

وفي تلك الساعة إنما تقع أضخم الخسارات في الواقع. اتجهت نحو تلك المائدة نفسها التي كانت تقامر عليها الجدة. ولم يكن الزحام شديداً، فسرعان ما استطعت أن أشغل مكاناً قرب المائدة واقفاً. وأمامي تماماً، على المائدة الخضراء، كانت مكتوبة كلمة: «باس».

إن الباس هذه هي سلسلة من الأرقام تمضي من ١٩ إلى ٣٦؛ أما السلسلة الأولى فهي من ١ إلى ١٨، وتسمى «مانك». ولكن هل يهمني هذا كله في شيء؟ إنني لم أكن أحسب، ولا سمعت الرقم الأخير الذي ظهر. ولا سألت عنه حين بدأت اللعب، كما يفعل أي لاعب مهما يكن قليل الاحتياط والحذر. أخرجت العشرين فردريكا ورميتها على الباس.

صاح القيّم:

– اثنان وعشرون.

لقد ربحت. وغامرت مرة أخرى بالمجموع أي بما حططته في المرة الأولى مضافاً إليه الربح.

نادى القيّم:

– واحد وثلاثون.

ربحت أيضاً. أصبح معي إذن ثمانون فردريكاً. حططت المبلغ كله على الأرقام الاثني عشر التي في الوسط (الربح هنا ثلاث لا مثنى، ولكن الاحتمالات المعاكسة ثلاثة أيضاً لا اثنان). وأخذت الدائرة تدور، فخرج الرقم ٢٤؛ فنُقدت ثلاث لفات من ذات الخمسين فردريكاً، وعشر دنانير ذهبية. أصبحت أملك الآن مائتي فردريك.

اعتراني نوع من الحمى فدفعت بهذه الكدسة كلها من المال أحطها على الأحمر... وثبت إلى رشدي فجأة. كانت تلك هي المرة الأولى أثناء ذلك المساء كله، التي جمّدني فيها الخوف حتى صرت كالثلج، فيداي وقدماي ترتجفان. لقد أدركت مذعوراً هلعاً في ومضة من شعور، ماذا كان يعني الخسران عندي في هذه اللحظة!

لقد قامرت بحياتي كلها!

صاح القيّم:

– أحمر.

فرُدّت إليّ روحي، أحسست كأن نملاً محترقاً يجري على جسمي كله. أُعطيت أوراقاً نقدية. كان المبلغ في هذه المرة أربعة آلاف فلورين وثمانين فردريكاً (كنت ما أزال أستطيع أن أحسب).

وبعد ذلك، أذكر أنني حططت ألفي فلورين على الاثني عشر رقماً التي في الوسط، فخسرت، ثم حططت ما كان معي من ذهب بالإضافة إلى الثمانين فردريكاً فخسرت أيضاً. استبد بي غيظ شديد: فتناولت الألفي فلورين التي بقيت لي فحططتها على الاثني عشر رقماً الأولى... حططتها هكذا... على غير هدى، على عماوة، دون حساب... فكان ثمة لحظة انتظار، وكان

ثمة انفعال لعله يشبه الانفعال الذي شعرت به مدام بلانشار حين هوت في باريز من منطادها على الأرض[١٧].

هتف القيم:

– أربعة.

أصبح معي ستة آلاف فلورين من جديد. أصبحت منذ الآن أتخذ أوضاع الظافرين، لا أهاب شيئاً. رميت أربعة آلاف فلورين على الأسود. فسارع نحو من عشرة أشخاص يحطون مثلي على الأسود... وتبادل القيّمون النظرات وتكلموا فيما بينهم. ومن حوالي كان الناس يتكلمون وينتظرون.

وظهر الأسود، أصبحت منذ تلك اللحظة لا أتذكر المبلغ ولا تعاقب الضربات. كل ما أتذكره أنني كنت قد ربحت حوالي ستة عشر ألف فلورين، وأنا فيما يشبه الحلم؛ ثم إذا بثلاث ضربات شقية تخسرني من ذلك المبلغ اثني عشر ألفاً. فرأيتني أضع الآلاف الأربعة الأخيرة على الباس (ولكنني لم أشعر بشيء تقريباً في تلك اللحظة، وإنما كنت أنتظر انتظاراً آلياً دون أن أفكر في شيء). فربحت من جديد، ثم ربحت أيضاً في أربع ضربات متتالية. كل ما أذكره أنني كنت ألمّ الفلورينات آلافاً آلافاً. وأذكر أيضاً أن أرقام الوسط التي تشبثت بها هي التي كانت تظهر في أغلب الأحيان. كانت تظهر، على نحو مطرد، ثلاث مرات متتالية أو أربعاً ثم تغيب دورتين لتعود إلى الظهور بعد ذلك في ثلاث ضربات متتالية أو أربع. إن هذا الاطراد

[١٧] ماري بلانشار (١٧٧٨ – ١٨١٩) زوجة الملاح الجوي الذي اخترع المظلة (الباراشوت)، هلكت بباريز سنة ١٨١٩ على متن منطاد كانت تطلق منه اسهماً نارية فانفجر المنطاد.

الذي يبعث على الدهشة والاستغراب يحدث في فترات، وذلك ما يبلبل المقامرين المحترفين الذين يحملون أقلاماً ويجرون حسابات. أية سخريات رهيبة لا يظهرها الحظ هنا؟

أظن أنه لم يكن قد انقضى على وصولي أكثر من نصف ساعة، حين أعلن لي القيم فجأة أن أرباحي بلغت ثلاثين ألف فلورين، وأن الخزنة ليست مسؤولة عن أكثر من ذلك في جلسة واحدة، فلذلك ستغلق الروليت إلى صباح الغد. أخذت ذهبي كله، فحشوت به جيوبي، ثم لمت جميع أوراقي النقدية وذهبت إلى قاعة أخرى كان فيها روليت ثانية. فهرع الجمهور يلحق بي، وسرعان ما أُفسح لي هنالك مكان، فاستأنفت أقامر خبط عشواء بغير حساب. لست أدري ما الذي أنقذني!

على أن فكرة الحساب كانت تراودني من حين إلى حين. كنت أتعلق ببعض الأرقام، بعض الاحتمالات، ثم ما ألبث أن أهجرها، وأعود ألعب على غير شعور. لا شك أنني كنت في حالة ذهول شديد. أذكر أن القيمين قد صححوا لعبي عدة مرات، فلقد كنت أرتكب أخطاء جسيمة. وهرع بولونيون يعرضون عليّ خدماتهم، ولكنني لم أصغ إلى أحد. وكان الحظ حليفي لا يفارقني. وفجأة دوت من حولي صيحات وقهقهات. وأخذ الناس يهتفون «مرحى، مرحى!»، حتى أن بعضهم أخذ يصفق. لقد بلغت أرباحي ثلاثين ألف فلورين مرة أخرى، وأغلقت الخزنة حتى صباح الغد.

– اذهب، انصرف.

كذلك دمدم يقول لي رجل كان على يميني. إنه يهودي من فرنكفورت، كان قد ظل إلى جانبي طول الوقت، وأظن أنه أعانني مرة أو مرتين.

ووشوشني صوت آخر في أذني اليسرى قائلاً:

– ناشدتك الله أن تذهب.

فألقيت نظرة سريعة على من وشوشني: إنها سيدة في نحو الثلاثين من العمر، ترتدي ملابس متواضعة لكنها لائقة، ويبدو في وجهها التعب وشحوب المرض، ولكن الناظر إليها يدرك أنها كانت على جانب عظيم من جمال أخاذ. وكنت في تلك اللحظة أحشو جيوبي بالأوراق النقدية مجعداً إياها، وألمّ ما قد بقي على المائدة من ذهب، فتناولت آخر لفة من ذات الخمسين فردريكاً، واستطعت، دون أن يلاحظني أحد، أن أدسها في يد السيدة الشاحبة اعترافاً بجميلها؛ ولم يستغرق هذا كله إلا ثانية واحدة.

حتى إذا فرغت من لمّ كل شيء، أسرعت أذهب إلى مائدة «الثلاثين والأربعين».

إن مائدة «الثلاثين والأربعين» يرتادها جمهور أرستقراطي. إنها غير الروليت. إنها من ألعاب الورق. والخزنة هنالك تتحمل مائة ألف تالير. وأكبر حطة هي أربعة آلاف فلورين أيضاً. كنت أجهل مجرى اللعب جهلاً تاماً، ولا أكاد أعرف كيف أحط، اللهم إلا على الأحمر والأسود، الموجودين فيها أيضاً. لذلك تعلقت بهما. وتحلق الكازينو كله حولي. لا أذكر أن باولين خطرت ببالي مرة واحدة في تلك السهرة. كنت، وأنا أمسك بالأوراق المالية التي تتكدس أمامي ثم أردها، أشعر بلذة لا سبيل إلى مقاومتها.

لكأن القدر كان يدفعني حقاً. وفي هذه المرة، طرأ ظرف غريب، كأنما على عمد، وإن يكن يطرأ في القمار أحياناً كثيرة. كان يتشبث الحظ بالأحمر مثلاً فما يتركه إلا بعد عشر دورات أو

خمس عشرة دورة. حتى لقد كنت سمعت أول البارحة أن الأحمر ظهر في الأسبوع الماضي اثنتين وعشرين مرة على التوالي. وذلك أمر لا يتذكر أحد أنه وقع في الروليت مرة واحدة، فكان الناس يتحدثون عنه مدهوشين. ومن الطبيعي أن اللاعبين ما يلبثون أن يتركوا الأحمر، فما من أحد يجرؤ أن يحط عليه بعد أن يظهر عشر مرات متتالية مثلاً. ولكن ما من مقامر خبير يحط عندئذ على الأسود، نقيضه. فإن المقامر المجرب يعرف ماذا تعني «نزوة الصدفة»؛ فإذا ظهر الأحمر ست عشرة مرة مثلاً اعتقد اللاعبون أن الضربة السابعة عشر ستقع على الأسود حتماً؛ فإذا باللاعبين الأغرار يترامون على الأسود، مضاعفين المبالغ مثنى وثلاث، فيتكبدون من ذلك خسائر فادحة.

أما أنا فقد بدا لي، بنزوة غريبة، بعد أن ظهر الأحمر سبع مرات متتالية، أن أتعلق به وأثبت عليه. إنني مقتنع بأن لحب الظهور دخلاً في هذه النزوة، فلقد كنت أحب أن أبعث الدهشة في نفوس المشاهدين بمجازفة هوجاء طائشة (ألا إنه لإحساس غريب!)؛ ولكنني ما زلت أذكر بوضوح أن ظمأ إلى المجازفة قد تملّكني على حين فجأة دون أن يحضني على ذلك شيء من حب الظهور. لعل نفس الإنسان، بعد أن تعاني مثل هذا العدد الكبير من الإحساسات، لا تنتهي إلى الشبع منها، بل تهتاج وتطلب المزيد من إحساسات جديدة ما تنفك تعنف ثم تعنف، إلى أن تصل إلى درجة الإنهاك. ولست أكذب حين أقول إنني كنت مستعداً للمجازفة بخمسين ألف فلورين حطة واحدة لو كانت الأنظمة تسمح بذلك. وكان الناس من حولي يصيحون قائلين إن هذا جنون، فقد ظهر الأحمر أربع عشرة مرة متتالية!

قال رجل كان بجانبي:

– ربح السيد حتى الآن مائة ألف فلورين.

فلما سمعت كلامه صحوت فجأة. كيف؟ أربحت في هذه السهرة مائة ألف فلورين؟ ولكنني لست في حاجة إلى أكثر من ذلك! وما لبثت أن تناولت الأوراق المالية بسرعة فدسستها في جيبي فوضى على غير ترتيب، ومن غير عد، ثم لممت الدنانير الذهبية لفات لفات، وأسرعت أخرج من الكازينو. كان جميع الناس يضحكون وهم يرونني أجتاز القاعات منتفخ الجيوب مترنح الخطى من ثقل الذهب. أعتقد أن وزن الذهب الذي كنت أحمله يربو على نصف «باود»[١٨]. وامتدت إليّ بعض الأيدي، فوزعت المال قبضات قبضات، على قدر ما كانت تسع منه يدي. وأوقفني يهوديان عند الباب، فقالا لي:

– أنت متهور، متهور جداً! فسافر غداً، غداً في الصباح، في أبكر ساعة من الصباح، وإلا فلسوف تخسر كل شيء...

لم أصغ إليهما. وكانت الظلمة في طريق أشجار الكستناء من الشدة بحيث لم أكن أستطيع أن أميّز يدي. والمسافة بيني وبين الفندق نصف فرسخ تقريباً. وأنا امرؤ ما خفت من اللصوص ولا من قُطّاع الطرق يوماً، منذ أن كنت طفلاً. فكذلك لم أقلق في تلك اللحظة أيضاً. ثم إنني لا أتذكر الآن فيم كنت أفكر أثناء الطريق. كان رأسي خالياً. ولكني كنت أشعر بلذة عنيفة قوية، هي لذة النجاح، والانتصار، والقوة. لا أدري كيف أعبر لكم عما كان يختلج في نفسي آنذاك. كان خيال باولين يخطر أمام عيني، ولم يغب عن بالي أنني كنت ذاهباً إليها... ولكنني

---

[١٨] نصف «باود» يساوي نحواً من ثمانية كيلوغرامات

كنت لا أكاد أتذكر ما قالته لي منذ قليل، ولا السبب الذي حملني على الذهاب إلى الكازينو؛ إن جميع تلك الأحاسيس الحديثة التي امتلأت بها نفسي منذ ما لا يزيد عن ساعة ونصف ساعة، أصبحت تبدو لي الآن منتمية إلى ماضٍ قد انقضى وزال، حتى لقد لا نلمع إليه إلماعاً، لأن كل شيء سيبدأ بداية جديدة.

وفي نهاية طريق أشجار الكستناء تقريباً إنما استولى عليّ الخوف. قلت في نفسي: «ماذا لو قُتِلت الآن وسُرق مالي؟». وأخذ ذعري يشتد خطوة بعد خطوة. فكنت أسير سيراً هو بالركض أشبه. وفجأة، عند نهاية طريق، تلألأت واجهة فندقنا على حين بغتة، ساطعة بألف ضوء. الحمد لله. لقد وصلت.

صعدت درجات السلم أربعاً أربعاً حتى وصلت إلى غرفتي، ففتحت الباب فجأة؛ فإذا باولين ما تزال جالسة هنالك، أمام شمعة مشتعلة، ضامة يديها إحديهما إلى الأخرى، نظرت إليّ في ذهول، فلا شك أن وجهي كان في تلك اللحظة غريباً. وقفت أمامها، ورميت بالمال كله على المنضدة.

الفصل الخامس عشر

حدقت باولين إليّ، دون أن تتحرك، بل دون أن تغير وضعها. هتفيتُ أقول لها وأنا أخرج من جيوبي آخر لفة:

– ربحت مائتي ألف فرنك[١٩].

إن كومة كبيرة من الأوراق المالية والنقود الذهبية تغطي المنضدة كلها. كنت لا أستطيع أن أحوّل نظري عنها؛ حتى لقد كنت في بعض اللحظات أنسى وجود باولين. فأنا تارة آخذ أرتّب الأوراق المالية كدسات كدسات؛ وتارة أجمع الدنانير الذهبية على حدة؛ وتارة أبعثر كل شيء وأطفق أذرع الغرفة جيئة وذهاباً بخطى سريعة غارقاً في أحلامي أو أعود إلى المنضدة فجأة أعدّ مالي. وإني لفي ذلك، إذا أنا أعود إلى رشدي على حين بغتة، فأمضي إلى الباب أقفله بالمفتاح دورتين، ثم أقف أمام حقيبتي حائراً متردداً.

سألت باولين وأنا ألتفت إليها فجأة متذكراً وجودها:

– هل يجب أن أضع المال في الحقيبة إلى الغد؟

وكانت باولين ما تزال جالسة في مكانها نفسه لم تتحرك، ولكنها كانت لا تحوّل عني بصرها. كان في وجهها تعبير غريب ساءني أن أراه. ما أحسبني مخطئاً إذا قلت أنه كان تعبيراً عن الكره والبغض.

---

[١٩] الفرنك المقصود هنا هو الفرنك الذهبي فيجب ضرب هذا المبلغ بخمسين لمعرفة ما ربحه من فرنكات هذه الأيام. لقد ربح ما يساوي مليون فرنك (جديد) تقريباً.

فاقتربت منها مسرعاً أقول:

– باولين، إليك خمسة وعشرين ألف فلورين. إنها تساوي خمسين ألف فرنك وتزيد. فخذيها وارميها في وجهه غداً.

فلم تجب.

– إذا شئت حملتها إليه أنا في صباح الغد.. هل تريدين؟

فأخذت تضحك مقهقهة على حين فجأة. وظلت تقهقه على هذه الحال برهة طويلة.

فكنت أنظر إليها بدهشة موجعة أليمة. إن هذا الضحك يشبه كل الشبه ذلك الضحك الساخر الهازئ الذي كانت تستقبل به في كثير من الأحيان (وفي أوان حديث أيضاً) ما كنت أعلنه لها من عواطف حبي اللاهب الجامح. وحبست ضحكها أخيراً، وقطبت ما بين حاجبيها، ونظرت إليّ نظرة قاسية من أدنى، وقالت لي باحتقار:

– لن آخذ شيئاً من مالك.

فصحت أقول:

– كيف هذا؟ ماذا هنالك؟ لم هذا يا باولين؟

– لن أقبل أخذ شيء من مال دون ما سبب!

– ولكنني أقدمه لك تقدمة الصديق للصديق؛ إنني مستعد لأن أقدم لك حياتي كلها.

فنظرت إليّ نظرة طويلة فاحصة، كأنها تريد أن تنفذ إلى نفسي. قالت وهي تضحك ضحكة صغيرة:

– أنت رجل كريم سخي. إن خليلة دي جريو لا تستحق خمسين ألف فرنك.

فهتفت أقول بلهجة العتب:

– باولين، كيف تستطيعين أن تكلميني هكذا؟ أنا لست دي جريو!

فصرخت تقول وقد أخذت عيناها تقدحان شرراً:

– أنا أكرهك! نعم... نعم... أنا لا أحبك أكثر مما أحب دي جريو.

قالت ذلك وأخفت وجهها في يديها واعترتها نوبة عصبية، فارتميت نحوها.

أدركت أن شيئاً قد وقع لها أثناء غيابي ولا شك، فإنها لم تكن مالكة رشدها.

وانفجرت تقول من خلال النحيب والتشنج:

– هيا اشترني! هل تريد؟ اشترني بخمسين ألف فرنك، مثل دي جريو!

ضممتها بذراعي، وقبّلت يديها، وقدميها، وركعت أمامها على ركبتي.

وانقضت النوبة. فوضعت يديها على كتفي، وأخذت تتفرّس في وجهي. لكأنها تريد أن تقرأ شيئاً في هذا الوجه. وكانت تصغي إليّ ولكن كان واضحاً أنها لا تسمع ما كنت أقوله لها. وظهر على قسمات وجهها ما ينبئ عن همّ، ويدل على أنها في حلم. قلقت. أحسست أنها

بسبيل أن تجن. ها هي ذي تشدني إليها برفق، وقد طافت على شفتيها بسمة ثقة واطمئنان؛ ثم ها هي ذي تدفعني عنها على حين فجأة، وتعود تتفرسني وقد أظلم وجهها.

وها هي ذي تمسك ذراعي بغتة وتأخذ تقول:

– أنت تحبني، أليس كذلك؟ ما دمت... ما دمت قد أردت أن تقاتل البارون من أجلي!

وانفجرت تقهقه قهقهة من خطرت بباله ذكرى مضحكة مسلية. كانت تضحك وتبكي في آن واحد.

ماذا كان في وسعي أن أفعل؟ لقد كنت أنا نفسي محموماً. أذكر أنها أخذت تكلمني... ولكنني لم أستطع أن أفهم شيئاً تقريباً. كان كلامها ضرباً من هذيان. إنها تتمتم تمتمة كما لو كانت تريد أن تقص عليّ شيئاً من الأشياء بسرعة. وكان يقطع هذا الهذيان من حين إلى حين ضحك فرح ينفجر انفجاراً فيأخذ يخيفني.

كانت تردد:

– لا، لا، أنت لطيف، لطيف. أنت مخلص لي.

وتعود تضع يديها على كتفي، وتعود تتأملني وتكرّر:

– أنت تحبني، أنت تحبني... وسوف تحبني؟

لم أحوّل بصري عنها. ما كنت قد رأيتها قبل ذلك قط في مثل هذه الحالة من الرقة والحنان والحب.. صحيح أن ذلك كان هذياناً، وها هي ذي تلاحظ نظرتي الولهى، فتبتسم ابتسامة خبيثة ماكرة على حين فجأة. ثم ها هي ذي تأخذ تتكلم عن مستر آستلي بغتة.

على أنها كانت تدير الحديث على مستر آستلي بغير انقطاع (ولا سيما منذ قليل، حين حاولت أن تقص عليّ شيئاً ما)، غير أنني لم أستطع أن أفهم ماذا كان يعني هذا على وجه الدقة. بل إنني لأعتقد أنها كانت تسخر منه. وأخذت تردد في كل لحظة أنه ينتظر، وأنني ربما كنت أجهل أنه ينتظر تحت نافذة غرفتي.

– نعم، نعم، تحت النافذة. افتح النافذة وأنظر. إنه هنالك!

قالت ذلك ودفعتني نحو النافذة. فما أن هممت أن أمضي إلى النافذة حتى استبد بها ضحك مجنون، فبقيت قربها، فإذا هي ترتمي عليّ وتحضنني بذراعيها.

– سنسافر؟ غدا نسافر؟

لقد وافتها هذه الفكرة على حين فجأة، وأضافت تقول شاردة اللب ساهمة الفكر:

– وسندرك الجدة، ما رأيك؟ أغلب ظني أننا نستطيع أن ندركها ببرلين. ما عساها قائلة، في رأيك، حين نلحق بها فترانا؟ ومستر آستلي؟... إن مستر آستلي هذا لن يرمي نفسه من أعلى جبل شلانجنبرج، أليس كذلك؟ (قالت هذا وانفجرت تقهقه). اسمع: هل تعلم إلى أين يريد أن يذهب في الصيف المقبل؟ إنه يريد أن يذهب إلى القطب الشمالي ليقوم بدراسات علمية، وقد دعاني إلى مشاركته في هذه الرحلة... ها! ها! ها! يقول إننا معشر الروس ما كنا لنتعلم شيئاً لولا الأوروبيون، وإننا لا نصلح لشيء. لكنه رجل طيب هو أيضاً. هل تعلم؟ إنه يعذر الجنرال: يقول إن بلانش... إن الهوى... لا أدري لا أدري ماذا يقول... (رددت ذلك مشوّشة كأنما أعوزها التعبير). مساكينا لشد ما أرثي لحالهم؛ ولشد ما أرثي لحال الجدة

أيضاً! اسمع، اسمع، كيف يكون في إمكانك أن تقتل دي جريو؟ ولكنك لن تستطيع أن تقتل حتى البارون (أضافت ذلك وقد أخذت تضحك). لشد ما كنت مضحكاً في ذلك اليوم، مع البارون! كنت أنظر إليكما كليكما من على مقعدي... ولشد ما ضايقك أن تذهب إليه حين أرسلتك! لكم ضحكت يومئذ، لكم ضحكت! (قالت ذلك وهي تضحك محاولة أن تحبس قهقهتها).

وفجأة عادت تقبلني، وتضمني إلى صدرها، وتشد وجهي إلى وجهها بحنان قوي وعاطفة مشبوبة. أصبحت لا أفكر في شيء، ولا أسمع شيئاً. لقد أخذ رأسي يدور...

أظن أن الساعة كانت بلغت السابعة من الصباح حين ثبت إلى رشدي. كانت الشمس تضيء الغرفة. وكانت باولين جالسة إلى جانبي تجيل بصرها على ما حولها غريبة النظرة، كأنها تخرج من الظلمة وتجمع شتات ذكرياتها. كانت قد استيقظت هي أيضاً منذ قليل، وأخذت تنظر محدقة إلى المنضدة والمال. إن رأسي ثقيل موجع. وأردت أن أتناول يد باولين، فصدتني، ونهضت فجأة. كان النهار الذي بدأ يطلع قاتماً. لقد أمطرت السماء قُبَيل الفجر. اقتربت باولين من النافذة ففتحتها، ثم مالت عليها بنصف جسمها متكئة على مسندها، ولبثت على هذه الحال بضع دقائق لا تلتفت نحوي ولا تصغي إلى ما أقول لها. وراودتني فكرة مرعبة: ما عسى يحدث الآن، وكيف عسى ينتهي الأمر؟ وفجأة تركت باولين النافذة وجاءت إلى المنضدة، وقالت لي وقد فاض وجهها بكره لا حد له، وارتعشت شفتاها من شدة الحنق:

– هات الآن الخمسين ألف فرنك التي لي!

قلت:

– ماذا دهاك يا باولين؟ أتستأنفين القصة؟

– اللهم إلا أن تكون قد غيرت رأيك! ها ها ها. لعلك ندمت.

كانت الخمسة والعشرون ألف فلورين التي عددتها في الليلة البارحة ما تزال على المنضدة: فتناولتها ومددتها إليها.

سألتني وهي تمسك المال وتلقي عليّ نظرة ساخطة:

– هي الآن لي، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

قلت:

– لقد كانت لك منذ البدء.

– طيب... إذن خذها الآن، ألوفك الخمسين!

قالت ذلك ورفعت يدها فرمت الحزمة في وجهي، فلطمته لطماً، وتبعثرت الأوراق على الأرض، ثم خرجت باولين من الغرفة راكضة.

كنت أعرف أنها لم تكن في تلك اللحظة مالكة عقلها، رغم أنني لم أفهم هذا الجنون العابر. صحيح أنها ما تزال مريضة، وأنها مريضة منذ شهر. ولكن ما سبب هذه الحالة، وما سبب هذا الانفجار خاصة؟ هل أهينت كبرياؤها؟ أهو الحزن الشديد من أنها جاءت إليّ؟ ترى هل ظهر عليّ أنني مُذِلٌّ بسعادتي، وأنني أريد، مثل دي جريو، أن أتخلص منها بإعطائها خمسين ألف فرنك؟ ولكن ليس ثمة شيء من هذا... وما أظن إلا أن الذنب ذنب غرورها. إن غرورها هو الذي دفعها إلى أن تمنع عني ثقتها وأن تهينني، وإن لم يكن ذلك كله واضحاً في

ذهنها بل مبهماً كل الإبهام في أغلب الظن. فإذا كان الأمر كذلك، فقد عاقبتني بما كان يجب أن يعاقب به دي جريو، ولعلها عدّتني مذنباً دون أن يكون لي في الأمر كبير ذنب.. صحيح أن هذا كله لم يكن إلا هذياناً. وصحيح أيضاً أنني كنت أعرف أنها تهذي... وأنني لم أولِ هذا الظرف انتباهاً. أتراها لا تستطيع أن تغفر لي ذلك الآن؟ ولكن إذا صح هذا بالنسبة إليّ الآن، فماذا بالنسبة إليّ أمس، ماذا بالنسبة إلى أمس؟ إن هذيانها ومرضها لم يكونا من القوة بحيث ينسيانها ماذا كانت تفعل حين جاءت إليّ حاملة رسالة دي جريو! كانت تعلم إذن ما تفعل.

وأسرعت أدسّ جميع نقودي وذهبي في السرير كيفما اتفق، وأسدل عليها الغطاء، وأخرج من الغرفة بعد خروج باولين بعشر دقائق تقريباً. كنت واثقاً أنها هربت إلى مسكنها، فأردت أن أتسلل إلى شقتهم دون ضوضاء، أسأل الخادمة في المدخل عن صحة سيدتها. فما كان أشد دهشتي حين لقيتني الخادمة على السلم فقالت لي إن باولين لم تعد حتى الآن، وإنها – أي الخادمة – كانت آتية إليّ تبحث عنها.

قلت للخادمة:

– لقد خرجت من عندي منذ هنيهة قصيرة، منذ عشر دقائق تقريباً. إلى أين تُراها ذهبت؟

فألقت عليّ الخادمة نظرة عتاب.

وفي أثناء ذلك كانت القصة تطوف في أرجاء الفندق. فالنزلاء يهمس بعضهم لبعض، عند حجرة البواب وعند مدير الخدم، أن «الآنسة» قد خرجت راكضة في الساعة السادسة من

الصباح، تحت وابل المطر، متجهة نحو فندق إنجلترة. فهمت من أحاديثهم وتلميحاتهم أنهم كانوا يعرفون أنها قضت الليلة كلها في غرفتي. ثم إنهم كانوا قد أخذوا يقصون حكايات عن أسرة الجنرال. إنهم يعلمون أنه قد فقد صوابه في الليلة البارحة فأخذ يبكي منتحباً حتى سمع نحيبه كل من في الفندق. وقالوا في هذه المناسبة إن الجدة هي أمه، وإنها قد جاءت من روسيا خصيصاً لتمنع ابنها من الزواج بمدموازيل دي كومنج، فإذا لم يطعها حرمته من ميراثها. أما وأنه رفض الامتثال لأوامرها، فقد ذهبت تبدد ثروتها في الروليت أمام عينيه عامدة متعمدة، حتى لا تترك له شيئا. فكان مدير الخدم يكرر قوله مستاء مستنكراً وهو يهز رأسه: «يا لهؤلاء الروس!»[٢٠]؛ وكان الآخرون يضحكون؛ إن مدير الخدم يهيئ الفاتورة. وكان قد علم أنني ربحت في الليلة البارحة: إن كارل خادم الطابق الذي أسكن فيه، هو أول من هنأني. ولكن عقلي كان مشغولاً بشيء آخر. فهرعت إلى فندق إنجلترة.

ما نزال في ساعة مبكرة من الصباح، ومستر آستلي لا يستقبل. ولكنه حين عرف أن القادم هو أنا خرج يلقاني في الدهليز، وظل متسمراً أمامي يحدق إليّ بنظرته الكابية، منتظراً ما سأقوله. وسرعان ما سألته عن أنباء باولين، فأجاب وهو ما يزال يسدد بصره إلى عيني:

– إنها مريضة.

– أهي إذن عندك؟

– وهل... هل تنوي أن تبقيها عندك؟

---

[٢٠] «يا لهؤلاء الروس!»: بالألمانية في الأصل.

– نعم.

– يا مستر آستلي، سيكون هذا فضيحة. ذلك أمر مستحيل. ثم إنها مريضة تماماً... ألعلك لم تلاحظ ذلك؟

– بلى! وقد سبق أن قلت لك إنها مريضة. ولو لم تكن مريضة لما قضت ليلتها عندك.

– أأنت تعرف هذا أيضاً؟

– نعم، كان يجب أن تأتي إليّ، ولو قد أتت إذن لنقلتها إلى منزل إحدى قريباتي، ولكنها كانت مريضة، فلذلك ضلت سبيلها فذهبت إليك.

– أهنئك إذن يا مستر آستلي! بالمناسبة، لقد ذكرتني الآن بشيء. ألم تمكث طوال الليلة البارحة تحت نافذتي؟ كانت مس باولين تطلب مني في كل لحظة أن أفتح النافذة لأرى إن كنت تنظر تحتها: وكان ذلك يضحكها كثيرا.

– أهذا ممكن؟ لا لم أكن تحت النافذة، غير أنني انتظرت في الدهليز، وطفقت أذهب وأجيء على مقربة.

– يجب معالجتها يا مستر آستلي.

– نعم، وقد أرسلت أستدعي طبيباً، إذا ماتت فلسوف أعرف كيف أقتص منك.

ذهلت.

– هلا تكرمت يا مستر آستلي فقلت لي ماذا تعني؟

– هل صحيح أنك ربحت البارحة مائتي ألف تالير؟

– بل مائة ألف فلورين فقط.

– هكذا... وستسافر بعد قليل إلى باريس...

– لماذا؟

– لأن جميع الروس يذهبون إلى باريس متى كان معهم مال...

كذلك قال مستر آستلي متدفقاً في الكلام كأنه يقرأ في كتاب.

– وما عساي أصنع بباريس الآن، في الصيف؟ إنني أحبها يا مستر آستلي! أنت تعرف ذلك.

– حقا؟ أما أنا فأعتقد بعكس ذلك. ثم إنك إذا بقيت هنا ستخسر حتماً كل ما تملكه، ولن يبقى معك ما قد يوصلك إلى باريس. هيا، وداعاً، إنني على يقين مطلق من أنك مسافر في هذا اليوم نفسه.

– طيب. وداعًا. ولكني لن أسافر. فكر يا مستر آستلي فيها سيحدث!... إن الجنرال... ثم إن قصة باولين هذه ستنتشر في المدينة كلها.

– نعم في المدينة كلها. وأعتقد أن الجنرال لا يكاد يفطن إلى هذا الموضوع أصلاً، فإن هناك أشياء أخرى تشغل باله وتستأثر بتفكيره. ثم إن من حق مس باولين أن تقيم حيث تحلو لها الإقامة. أما أسرتها فلا نعدو الواقع إذا قلنا إنها لم يبق لها وجود.

كنت بعد أن انصرفت من عند مستر آستلي أضحك عجباً من هذه الثقة الغريبة التي تبدو في كلامه حين أكد أنني مسافر إلى باريس. قلت في نفسي: وهو مع ذلك يريد أن يقتلني في مبارزة إذا ماتت باولين... شيء لطيف!... يمينًا لقد أشفق على باولين... غير أن هناك شيئاً غريباً هو أنني منذ اللحظة التي دنوت فيها من مائدة القمار وأخذت ألمّ الأوراق النقدية أكداساً أكداساً، أصبح حبي في المنزلة الثانية إن صح التعبير. وأنا أقول ذلك الآن. أما وقتئذ فلم يكن شعوري به واضحاً كل الوضوح. أأنا إذن مقامر؟ أكان حبي باولين... غريباً إذن هذه الغرابة؟ لا... إنني ما أزال أحبها، شهد الله... وحين خرجت من عند مستر آستلي كنت أتألم ألماً صادقاً مخلصاً، وكنت ألوم نفسي لوماً شديداً حين كنت عائداً إلى غرفتي... غير أن... مغامرة من أعجب المغامرات وأشدها حماقة وبلاهة قد وقعت لي عندئذ.

كنت ذاهباً إلى الجنرال مستعجل الخطى، فإذا بباب يفتح على حين غرة، غير بعيد عن مسكنهم، وإذا بصوت يناديني: إنها السيدة أرملة دي كومنج تناديني بأمر من مدموازيل بلانش. دخلت شقة المرأة الشابة.

إنهما يقيمان في شقة صغيرة من غرفتين. وكان ضحك مدموازيل بلانش وانطلاق صوتها يُسمعان صادرين من حجرة نومها. كانت مدموازيل بلانش بسبيل النهوض من فراشها:

– ها... أهذا هو؟ تعال تعال يا أبله! أصحيح أنك ربحت جبلا من ذهب وفضة؟ إنني أوثر الذهب على كل حال.

– نعم ربحت.

– كم؟

– مائة ألف فلورين.

– ما أبلهك! أدخل أدخل! إنني لا أسمع شيئاً. لسوف نطلق لأنفسنا العنان، أليس كذلك؟

ودخلت. كانت مضطجعة تحت غطاء من حرير وردي يكشف عن كتفيها السمراوين المدورين الرائعين: كتفين لا يرى المرء مثلهما في المنام، قد غطاهما، على إهمال، قميص من نسيج قطني خفيف يزينه شريط مخرم مطرز ناصع البياض يبرز جمال جلدها البرونزي كما يبرز الضد ضده.

صاحت تقول وهي تراني:

– ألك قلب يا بني؟[٢١].

وكانت لا تزال تضحك ضحكاً مرحاً جداً، بل ضحكاً صريحاً في بعض الأحيان.

قلت موسعاً جملة كورنايّ:

– شيء آخر...

فأخذت تثرثر قائلة:

– أرأيت، أرأيت؟ هات لي أولاً جوربيّ فألبسنيهما؛ ثم، إذا لم تكن أبله جداً، فأخذتك معي إلى باريس. أنت تعلم أنني مسافرة توًا.

---

[٢١] «ألك قلب يا بني؟.. شيء آخر... » حوار من مسرحية «السيد» لكورني.

– توًا؟

– بعد نصف ساعة.

وكان كل شيء قد حُزم فعلاً. وكانت الحقائب مهيأة. وقد شربت القهوة منذ زمن.

– فإذا شئت، رأيت باريس! قل لي: ما معنى كلمة «مربيّ»؟ لشد ما كنت أبله، حين كنت مربياً؟ أين جورباي؟ مالك لا تلبسني جوربي؟

قالت ذلك وأظهرت قدماً صغيرة أخاذة الجمال حقاً: قدما سمراء دقيقة، ليس فيها شيء من ذلك التشوه الذي تراه تقريباً في جميع تلك الأقدام الصغيرة التي تبدو جميلة ذلك الجمال كله وهي في أحذيتها. أخذت أضحك ومددت الجورب الحريري على ساقها. فكانت أثناء ذلك ما تنفك تثرثر قاعدة على سريرها.

– هيه! ما عساك فاعلاً إذا أخذتك معي؟ أولاً أريد خمسين ألف فرنك. ستعطيني هذا المبلغ في فرنكفورت. ثم نذهب إلى باريس. وهناك سنعيش معاً، وسأريك النجوم في وضح النهار. لسوف ترى هنالك نساء ما رأيت مثلهن في حياتك. اسمع...

– انتظري! إذا أعطيتك خمسين ألف فرنك فماذا يبقى لي؟

– هل نسيت المائة والخمسين ألف فرنك؟ ثم إنني أرضى أن أعيش معك شهراً، أو شهرين، لا أدري. وطبعاً سننفق في شهرين هذه المائة والخمسين ألف فرنك. أرأيت؟ إنني طفلة طيبة، أنبئك بما سيقع منذ الآن. ولكنك سترى نجوماً!

– كيف هذا؟ أنفق كل شيء في شهرين؟

– أيفزعك هذا؟ يا لك من عبد سيئا! ألا تعلم أن شهراً واحداً تعيشه على هذا النحو خير من حياتك كلها؟ شهر واحد... وبعده الطوفان! ولكنك لا تستطيع أن تفهم! هيا امض في سبيلك. هيا هيا... إنك لا تستحق هذا وما أنت جدير به. آي، ماذا تفعل؟

كنت بسبيل إلباسها جوربها الثاني، ولكنني لم أطق أن أقاوم، فإذا أنا أقبّل قدمها، فسحبته وأخذت تلطم وجهي بطرف القدم، ثم طردتني...

– هيه... أيها المربّي... سأنتظرك إذا شئت.. أنا مسافرة بعد ربع ساعة.

كذلك صاحت تخاطبني.

فلما عدت إلى غرفتي كنت كمن اعتراه دوار...

قلت لنفسي: ليس ذنبي أن مدموازيل باولين رمت كدسة الأموال في وجهي، وآثرت عليّ مستر آستلي منذ ذلك المساء! وكان ما يزال على الأرض بعض الأوراق النقدية، فلمحتها. وفي تلك اللحظة فُتح الباب، ودخل مدير خدم الفندق (الذي كان قبل ذلك لا يحب حتى أن ينظر إليّ)، ودعاني أن أسكن تحت، في الشقة الرائعة التي شغلها الكونت ك... منذ فترة قصيرة.

فلبثت لحظة أفكر، ثم هتفت أقول له:

– هات لي فاتورة الحساب. أنا مسافر إلى باريس بعد عشر دقائق.

ذلك أنني قلت لنفسي: إذهبْ إلى باريس يا هذا.

لا شك أن ذلك كان مقدّراً عليّ ومكتوباً لي.

وما انقضى ربع ساعة حتى كنا جالسين فعلاً في حجرة عائلية بالقطار: أنا ومدموازيل بلانش، والسيدة أرملة دي كومنج. كانت مدموازيل بلانش تضحك، وهي تنظر إلي، ضحكا شديدا تتساقط له من عينيها الدموع. وكانت السيدة أرملة دي كومنج تجاريها في الضحك. لن أقول إنني كنت مرحاً حينذاك. لقد كانت حياتي تنشطر شطرين. غير أنني ألفت منذ الليلة البارحة أن أقامر على ورقة. قد يكون صحيحاً أنني كنت لا أحتمل المال، وأنني قد فقدت رشدي. قد يكون هذا صحيحاً، ولكنني كنت لا أنشد أحسن من ذلك! وكان يتراءى لي خلال لحظة، خلال لحظة واحدة، فحسب، أن الإطار قد تغير «ولكنني سأعود بعد شهر... وستقع الواقعة يومئذ بيننا... أنا ومستر آستلي»... نعم، إذا صدقت ذاكرتي، فلقد كنت أشعر بحزن رهيب وأنا أضحك ملء حنجرتي مع الغبية بلانش...

صاحت بلانش تقول لي مقرّعة مؤنّبة وقد توقفت عن الضحك:

– ولكن ماذا تريد؟ ألا إنك لأحمق... ألا ما أشد حماقتك! نعم نعم، سننفق المائتي ألف فرنك، ولكنك ستكون سعيداً كملك صغير. سأعقد لك بنفسي ربطات عنقك، وسأقدمك إلى هورتنس. حتى إذا بددنا كل ما معنا من مال، عدت أنت إلى هنا فدمّرت الخزنة من جديد. ماذا قال لك اليهوديان؟ الجرأة والتهوّر هما الأصل، وأنت امرؤ جريء متهور، وستأتيني إلى باريس مراراً تحمل إليّ مالاً. أما أنا فأريد دخلاً مقداره خمسون ألف فرنك، وعندئذ...

سألتها مقاطعاً:

– والجنرال؟

– الجنرال؟ أنت تعلم أنه يذهب في مثل هذه الساعة من كل صباح يشتري لي باقة من الأزهار. وقد طلبت منه في هذه المرة، عامدة، أن يجيئني بأزهار يندر العثور عليها. فمتى عاد، المسكين، يكون الطير قد طار. ولسوف يجري وراءنا. سترى ها ها ها... سيسرّني هذا كثيراً. سينفعني كثيراً هنالك. وسيدفع مستر آستلي عنه هنا...

هكذا سافرت إلى باريس.

الفصل الثالث عشر

باريس، ماذا أقول عن باريس؟

كان ذلك كله هذياناً وشذوذاً، ما في ذلك ريب. لم أمكث في باريس إلا ثلاثة أسابيع، وفي نهاية هذه الأسابيع الثلاثة، كنت محملاً بمائة ألف فرنك. أقول مائة ألف فرنك فقط. أما المائة ألف الأخرى فقد أعطيتها مدموازيل بلانش عداً ونقداً: خمسين ألفاً في فرنكفورت، وخمسين ألفاً في باريس، بعد ثلاثة أيام، سندات لأمرها ما لبثت أن أبدلتها بعد أسبوع.

– والمائة ألف الباقية لنا، ستأكلها معي يا عزيزي «المربّي». (كذلك كانت تسميني دائما «المربي»).

يصعب على المرء أن يتخيل وجود إنسان يبلغ من الشك والحذر، ويبلغ من البخل والشح، ما يبلغه هذا النوع من البشر الذي تنتمي إليه مدموازيل بلانش فيما يتصل بالمال الذي لهم. أما المائة ألف فرنك التي بقيت لي فقد صرّحت لي بعد ذلك، بكل بساطة، أنها في حاجة إليها لتستقر بباريز. وأضافت تقول:

– هأنذا وقفت أخيراً على قدميّ في موضع لائق، ولن ينزلني أحد من هذا الموضع، إلى أمد طويل. لقد اتخذت الإجراءات الضرورية، على الأقل.

ثم إنني لم أكد أرى بعينيّ لون تلك الآلاف المائة من الفرنكات: فلقد كانت مدموازيل بلانش هي التي تتولى الإنفاق، ولم تضم محفظة نقودها التي كانت تتفقدها كل يوم، لم تضم أكثر من مائة فرنك في لحظة من اللحظات، بل لم تضم إلا أقل من ذلك في أكثر الأحيان.

كانت تقول لي أحياناً وقد ظهرت في وجهها سلامة النية وحسن الطوية:

– ما حاجتك أنت إلى المال؟

فكنت لا أجادلها ولا أناقشها.

وفي مقابل ذلك، أعدّت بهذا المال، منزلاً جميلاً جداً، فلما أخذتني إلى منزلها الجديد، قالت لي وهي تطوف بي في أرجائه:

– أنظر ماذا يستطيع التوفير والذوق أن يعملا بأيسر الأثمان، وأضعف الموارد.

ومع ذلك فإن هذه الأثمان قد كلفت خمسين ألف فرنك. أما الخمسون ألف فرنك الأخرى فقد اشترت بها عربة وخيلاً. ثم أقامت حفلتين راقصتين، أعني سهرتين، حضرتهما «هورتنس» و«ليزيت» و«كليوباتره»، وهن نساء متميزات من عدة وجوه، وهن فوق ذلك بغايا طيبات. وقد اضطررت أثناء هاتين السهرتين أن أمثل دور رب المنزل، فأستقبل وأحدّث زوجات تجّار حديثي العهد بالغنى، نساء على جانب عظيم من قلة العقل وضحالة الفكر، كما أستقبل وأحدث ضباطاً صغاراً لا يُطاقون ولا يُحْتملون من شدة جهلهم وغلظتهم وفظاظتهم، وأناساً من أدعياء الكتابة المخربشين، وصحفيين تافهين يجيئون مرتدين أحدث زي، مستعرضين أنفسهم مزهوين، على غرور وصلف وغطرسة لا نستطيع تصورها نحن في بطرسبرج، وليس هذا بالقليل... حتى لقد بدا لهم أن يسخروا مني وأن يستهزئوا بي، ولكنني كنت أقبل على الشمبانيا فما أزال أشرب إلى أن أسكر، فأمضي أنام في الغرفة المجاورة.

وكانت مدموازيل بلانش تقول:

– إنه «مربّ». وقد ربح مائتي ألف فرنك، فلولاي ما عرف كيف ينفقها. وسيعود بعد ذلك إلى مهنته. ألم يسمع أحد منكم عن وظيفة يعيّن لها؟ إن علينا أن نعمل شيئاً من أجله.

وكنت ألجأ إلى الشمبانيا في أغلب الأحيان، لأنني حزين دائماً، ضجر ضجراً رهيباً. كنت أعيش في بيئة هي أكثر البيئات بورجوازية وتجارية، بيئة يُحسب فيها كل قرش ويُعَدْ. وقد ظلت بلانش لا تطيقني خلال الأيام الخمسة عشر الأولى: لاحظت ذلك. صحيح أنها كانت تُعنَى بأناقة هندامي، وكانت تتولى بنفسها عقد ربطة عنقي كل يوم، ولكنها كانت في حقيقة الأمر تحتقرني احتقاراً ودّياً. ولم أكن أولي ذلك أي انتباه. وبدأت أخرج من المنزل من فرط ما كنت أشعر به من حزن وكآبة؛ فكنت في أكثر الأحيان أمضى إلى «قصر الأزهار»[٢٢]، فأظل أسكر كل مساء بغير انقطاع، وأتعلم رقصة الكانكان (التي يرقصونها هنالك على نحو خال من أي احتشام على الإطلاق)، حتى لقد صرت مشهوراً بهذا النوع من الرقص. وفهمت بلانش أخيراً طبيعة هذا الرجل الذي تعامله: كانت قد تخيلت أول الأمر أنني، طول مدة العلاقة التي بيننا، سأتبعها ممسكاً بقلم وورقة، أحصي ما تنفقه، وأعد ما تسرقه، وما قد تنفقه وما قد تسرقه أيضاً، وكانت مقتنعة بأن عليها أن تنتزع مني بصراع مرير كل قطعة من قطع النقود ذات العشرة فرنكات. فكانت تعد جواباً حاضراً لكل هجوم تفترض أنني قد أتناولها به، فلما لاحظت أني لا أبادر إلى الهجوم، أرادت أن تسبقني إليه لتمنعني منه. فكانت تشرع في ذلك أحياناً، فتطلق للسانها العنان، ولكنها وقد رأت أنني أصمت لا أنبس بكلمة، بل

[٢٢] «قصر الأزهار»: أحد المقاهي التي تعزف فيها الموسيقى بباريز، في ذلك الحين.

أظل مستلقياً على الكرسي الطويل محدقاً إلى السقف، أخذت تستغرب وتدهش؛ فاعتقدت أول الأمر أنني امرؤ مغفل لا أكثر من ذلك ولا أقل، أنني «مربِّ» وكفى، فتكف عن الكلام قائلة لنفسها من غير شك «إنسان مغفل، فلا فائدة من استشارته إن لم يفهم من تلقاء نفسه». وكانت في بعض الأحيان تخرج من المنزل ثم تعود بعد عشر دقائق (كان هذا يحدث حين تنفق مبالغ ضخمة جنونية، مبالغ لا تسمح لنا وسائلنا بإنفاقها؛ مثلما فعلت يوم أبدلت فرسيها بفرسين أخريين دفعت ثمنهما ستة عشر ألف فرنك).

قالت لي يومئذ وهي تدنو مني:

– ألست غاضباً يا عزيزي؟

فقلت وأنا أبعدها عني بيدي:

– لا... وإنما أنت تـ... ـضـ... ـجرينني!

لكن هذا الجواب بدا لها غريباً كل الغرابة فجلست إلى جانبي وقالت:

– اسمع. لقد قررت أن أدفع ثمن الفرسين مبلغاً باهظاً إلى هذا الحد، لأنها فرصة... فإن في وسعي أن أعود فأبيعهما بعشرين ألف فرنك.

– أصدقك، أصدقك، فهما فرسان جميلتان، وقد أصبح لك الآن مركبة فخمة رائعة، وهذا سيعود عليك بفائدة، فلا تتكلمي في هذا الموضوع بعد الآن.

– إذن لست غاضبا؟

– ولماذا أغضب؟ لقد كنت على حق إذ اشتريت ما لا بد من شرائه. فهذا كله سيعود عليك بنفع في المستقبل. إنني لأدرك أنك في حاجة حقاً إلى أن تقفي على قدم راسخة وطيدة، وإلا لم تحصلي على المليون. إن المائة ألف فرنك التي نملكها ليست هنا إلا بداية، ليست إلا قطرة من بحر محيط.

قلت ذلك فإذا ببلانش التي كانت تتوقع كل شيء، وتنتظر صياحاً ولوماً وعتاباً لا أفكاراً من هذا النوع، إذا بها تبدو كمن يهبط من السحاب. قالت:

– إذن أنت كذلك؟ إن لك فكراً يفهم والحالة هذه! هل تعلم يا بني؟ إنك على كونك «مربّياً»، قد خُلقت أميراً ولا شك. أأنت إذن غير آسف على أن مالنا يهرب بهذه السرعة؟

– لا... لست آسفاً... فليذهب المال إلى الشيطان... ليهرب بأقصى سرعة!

– ولكن... هل تعلم... ولكن قل لي: أيمكن أن تصبح غنياً؟ ولكن... ولكنك تحتقر المال وتسرف في احتقاره. ما عساك فاعلا بعد؟ قل لي...

– أذهب إلى هومبورج[٢٣]، فأربح هنالك مائة ألف فرنك أخرى.

– نعم نعم... هذا ما يجب أن تفعله! رائع! وأنا واثقة من أنك ستربح؛ وستجيئني بالمال إلى هنا. قل لي: لسوف تبلغ من حُسن التصرف على هذا النحو، إنني سأحبك آخر الأمر. سأحبك طوال هذا الوقت، ولن أخونك مرة واحدة. هل ترى؟ لقد كنت في هذه الآونة

[٢٣] «هومبورج»، هي حتى سنة ١٨٩٩ عاصمة دوقية همسه؛ وقد كان فيها دار للقمار.

الأخيرة لا أحبك، لأنني كنت أعتقد أنك «مربّ» وكفى (أي خادم تقريباً، أليس كذلك؟). ومع ذلك أخلصت لك ولم أخناك، لأنني فتاة طيبة الخلق.

– دعيك من هذا الكلام! ألم تخونيني مع ألبير، الضابط الصغير الأسمر؟ أتظنين أنني لم ألاحظ في المرة الأخيرة؟

– أوه... أوه... ولكنك..

– أنت تكذبين، أنت تكذبين، ولكن لا تتخيلي أن هذا يغضبني. أنت لن تطرديه على كل حال، فإنه أقدم مني، وأنت تحبينه؛ ولكن إياك أن تعطيه مالاً، هل تسمعين؟

– أنت إذن غير غاضب حتى من هذا؟ ألا إنك لفيلسوف حقاً، هل تعلم؟ فيلسوف حقاً...

كذلك صاحت تقول متحمسة، ثم أضافت:

– لسوف أحبك، لسوف أحبك. سترى. ستكون راضياً!

ومنذ ذلك اليوم تعلقت بي بعض التعلق فعلاً، بل أظهرت لي شيئاً من الصداقة. فكذلك انقضت أيامنا العشرة الأخيرة. ولئن لم أر النجوم التي وعدتني بها، فلقد برّت بوعدها من بعض الوجوه. ثم إنها عرفتني بهورتنس، وهي امرأة فذة في نوعها، كانوا يطلقون عليها في حلقتنا اسم تيريز الفيلسوفة[٢٤].

---

[٢٤] «تيريز الفيلسوفة»: إشارة إلى الرواية الشائكة العسيرة الشي لا يعرف مؤلفها، وعنوانها: «تيريز الفيلسوفة، أو مذكرات لقصة السيد ديفري والآنسة أيروديس»، وقد ظهرت هذه الرواية في لاهاي سنة ١٨٤٧.

على أنه لا مجال للإفاضة في هذا الآن؛ فهو يصلح أن يكون موضوع قصة على حدة، قصة ذات لون خاص لا أريد أن أصبغ به روايتي هذه. والحق أنني كنت أتمنى بكل ما أوتيت من قوة أن ينتهي هذا كله بأقصى سرعة. ولكن المائة ألف فرنك التي كنا نملكها قد دامت قرابة شهر، فأدهشني ذلك حقاً. إن بلانش قد اشترت أشياء مختلفة بثمانين ألف فرنك على الأقل؛ فلم ننفق إذن إلا عشرين ألف فرنك... وكان هذا كافيا. وقد اعترفت لي بلانش، التي أصبحت صريحة معي في آخر الأمر (أو قل على الأقل أنها أصبحت لا تكذب عليّ في كل شيء) اعترفت لي بأنني لست مسؤولاً، على كل حال، عن الديون التي اضطرت إليها. قالت لي:

– هناك فواتير وسندات لم أحملك على مهرها بتوقيعك، لأنني أشفقت عليك. إن امرأة غيري كانت ستفعل ذلك حتماً، فترسلك إلى السجن. فها أنت ذا ترى كم أحببتك وكم كنت طيبة القلب! إن هذا الزواج التعيس وحده سيكلفني مبالغ طائلة جنونية.

ذلك أن هناك زواجاً قد تم فعلاً؛ وذلك في آخر الشهر الذي قضيناه معاً، ويجب أن نفترض أن الفتاتات الأخيرة من المائة ألف فرنك قد أنفقت فيه؛ وبهذا الزواج انتهت القصة، أعني انتهى الشهر الذي عشنا فيه حياة مشتركة. وبعد ذلك «أُحِلت إلى المعاش» رسمياً.

وإليك كيف حدثت الأمور: بعد إقامتنا بباريس ثمانية أيام وصل الجنرال فجاء إلى بلانش رأساً، وكاد يبقى معنا منذ أول زيارة..

الحق أنه كان له شقة صغيرة في مكان ما. وقد استقبلته بلانش فرحة، وتلقته بصيحات دهشة وقهقهات ضحك، حتى لقد ارتمت على عنقه؛ ودارت الأمور على نحو نستطيع أن نقول معه

إنها هي التي تشبثت به، كان عليه أن يصحبها إلى كل مكان: فصحبها متجوّلةً في الشوارع الكبرى، وصحبها في نزهاتها، وصحبها إلى المسرح، وصحبها في زياراتها لأصدقائها. إن الجنرال ما يزال في مستوى هذه المهمة. إنه رجل مهيب المظهر، رفيع المنزلة، فارع القامة، زاهي الشاربين واللحية (كان الجنرال قد خدم في سلاح الفرسان)، وسيم المحيا، وإن يكن وجهه قد ذبل بعض الذبول؛ وهو يحسن التصرف، ويجيد الآداب الاجتماعية إجادة فذة، ويعرف كيف يرتدي الملابس الرسمية في يسر وسهولة. وقد أخرج في باريس ما كان يملكه من أوسمة ونياشين. حتى ليمكن القول إن التنزه في الشوارع الكبرى في صحبة رجل مثله ليس ممكناً فحسب، بل هو مستحسن مرغوب فيه أيضاً.

كان الجنرال الشهم الغبي مفتتناً منتشياً بالغاً أوج السعادة. فإنه لم يكن يتوقع هذا كله حين جاء إلى بيتنا عند وصوله باريس. كان يرتجف من الخوف، ظاناً أن بلانش سوف تستقبله بصراخ وزعيق، وسوف تأمر بطرده على الفور؛ فإذا الأحداث تجري مجرى آخر، فسحره ذلك، وقضى الشهر كله وهو في حالة من النشوة والوجد لا توصف. وقد كان على هذه الحال نفسها حين تركته. وهنا إنما عرفت أنه بعد سفرنا المباغت من رولتنبرج، قد وافته في صباح ذلك اليوم نفسه نوبة مخيفة، فقد أغمي عليه، وظل أسبوعاً بكامله شبه مجنون، يقول كلا ما لا يربطه رابط، كلاماً لا معنى له ولا انسجام فيه. وقد أخذوا يعالجونه، ولكنه لم يلبث أن ترك كل شيء هنالك، فركب القطار مولياً وجهه شطر باريس. ومن نافل القول أن نذكر إن لقيا بلانش كانت له خير علاج. ولكن أعراض مرضه لبثت تلازمه زمناً طويلاً، رغم كل ما شعر به من غبطة ورضى وابتهاج. أصبح منذ ذلك الحين عاجزاً عن التفكير، بل حتى عن

متابعة حديث يتصف بشيء من الجد، فهو في مثل هذه الحالة لا يزيد على أن يتبع كل كلمة بقوله «هِمْ»، أو يهز رأسه موافقاً. فبذلك كان يدبر الأمر ويحل المشكلة. وكان يضحك في كثير من الأحيان، ولكن ضحكه مضطرب عصبي مريض. وكان في بعض الأحيان يبقى ساعات برمتها قاتماً مظلماً كالليل، عابساً مقطباً حاجبيه الكثيفين. هناك أمور كثيرة كان قد نسيها نسياناً تاماً، وأصبح شديد الذهول وتعوّد أن يكلم نفسه وحيداً. كانت بلانش تستطيع أن ترده إلى الحياة. وما كانت نوبات الحزن والكآبة التي توافيه حين ينطوي في ركن من الأركان إلا دليلاً على أنه لم ير بلانش منذ زمن طويل، أو على أن بلانش قد خرجت دون أن تصطحبه، أو أنها نسيت أن تلاطفه قبل أن تخرج. فلو سألته في مثل هذه الأحوال ما الذي يريده، لما استطاع أن يجيبك بشيء، فلقد كان يجهل هو نفسه أنه مكتئب المزاج حزين النفس. حتى إذا ظل ساكنا على هذه الحال ساعة أو ساعتين (لاحظت ذلك مراراً حين تكون بلانش قد غابت عن المنزل طوال النهار، ساعيةً إلى ألبير في أغلب الظن)، أخذ ينظر حواليه على حين فجأة، وأخذ يتململ ويتحرك ويضطرب، ينظر تارة إلى هذه الجهة وتارة إلى تلك، كأنه يريد أن يتذكر شيئاً أو أن يرى أحداً. ولكنه، إذ لا يرى أحداً ولا يتذكر ما كان يريد أن يتذكره، يرتد إلى خدره، ويظل على هذه الحال من الخدر إلى أن تعود بلانش فرحة مرحة في أبهى حلة وأجمل زينة، ضاحكة مقهقهة، فتخف إليه تصفعه بل وتقبّله، وتلك نعمة قلما كانت تجود بها عليه. وفي ذات مرة بلغ الجنرال من شدة الشعور بالسعادة والفرح أن اغرورقت عيناه دموعاً. فأدهشني ذلك.

ومنذ وصول الجنرال أخذت بلانش تدافع عن نفسها أمامي حتى لقد استرسلت في كلام كثير وخطب طويلة، فذكرتني بأنها إنما خدعته بسببي، وأنها كانت خطيبته تقريباً، وأنها قطعت له على نفسها عهد الشرف، وأنه في سبيلها إنما ترك أسرته، وأنني في خدمته، فعليّ أن أفهم... إذا كنت على شيء من ضمير. فكنت لا أجيبها بكلمة واحدة أثناء تدفقها في الكلام. ولكنني انفجرت ضاحكاً مقهقهاً في النهاية، ووقفت الأمور عند هذا الحد، ومعنى ذلك كله أنها كانت تعدّني في أول الأمر امرءاً أبله، ثم استقر في ذهنها ورسُخ في عقلها أنني فتى شهم أوتيت طبعاً رضياً وخُلقاً رفيعاً. والخلاصة أنني قد سُعدت في النهاية بأن أستحق رضى هذه الفتاة المحترمة (حقاً لقد كانت بلانش فتاة ممتازة... في نوعها طبعاً! ولم أكن قد وفيتها حقها من التقدير في أول الأمر!).

قالت لي قبيل النهاية:

– أنت امرؤ ذكي طيب... وإنها لخسارة حقاً أن تكون بهيمة إلى هذه الدرجة! لن تجني شيئاً ما حييت، لا لن تجني شيئاً! ألا إنك لروسي حقاً!

وقد أوفدتني مراراً أنزّه الجنرال، كما كان يمكن أن توفد خادماً ينزه كلبها في الهواء الطلق. فأخذته إلى المسرح، ومضيت به إلى «مرقص مابيل»، وقصدت معه عدداً من المطاعم. وكانت بلانش تنقدني بعض المال لأنفق منه في هذه النزهات، رغم أن الجنرال كان معه مال، ورغم أنه كان يحب أن يخرج محفظة نقوده من جيبه على مرأى من الناس. ولقد كدت ألجأ إلى القوة في ذات مرة لأصدّه عن شراء حلية سعرها سبعمائة فرنك كانت بلانش قد أظهرت إعجابها بها في شارع بورويال، فكان الجنرال مصراً أشد الإصرار على شرائها من أجل أن يهديها إلى

بلانش. ما قيمة حلية سعرها سبعمائة فرنك في نظر بلانش؟ ولقد كان كل ما يملكه الجنرال ألف فرنك، لم أستطع أن أعرف يوماً من أين جاء بها، وأغلب الظن عندي أنه أخذها من مستر آستلي، لا سيما وأن مستر آستلي قد دفع عنهم نفقات الفندق.

أما عن اهتمام الجنرال بي طوال هذه المدة، والتفاته إليّ، فأغلب الظن أنه لم يخطر بباله أن يكون بيني وبين بلانش ما كان بيني وبينها فعلاً من علاقات. كان قد سمع أنني ربحت في القمار ثروة، ولكنه كان يفترض أنني كنت عند بلانش بمثابة سكرتير خاص، بل ربما بمثابة خادم أيضاً. وقد استمر يخاطبني من علٍ على كل حال، ويكلمني بلهجة الآمر، حتى لقد كان يأذن لنفسه بأن يوبّخني أحياناً. وفي ذات صباح، بينما كنا نحتسي القهوة سلك سلوكاً أضحكنا كثيراً أنا وبلانش. إنه لم يكن سريع التأذي في العادة، ولكن لا أدري لِمَ ساءه وجودي فجأة في ذلك الصباح، (وما زلت أجهل هذا إلى الآن، ومن المحقق أنه كان هو نفسه لا يدري ذلك)، فإذا هو يشرع في خطاب لا ذيل له ولا رأس، لا أول له ولا آخر، خطاب يخبط خبط عشواء؛ قال إنني صبي غرّ، وإنه سيعلّمني كيف أعيش، وكيف أفهم... إلخ إلخ... ولكن ما من أحد استطاع أن يفهم عنه شيئاً. وكانت بلانش تكاد يغشى عليها من شدة الضحك. واستطعنا أخيراً أن نهدئ روعه على نحو من الأنحاء، وصحبناه في جولة قمنا بها معاً. لاحظت عدة مرات أن نوبات من الحزن كانت تعتريه من حين إلى حين، فهو يأسف على شيء ما، أو على أحد ما، هو يشعر أن أحداً ما يعوزه، رغم وجود بلانش. وقد كنت نجياً له مرتين أو ثلاثاً، فأراد أن يفضي إليّ بمكنون نفسه، ولكنني لم أستطع أن أستخرج من كلامه أي شيء واضح: كان يتكلم عن خدمته العسكرية، وعن المرحومة زوجه، وعن أراضيه،

وعن ثروته. فإذا وقع على كلمة تحلو له، أخذ يرددها مائة مرة في اليوم الواحد، رغم أنها لا تفصح لا عن عواطفه ولا عن خواطره. وحاولت أن أدير الحديث على الأولاد، ولكنه أخذ يتدفق في الكلام كما كان يفعل آنفاً، وينتقل إلى موضوع آخر.

مرة واحدة رقّ قلبه وظهر حنانه فيما كنا ذاهبين إلى المسرح، فقال:

– نعم، نعم، الأولاد... أنت على حق... الأولاد..

ثم انطلق فجأة يضيف:

– إنهم أولاد تعساء، نعم نعم يا عزيزي، إنهم أولاد تعساء.

وردد هذه العبارة مراراً في تلك السهرة: «إنهم أولاد تعساء».

ولما أردت أن أكلمه في أمر باولين ثار حنقه وصاح يقول:

– إنها بنت عقوق! بنت شريرة وعقوق! لقد لطخت شرف الأسرة! ولو كان هنالك قوانين إذن لروّضتها وأدّبتها. نعم نعم!...

أما دي جريو فقد كان الجنرال لا يطيق أن يذكر له اسمه؛ فكان يقول:

– لقد دمرني... جرّدني من كل شيء... ذبحني ذبحاً... كان كابوسي الرهيب سنتين كاملتين، كان يجثم على صدري في أحلامي أشهراً برمتها... إنه... إنه... دعنا منه!... ولا تكلمني عنه بعد الآن قط!

ولاحظت أن ثمة اتفاقاً كان يتم بينهما، ولكنني صمتّ على عادتي لا أقول شيئاً. ثم أطلعتني بلانش على ما تم اتفاقهما عليه، وكان ذلك قبل رحيلي بثمانية أيام على وجه التحديد. قالت تفضي إليّ بسرها:

– إن للجنرال أملاً في ميراث الجدة، فهي الآن مريضة حقاً تنتظر منيتها من لحظة إلى أخرى. لقد أرسل إلينا مستر آستلي برقية بهذا المعنى. والجنرال هو وريثها طبعاً. وهبه لم يرثها، فإنه لن يزعجني في شيء. فهو أولا يملك معاشه التقاعدي، وهو ثانياً سيقيم في الحجرة التي تقع في آخر المنزل سعيداً بذلك كل السعادة؛ وسيكون اسمي أنا «مدام الجنرال»، فأدخل المجتمع الراقي (كان ذلك حلم بلانش). وسأصبح عدا ذلك من الروس أصحاب الأطيان، لي قصر، ولي فلاحون (موجيك)، ثم يكون لي مليوني الذي أريده!

قلت:

– فماذا عساك تفعلين إذا أصبح غيوراً، فأصبح يقتضيك... الله أعلم ماذا؟ هل تفهمين ما أعني؟

– أوه... لا... لا... هذا لن يكون... إنه لن يجرؤ! وقد اتخذت احتياطاتي، فلا تقلق من هذه الناحية! لقد حملته على أن يمهر بتوقيعه عدة سندات باسم ألبير... فما أن يخطر له أي خاطر من هذا القبيل... حتى يُعاقَب فوراً... لا... لا... لن يجرؤ!

– إذن تزوجيه.

وتمّ الزواج فعلاً بلا أبهة خاصة، تمّ بسيطاً في جو عائلي، لم يُدعَ إلى الاحتفال به إلا ألبير وعدد من الأصدقاء الحميمين. واستُبعدت هورتنس وكليوباتره والآخرون استبعاداً مقصوداً حاسماً. واتخذ الخطيب وضع الجد. وتولت بلانش عقد ربطة عنقه بنفسها، ودهنته بالعطر، وظهر بردائه الرسمي وصدرته البيضاء رجلا لائقا مهيبا.

قالت لي بلانش وهي تخرج من غرفة الجنرال، وكأن هذه الفكرة قد فاجأتها:

– إنه لائق جداً مع ذلك.

وإذ إنني لم أدخل في التفاصيل ولم أشارك في هذا كله إلا مشاهِداً غير مكثرث ولا مبال، فقد نسيت الآن شطراً كبيراً مما حدث حينذاك. ولكنني أتذكر أنه قد اكتشف أن بلانش لم يكن اسمها دوكومنج (لا ولا كان اسم أمها مدام/ أرملة دوكومنج)، بل كان اسمها دوبلاسيه. أما لماذا اختارتا كلتاهما هذا الاسم حتى ذلك اليوم... فهذا أمر أجهله. غير أن الجنرال قد سحره ذلك سحراً، حتى أن اسم دوبلاسيه راقه أكثر مما راقه اسم دوكومنج. وفي صبيحة يوم الزواج كان قد ارتدى ملابسه كاملة، وأخذ يذرع الصالون جيئة وذهاباً ويردد بغير توقف قائلاً وقد لاح في وجهه الجد كل الجد: «مدموازيل بلانش دوبلاسيه! مدموزيلا بلانكا ديو بلاسيتا!...»؛ كان يردد ذلك وقد التمعت في محياه معاني الرضا والاكتفاء والارتياح. أما في الكنيسة، وفي مقر المحافظة، وفي البيت أثناء تناول طعام العشاء، فلم يكن وجهه يفصح عن السعادة فحسب، بل كان يعبر عن العجب والزهو أيضاً. ولقد حصل لهما كليهما شيء ما، فإن مدموازيل بلانش قد أصبحت تصطنع هيئة الوقار والرصانة.

قالت لي وقد لاحت في وجهها كل معاني الجد:

– يجب أن أتصرف بعد اليوم تصرفاً آخر... ولكن هل ترى؟ هنالك أمر مزعج جداً لم يخطر لي على بال. تصور أنني لا أتوصل إلى تذكر اسمي العائلي؟ زاجوريانسكي، زاجوريانسكي، مدام الجنرال دي ساجو... ساجو... تباً لهذه الأسماء الروسية! على كل حال... سيكون اسمي مدام الجنرال... أربعة عشر حرفاً! شيء لذيذ، أليس كذلك؟

وافترقنا أخيراً، فإذا بلانش، هذه الحمقاء بلانش، تذرف بعض الدموع حين تودعني. قالت لي متباكية:

– لقد كنت ولداً طيباً... ظننتك بهيمة، وكان يبدو عليك ذلك، على أن هذا يناسبك.

وبعد أن صافحتني مرة أخيرة، صاحت فجأة تقول: «انتظر!» وأسرعت إلى مخدعها ثم عادت بعد لحظة تحمل ورقتين ماليتين من ذات الألف فرنك. ما كان لي أن أظن أنها ستفعل ذلك!

قالت:

– خذ هذا، فسيفيدك. قد تكون مثقفاً جداً من حيث أنت «مربّ»، ولكنك بليد من حيث أنت رجل. ولن أعطيك أكثر من هذا، لأنك ستخسر كل شيء، كيف دار الحال. هيا! وداعاً! سنظل دائماً صديقين. فإذا ربحت مرة أخرى، فلا يفوتنك أن تأتي إليّ، وستكون سعيداً!

كان لا يزال معي خمسمائة فرنك. ثم إنني أملك ساعة جميلة يساوي ثمنها ألف فرنك، وأملك أزرار أكمام من الماس، فأستطيع إذن أن أعيش بهذا زمناً طويلاً دون هموم. لقد أقمت في هذه المدينة الصغيرة المضجرة، لأستجمع أفكاري؛ وأنا أنتظر مستر آستلي خاصة. فلقد سمعت

من مصدر يوثق به أنه لا بد أن يمر بهذه المدينة، وأن يمكث فيها أربعاً وعشرين ساعة لقضاء بعض الأعمال. لسوف أعلم إذن كل شيء... وبعدئذ... بعدئذ... أذهب رأساً إلى هومبورج. ولن أعود إلى رولتنبرج، قبل السنة القادمة على الأقل. يقال إنه ليس من الخير أن يجرب المرء حظه مرتين على مائدة قمار واحدة. ثم إن اللعب قائم في هومبورج أيضاً.

الفصل السابع عشر

مُنذ عشرين شهراً لم أنظر في هذه المذكرات؛ ولم يخطر ببالي أن أعيد قراءتها إلا في هذا اليوم، عسى أن تنسيني قلقي وتخفف من حزني وشجني. لقد وصلت من حديثي السابق إلى اليوم الذي قصدت فيه هومبورج. رباه! ما كان أشد طيشي وأخف عقلي حين كتبت تلك الأسطر الأخيرة؛ فإن لم يكن الأمر أمر طيش شديد وعقل خفيف، فلا أقل من أن يوصف بأنه ثقة بالنفس، وأمل لا يتزعزع! هل كنت أشك في نفسي أي شك؟ وها قد انقضى على ذلك الآن ثمانية عشر شهراً، فإذا أنا أعيش في وضع خير منه وضع أي شحاذ متسول في رأيي! بل أين أنا من أي شحاذ متسول؟ أنا امرؤ ضاع وكفى! إن وضعي لا يمكن أن يشبّه بأي وضع البتة. ولن أتحدث الآن حديث الواعظ الناصح، فلا شيء أسخف من النصح والوعظ في لحظة كاللحظة التي أعيشها الآن! آه من أولئك الراضين عن أنفسهم! آه من ذلك الزهو المغرور الذي يصاحب كلام أولئك الثرثارين حين يأخذون يطلقون نصائحهم ومواعظهم وعباراتهم المأثورة! لو علموا مدى شعوري بما تتصف به حالتي الراهنة من تردٍّ وسوء، لأصبحوا عاجزين عن العثور على كلمات يستعملونها في إسداء النصح وإزجاء الموعظة وإلقاء الدرس. وهل في وسعهم أن يقولوا لي أي شيء جديد لا أعرفه من قبل؟ نعم، إن الأمر لكذلك. والشيء المحقق الذي لا ريب فيه... هو أن دوران العجلة دورة واحدة يمكن أن يبدل كل شيء، فإذا بهؤلاء الواعظين أنفسهم يأتون إليّ أول الآتين (أنا متأكد من ذلك) ليهنئوني ممازحين كما يمازح الصديق صديقه؛ وإذا هم لا يتحولون عني مشيحين كما يفعلون

الآن. ولكنني أبصق في وجوه هؤلاء الناس! ما أنا الآن؟ صفر! ماذا أستطيع أن أكون غداً؟ أستطيع أن أحيي موتي فأستأنف الحياة. أستطيع أن أكتشف في نفسي الإنسان قبل أن يضيع.

سافرت فعلاً إلى هومبورج. ولكنني... ذهبت بعد ذلك إلى رولتنبرج، وإلى سبا، وإلى بادن أيضاً، أرافق مرافقة الخادم سيده، المستشار هنزي، الوغد الذي صار هنا سيدي ومولاي. نعم، لقد لبثت خادمًا خلال خمسة أشهر. وقد حدث ذلك بعد خروجي من السجن تواً (ذلك أنني أودعت السجن بسبب ديون لم أردها، ثم سددها عني شخص مجهول، لا أدري أهو مستر آستلي، أم هو باولين، أم هو إنسان آخر؛ ولكن الديون قد سُدّدت، وكان مجموعها مائتي تالير، فأفرج عني وأطلق سراحي). إلى أين كان يمكنني أن أذهب؟ وفي ذلك الوقت إنما دخلت في خدمة ذلك الرجل الذي اسمه هنزي. هو شاب طائش مولع بالكسل، وأنا أجيد الكلام والكتابة بثلاث لغات؛ فاتخذني في أول الأمر سكرتيراً أو ما يشبه السكرتير، بأجر شهري مقداره ثلاثون فلورين؛ ولكنني أصبحت آخر الأمر خادمه حقاً: ذلك أن موارده قد قلت، فأصبح لا يستطيع أن يكون له سكرتير، فأنقص أجري، وكنت لا أعرف مكانًا أذهب إليه، فبقيت عنده، وبذلك أحلت نفسي بنفسي إلى خادم. وكنت لا أنال في خدمته حظاً كافياً من الطعام والشراب، ولكنني استطعت أن أدخر سبعين فلورين في مدى خمسة أشهر. وفي ذات مساء، وكنا أيامئذ في بادن، أعلنت له أنني أريد أن أتركه، وذهبت في ذلك المساء نفسه إلى الروليت! لشد ما كان قلبي يخفق! وما كان المال هو ما أحرص عليه! لا... وإنما كنت أريد أن أرى جميع هؤلاء الذين يسمون هنزي، وجميع مديري الخدمة في الفندق، وجميع هاتيك السيدات الحسناوات في بادن، كنت أريد أن أرى جميع هؤلاء، منذ

الغداة، يتحدثون عني ويروون قصتي، ويعجبون بي، ويُزجون إليّ المديح والإطراء، وينحنون أمامي إجلالاً لما أصبت من حظ جديد في اللعب. ولقد كان ذلك كله أحلاماً ومشاغل من أحلام الأطفال ومشاغلهم... ولكن... من يدري؟ فلعلني ألقى أيضاً باولين، فأقص عليها مغامراتي، وأبرهن لها على أنني فوق جميع ضربات الحظ السخيفة تلك! نعم لم يكن المال هو ما أحرص عليه! وإني لعلى يقين من أنني لو قد جنيت ربحاً كبيراً لأعطيته مرة أخرى لامرأة ما مثل بلانش، ولظهرت أعرض نفسي مرة أخرى ثلاثة أسابيع بباريس، يجر عربتي فرسان ثمنهما ستة عشر ألف فرنك. أنا أعرف أنني لست بالبخيل... بل إنني لأعتقد أنني مبذّر مِتْلاف. ومع ذلك فما كان أشد انفعالي، وما كان أشد انقباض صدري، حين كنت أسمع القيّم يعلن: واحد وثلاثون، أحمر، مفرد، باس؛ أو: أربعة، أسود، مزدوج، مانك! وما كان أشد شراهتي ونهمي حين كنت أنظر إلى مائدة القمار فأرى الدنانير الذهبية والفردريكات والتاليرات مبعثرة هنا وهناك، وأرى كدسات الذهب تدحرجها مجرفة القيّم أكواماً متقلبة الألوان كالجمر، أو أرى نقود الفضة ملفوفة أسطوانات تحيط بالدائرة من كل جانب. كنت حتى قبل أن أصل إلى قاعة اللعب أوشك أن أنهار حين أسمع رنين النقود ذهباً وفضة.

كانت تلك الأمسية التي حملت فيها إلى مائدة القمار فلوريناتي السبعين أمسية رائعة. لقد بدأت بعشر فلورينات حططتها على الباس. كان قد استقر في وهمي شيء من الإيثار للباس. فخسرت. فبقي معي ستون فلوريناً، نقوداً من فضة. ففكرت... ثم وقع اختياري على الصفر. فحططت خمسة فلورينات دفعة واحدة على الصفر. فإذا بالصفر يظهر في الدورة

الثالثة. تصورت أنني سأموت فرحاً وأنا أتلقى مائة وخمسة وسبعين فلورينا. لم أشعر بمثل هذه السعادة يوم ربحت مائة ألف فلورين. وما لبثت أن حططت مائة فلورين على الأحمر... فربحت؛ ثم حططت مائتين على الأحمر... فربحت... ثم حططت أربعمائة على الأسود.. فربحت... ثم حططت ثمانمائة على الباس فربحت أيضاً. بلغ ما أملكه ألفاً وسبعمائة ألف فلورين... وقد تم ذلك كله في أقل من خمس دقائق! إن المرء ينسى في مثل هذه الأحوال جميع الإخفاقات الماضية! لقد حصلت على ذلك مجازفاً بأكثر من حياتي... لقد تجرأت أن أجازف... فإذا أنا أجد نفسي في عداد الرجال من جديد!

استأجرت غرفة في فندق، فحبست نفسي فيها مغلقاً بابها بالمفتاح، ولبثت ثلاث ساعات أعد ما آل إليّ من مال. حتى إذا استيقظت، كنت قد أصبحت رجلاً حراً لا خادماً ذليلاً. وقررت أن أسافر في ذلك اليوم نفسه إلى هومبورج. فهناك لم أكن خادماً، ولا أودِعتُ سجناً. ولكنني قبل موعد سفر القطار بنصف ساعة ذهبت إلى الروليت لأقامر مرتين لا أكثر، فخسرت ألفاً وخمسمائة فلورين. ومع ذلك سافرت إلى هومبورج التي انقضى على وجودي فيها شهران حتى الآن.

إنني أعيش الآن هنا في قلق متصل. فإذا مضيت أقامر لم أقامر إلا قليلاً في جلسة واحدة، فأنا أنتظر متريثاً، وأجري حسابات طويلة، وقد ألبث أياماً برمتها قرب مائدة القمار أراقب مراقبة، وأحلم باللعب حلماً... ومع ذلك فإنه يبدو لي أنني قد تبلدت، وأنني قد غطست في الوحل. إنني أستنتج هذا من الشعور الذي شعرت به حين التقيت بمستر آستلي. لم نكن قد التقينا قبل ذلك، ثم التقينا في هذه المرة مصادفة. وإليك كيف وقع ذلك: كنت سائراً في

الحديقة العامة أجري حساباتي فأرى أنني أصبحت خالي الوفاض تقريباً، لم يبق معي إلا خمسون فلوريناً، بعد أن دفعت أول أمس فاتورة الفندق الذي أشغل فيه غرفة صغيرة. لم يبق في وسعي إذن أن أقامر على الروليت إلا مرة واحدة، فإذا ربحت، ولو مبلغاً ضئيلاً، استطعت أن أواصل اللعب، أما إذا خسرت... فسيكون عليّ أن أعمل خادماً من جديد، إلا أن أجد على الفور أسرة روسية تحتاج إلى «مربّ»... كانت هذه الفكرة هي التي تشغل بالي، فمضيت أقوم بنزهتي اليومية في الحديقة العامة وفي الغابة التي تقع في ضاحية مجاورة. كنت أظل أمشي على هذه الحال أربع ساعات أحياناً ثم أعود إلى هومبورج متعباً جائعاً. وإني لأدخل في الحديقة، إذا أنا ألمح مستر آستلي على حين فجأة، جالساً على أحد المقاعد. إنه هو الذي رآني فناداني. فجلست إلى جانبه. وإذ لاحظت في وجهه الجد والرصانة، سارعت أطامن فرحي وأهدئ انفعالي. فلقد سرني حقاً أن أراه.

قال مستر آستلي:

– أنت إذن هنا؟ لقد توقعت أن ألتقي بك. لا تتعب نفسك في أن تقص عليّ شيئاً، فإنني على علم بكل شيء، بكل شيء. أعرف كل ما جرى لك خلال هذه الأشهر العشرين.

قلت أجيبه:

– ها... إذن أنت ترصد أصدقاءك القدامى. ألا إن هذا ليشرفك. فلست بمن ينسى أصحابه. ولكن قل لي: لقد خطر ببالي الآن شيء: ألست أنت الذي أخرجتني من سجن رولتنبورج الذي أودعته بسبب دين مقداره مائتا فلورين؟ إن شخصا مجهولا قد سدد عني هذا المبلغ.

– لا، لا، ما أنا... ولكنني أعلم أنك سجنت بسبب ديون في رولتنبورج.

– هل تعرف إذن من الذي سدد عني الدين فأطلق سراحي؟

– لا، لا أستطيع أن أقول أنني أعرف.

– غريب!... إنني لا أعرف أحداً من الروس هنا، وما كان لأحد منهم أن يسدد عني ديناً على كل حال. وإنما هناك، في بلادنا، في روسيا، يفتدي الأرثوذكس إخوتهم على هذا النحو. لذلك قدّرت أن الذي سدد عني الدين لا بد أن يكون إنجليزياً عجيباً ما، فعل ذلك من قبيل التفرد والشذوذ.

كان مستر آستلي يصغي إليّ مندهشاً بعض الاندهاش، فلا شك أنه كان يتوقع أن يراني حزيناً منهاراً.

قال وقد لاح في وجهه شيء من العبوس:

– مهما يكن من أمر، فإنه لما يأخذ بلبي أن أراك على عهدي بك من استقلال في الفكر، بل ومن مرح في المزاج.

فقلت له ضاحكا:

– أي أنك في قرارة نفسك يحنقك أن لا تراني منهك النفس مذل الكرامة.

فلم يدرك معنى ما قلته أول الأمر، لكنه حين فهم أخذ يبتسم.

– تعجبني ملاحظاتك. إنني أرى في كلماتك هذه صديقي القديم، الشديد الحماسة، المتوقد الذكاء، الساخر الهازئ المستخف في الوقت نفسه. الروس وحدهم قادرون على أن يجمعوا في أنفسهم كل هذه الأضداد. صحيح أن الإنسان يحب أن يرى خير صديق من أصدقائه مذلًا أمامه: فعلى الإذلال إنما تقوم الصداقة أكثر الأحيان. تلك حقيقة قديمة يعرفها جميع الأذكياء من الناس. ولكنني أؤكد لك أنني حين رأيتك على حالتك هذه متماسكاً غير منهك، قد سُعدت صادقاً مخلصاً. قل لي: أليس في نيتك أن تترك القمار؟

– هه... فليذهب القمار إلى جهنم؟... لسوف أتركه متى...

– متى استرددت مالك، أليس كذلك؟ هذا ما كنت أتوقعه... فلا تكمل... أنا أعرف... ولقد أفلت منك هذا الكلام دون تفكير... إذن فقد قلت الحقيقة، ولكن قل لي: هل تعمل الآن في شيء، عدا القمار؟

– لا...

فأخذ يمتحنني. كنت لا أعرف شيئاً، كنت لا أكاد ألقي نظرة على الصحف، لا ولا أمسكت بكتاب طوال ذلك الوقت.

قال مستر آستلي:

– لقد تبلّدت وتخدرت: لم تنصرف عن الحياة فحسب، لم تَدَع اهتماماتك الشخصية، واهتمامات المجتمع وواجباتك إنسانا ومواطنا فحسب، ولم تهجر أصدقاءك فحسب (ولقد كان لك أصدقاء)؛ ولم تُشِح بوجهك عن كل هدف عدا الربح فحسب، بل تحولت حتى عن

ذكرياتك... إنني أتذكر كيف كنت في فترة جامحة عنيفة من حياتك، ولكنني على يقين من أنك نسيت جميع ما عانيته أثناء تلك الفترة من أحسن المشاعر: نسيت أحلامك كلها، وأصبحت رغباتك اليومية كلها لا تمضي إلى أبعد من التفكير في المزدوج والمفرد والأحمر والأسود، والأرقام الاثني عشر الوسطى، إلخ إلخ. أنا على يقين من ذلك.

هتفت أقول متبرماً بل غاضباً بعض الغضب:

– كفى، كفى يا مستر آستلي، أرجوك، أرجوك أن لا تذكر لي الماضي. واعلم أنني لم أنس شيئاً. ولكنني طردت ذلك كله من ذهني إلى حين، حتى ذكرياتي... بانتظار أن أسترد وضعي كاملاً... وعندئذ، عندئذ... لسوف ترى كيف أحيي موتي!

قال مستر آستلي:

– لسوف تلبث هنا عشر سنين. أراهن على أنني سأذكرك بهذا الكلام، فوق هذا المقعد نفسه، إذا بقيت حياً.

قاطعته أقول نافد الصبر:

– طيب طيب... كفى! ومن أجل أن أبرهن لك على أنني لست بمن ينسى، فهلا أذنت لي أن أسألك أين هي مس باولين الآن؟ فلشن لم تكن أنت من سدد عني ديوني، فأطلق سراحي من السجن، فلا بد أن تكون هي من فعل ذلك. لم أسمع شيئاً عن أخبارها أبداً.

فقال بلهجة حازمة بل وغاضبة:

– لا... لا... لا أظن أنها هي التي دفعت ديونك! وهي الآن بسويسرا، ولسوف تسرني كثيراً إذا أنت لم تلق عليّ أسئلة عن مس باولين.

قلت وأنا أضحك رغم إرادتي:

– إذن فقد جرحتْك أنت أيضاً جرحاً عميقاً بالغاً؟

– إن مس باولين خيرٌ من خير مخلوق يستحق الاحترام على وجه الأرض، ولكنني أعود فأقول لك إنك تسرني كثيراً إذا كففت عن إلقاء أسئلة تتعلق بها. أنت لم تعرفها يوماً، وعندي أن تحرّك فمك بذكر اسمها إساءة إلى حسّي الأخلاقي.

– حقاً؟ ولكنك مخطئ على كل حال. فيم عساي أكلمك إن لم أكلمك عن مس باولين؟ هلا فكرت قليلا؟ إن جميع ذكرياتنا متصلة بها. وما عليك أن تخشى شيئاً، فما بي حاجة قط إلى معرفة حكاياتكما الحميمة! وإنما يعنيني، إن صح التعبير، أن أعرف ما يحيط بمس باولين الآن من ظروف خارجية. أريد أن أعرف شيئاً عن وضعها الخارجي لا أكثر من ذلك. وهذا يمكن أن يقال بكلمتين.

– لك ما تريد. ولكن على شرط أن نبقى في حدود هاتين الكلمتين لا تتعداهما. ظلت مس باولين مريضة زمناً طويلاً، وما تزال مريضة إلى الآن. سكنت بعض الوقت عند أمي وأختي في شمال إنجلترا. ومنذ ستة أشهر ماتت جدتها (تذكر تلك المرأة المجنونة تماماً)، تاركة لها، لها شخصياً، سبعة آلاف دينار. وهي – أي مس باولين – تقوم الآن برحلة مع أسرة أختي التي تزوجت. وقد كفلت وصية الجدة أيضاً مصير أخيها الصغير وأختها الصغيرة، فهما

يتعلمان الآن بلندن. أما الجنرال، زوج أمها، فقد مات منذ شهر في باريس من نزيف في الدماغ. وقد عنيت به مدموازيل بلانش، ولكنها استطاعت أن تسجل على اسمها كل ما ورثه عن الجدة. هذا كل شيء فيما أظن.

– ودي جريو؟ ألا يقوم برحلة في سويسرا هو أيضاً؟

– لا... إن دي جريو لا يقوم برحلة في سويسرا، ولا أعرف أين هو الآن. على أنني أنصحك مرة أخيرة أن تجتنب هذا النوع من الغمز، وأن تحاذر هذا النوع من التقريب بين الأمور تقريباً ليس في محله، وإلا كان لي معك شأن!..

– ماذا؟ أرغم صداقتنا القديمة؟

– نعم... الجسم

– أستغفرك ألف مرة يا مستر آستلي، وأسألك الصفح! ولكن اسمح لي أن أقول لك إن الأمر ليس فيه شيء من إساءة ولا هو يضع أمورًا في غير موضعها. إني لا أتهم مس باولين بشيء البتة. وعدا ذلك... فإن التقارب بين رجل فرنسي وآنسة روسية هو، على وجه العموم، أمر لا نستطيع لا أنا ولا أنت أن نوضحه إيضاحًا كاملًا أو أن نفهمه فهمًا تامًا.

– لو لم تقرن اسم دي جريو باسم آخر لطالبتك أن تشرح لي ما تعنيه بقولك «فرنسي صغير» و«آنسة روسية»! فما هذا «التقارب» الذي تعنيه؟ ولماذا تخصص فتقول: فرنسي وآنسة روسية؟

– هل رأيت؟ إن الأمر يعنيك. ولكنها حكاية طويلة يا مستر آستلي. إن هناك أشياء كثيرة يجب أن تُعرف أولاً. ثم إنها مسألة هامة، تبلغ من الهزل أن الأمر كله يبدو من أول نظرة. الفرنسي يا مستر آستلي شكل كامل رشيق أنيق. قد لا ترى أنت هذا الرأي من حيث أنك بريطاني؛ ولست أرى أنا هذا الرأي من حيث أنني روسي، ولو من باب الغيرة على الأقل. ولكن لعل آنساتنا ينظرن نظرة أخرى. لقد تَعُدّ «راسين» متصنعاً، متكلفاً، مزوّقاً، حتى لقد تأبى أن تقرأه حتماً. وإني لأعده أنا أيضاً متصنعاً متكلفاً مزوقاً بل باعثاً على الضحك أكثر منه جديراً بالسخرية به من بعض النواحي. ولكنه فاتن يا مستر آستلي، وهو شاعر كبير بخاصة، شئنا أم أبينا. إن الشكل القومي للفرنسي، أعني للباريسي، قد انصب في قالب أنيق حين كنا ما نزال نحن دببة. لقد ورثت الثورة النبالة. فأنت ترى الآن أتفه الفرنسيين صاحب حركات رشيقة، وأوضاع أنيقة، وتعبيرات جميلة، بل وأفكار تلبس شكلاً رشيقاً كل الرشاقة، دون أن يكون في ذلك كله شيء من مبادهته أو روحه أو قلبه. لقد انتقل إليه هذا كله وراثة. فقد يكونون في ذاتهم أكثر المخلوقات فراغاً وسوءاً. ذلك من جهة، ومن جهة أخرى فإنه ليس في الدنيا كلها (أقول لك هذا الآن يا مستر آستلي) إنسان أكبر ثقة وأكثر انفتاحاً من فتاة روسية طيبة ذكية غير مسرفة في التكلف والتصنع. لذلك يستطيع رجل مثل دي جريو، أياً كان الدور الذي يمثله زوراً وبهتاناً، وأياً كان القناع الذي يخفي به وجهه، أن يغزو قلبها بسهولة لا يصدقها العقل. ذلك أن له شكلاً رشيقاً أنيقاً يا مستر آستلي، والفتاة تحسب أن شكله هذا هو روحه، تحسب أن هذا الشكل هو الصورة الطبيعية لروحه وقلبه، ولا تحسبه لباساً انتقل إليه وراثة. يجب أن أعترف لك يا مستر آستلي، وهذا سيسوءك، أن الإنجليز في أغلب الأحيان مسرفون في النظام محرومون من الأناقة أو الرشاقة. والروس

أناس مفطورون على تمييز الجمال، مولعون به، ظامئون إليه. ولكن تمييز جمال الروح وأصالة الشخصية يحتاج إلى قدر من استقلال الرأي وحرية النفس فوق ما يملك منهما نساؤنا، فما بالك بالفتيات! إن مس باولين (لا تؤاخذني، فقد نسيت اسم الأسرة)، ستقضي وقتاً طويلاً قبل أن تعزم أمرها فتؤثرك على وغد مثل دي جريو. إنها تقدرك وتحترمك. وستكون صديقة لك، وستفتح لك قلبها كله. ولكن ذلك الوغد الكريه، ذلك المرابي الحقير التافه الذي يسمى دي جريو سيكون هو سيد ذلك القلب. وسيستمر هذا الأمر، ولو عناداً أو كبرياء إن صح التعبير، لأن دي جريو نفسه قد ظهر لها ذات يوم تحت هالة مركيز رشيق أنيق، متحرر الفكر متخلص من الأوهام، دمر نفسه لأنه أراد أن يساعد أسرتها ويساعد ذلك الجنرال الطائش. صحيح أن ألاعيبه كلها قد افتضحت بعدئذ. ولكن ليس لهذا كبير شأن: ردوا إليها دي جريو القديم: فذلكم ما تريده. وكلما ازداد الاحتقار الذي تشعر به نحو دي جريو الجديد، ازداد أسفها وازدادت حسرتها على دي جريو القديم، رغم أن القديم لم يوجد إلا في خيالها. أنت صاحب مصنع يا مستر آستلي، أليس كذلك؟

– بلى! أنا شريك في المصفاة الكبيرة، لوول وشركاه.

– أرأيت إذن يا مستر مستلي؟ هناك صاحب مصفاة في جهة، وهناك في الجهة الأخرى آبولون بلفيدير... لا يستقيم الأمران معاً. أما أنا فلست حتى صاحب مصفاة: ما أنا إلا مقامر صغير في الروليت. بل لقد كنت في الخدمة، وهذا ما تعرفه مس باولين حتماً، لأن لها عيوناً تحسن تزويدها بالأخبار.

قال مستر آستلي ببرود، بعد أن فكر بضع لحظات:

– أنت حانق، ولهذا إنما تقول هذه السخافات والترهات. ثم إن أقوالك خالية من الأصالة.

– صحيح. والشيء الرهيب، أيها الصديق النبيل، هو أن جميع اتهاماتي، بالغة ما بلغت من تفاهة وسخافة، صادقة مع ذلك. ثم إننا لم نقل شيئاً على كل حال، لا أنت ولا أنا!

صاح مستر استلي وقد ارتعش صوته والتمعت عيناه:

– هذا الكلام فحش وحماقة... ألا فاعلم إذن أيها الإنسان العاق، أيها الإنسان القبيح التعيس الشقي، أنني إنما جئت إلى هومبورج بأمر منها، لأراك، وأتحدث معك طويلاً، بقلب مفتوح وصراحة تامة، ثم أنقل إليها كل شيء... عواطفك، وأفكارك، وآمالك و... ذكرياتك!

هتفت أقول وقد انبجست من عيني دموع غزيرة:

– أهذا ممكن؟ أهذا ممكن؟

لم أستطع أن أحبس دموعي عن الهطول، وأظن أنها أول مرة في حياتي.

قال مستر آستلي:

– نعم أيها الشقي. لقد كانت تحبك. أستطيع أن أكشف لك عن ذلك، لأنك إنسان ضاع وانتهى أمره؛ فلو قلت لك إنها ما تزال تحبك... لبقيت... لبقيت هنا رغم ذلك! نعم. لقد ضيّعت نفسك. كان لك بعض المواهب، وكان لك طبع يتدفق حياة، ولم تكن خبيث القلب أو سيئ النفس؛ حتى لقد كان في وسعك أن تنفع بلادك التي هي في مسيس الحاجة إلى رجال... ولكنك سوف تبقى هنا، وقد انتهت حياتك. لست أتهمك. وفي رأيي أن الروس جميعاً مثلك، أو أنهم مهيأون لأن يكونوا مثلك. فإن لم يقعوا فريسة الروليت وقعوا فريسة

شيء يشبهها. وما أندر الذين يمكن استثناؤهم من ذلك! لست أول من يتنكر للعمل، فإنما خلقت الروليت للروس. لقد كنت إلى الآن رجلاً شريفاً، فآثرت أن تكون خادماً على أن تَسْرُق... ولكنني أرتعد حين أتصور ما قد يحدث لك في المستقبل. حسبنا هذا الآن. أنت في حاجة إلى بعض المال طبعاً؟ إليك عشرة ريالات ذهبية. لن أعطيك أكثر من ذلك، لأنك ستخسر كل ما قد أعطيك على كل حال.. خذ هذا، ووداعاً. ما لك لا تأخذ المال؟

قلت:

– لا يا مستر آستلي، أبعد كل ما قلناه..

فصرخ مستر آستلي: الم

– خذ!... إنني مقتنع بأنك ما تزال نبيلا، وإذا أعطيتك هذا المال، فكما يعطي صديق صديقاً حمياً. ولو كنت على يقين من أن في الإمكان أن تهجر القمار رأساً وأن تترك هومبورج عائداً إلى بلادك، إذن لكنت مستعداً أن أعطيك ألف دينار فوراً من أجل أن تبدأ حياة جديدة. ولئن لم أعطك إلا عشرة ريالات بدلاً من ألف دينار، فلأن المبلغين يستويان عندك: ستخسرهما لا محالة. خذ. ووداعاً.

– آخذها إذا رضيتَ أن أقبلك.

– أرضى مسروراً.

تعانقنا عناقاً وديّاً، وانصرف مستر آستلي.

لا... لا... إنه مخطئ! لئن كنت أنا قاسياً وغبياً في حكمي على مسألة باولين ودي جريو، فلقد كان هو قاسياً وغبياً في حكمه على الروس. لست أدافع عن نفسي أنا. على كل حال... على كل حال... ليس هذا هو الأمر الهام الآن: فتلك كلها أقوال، والحاجة الآن إلى أفعال. الأمر الهام الآن هو السفر إلى سويسرا! سأسافر غداً... آه... ليتني أستطيع أن أسافر على الفور: أن أُبعث بعثاً جديداً، أن أحيا حياة جديدة. يجب أن أبرهن لهم على... يجب أن تعلم باولين أنني ما زلت أستطيع أن أكون رجلاً. يكفي أن... لقد فات أوان السفر اليوم على كل حال... ولكن غداً... آه.. إنني أوجس شيئاً... ولا بد أن يحدث ما أوجسه! معي الآن خمسة عشر ريالاً ذهبياً، وقد بدأت بخمسة عشر فلورنيا! فإذا تصرفت بتعقل وروية... أيمكن أن أكون طفلاً صغيراً إلى هذه الدرجة؟ ألم أفهم أنني إنسان ضائع؟ نعم، يكفي أن أكون متعقلاً صبوراً، مرة واحدة في حياتي... هذا كل ما أنا في حاجة إليه! يكفي أن أكون قوي الإرادة مرة واحدة حتى أغيّر مصيري في ساعة. إن قوة الإرادة هي الأمر الهام. ليس عليّ إلا أن أتذكر ما حدث لي منذ سبعة أشهر في رولتنبرج قبل دماري النهائي. كان ذلك مثلاً رائعاً على التصميم: كنت قد خسرت كل شيء... كل شيء وخرجت من الكازينو، ونظرت... إن هناك فلوريناً ما يزال يتجول في جيب صدرتي. قلت لنفسي: «معي ما يكفيني لتناول عشائي». ولكنني بعد أن سرت مائة خطوة عدلت عن رأيي، وقفلت راجعاً. حططت الفلورين على المانك (على المانك، في تلك المرة). حقاً إن المرء ليشعر بإحساس غريب فريد حين يجازف، وهو وحيد، في بلد أجنبي، بعيد عن وطنه وعن أصدقائه، لا يدري هل يأكل في يومه، أقول حين يجازف، وتلك حاله، بآخر فلورين يملكه، بآخر فلورين. وربحت، وما هي إلا عشرون دقيقة حتى كنت أخرج من الكازينو بمائة وسبعين فلوريناً في جيبي. هذا ما

يمكن أن يكون لآخر فلورين من شأن! فلو قد استسلمت للانهيار، لو لم أملك الشجاعة اللازمة لاتخاذ قرار...

غداً، غداً ينتهي كل شيء!...